يصدرها حلمي مراد

١

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية



الجزء الثاني

اعترافات

جان جاك روسو

اعترافات

جان جاك روسو



LES CONFESSIONS

DE

J.J. ROUSSEAU

٢٣٠ صفحة
١٢ قرشا

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب التاسع والعشرون

اعترافات جان جاك روسو

ترجمة محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ستة وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر ٠٠ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، اما الأعداد الستة الأولى والعدد العشرون فقد نفدت، والادارة مستعدة لشرائها ٠

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى ٠

• ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات عليه ٠ واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما ٠

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امراة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، اوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظما للحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثار للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة أجزاء) ، بوشكين وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر والثانى والعشرين ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون والعددان ٢٦ ، و ٢٧ : ١٢ قرشا ، والعددان ١٢ ، ٢٨ : ١٤ قرشا والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص اجرة البريد المسجل) ٠

اعترافات

جان جاك روسّو

الجزء
الثاني



الجزء الاول .. فى سطور

• **ولدت** فى (جنيف) – فى عام ١٧١٢ – لأب كان يعمل فى صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولده . وبدلا من ان يكرهنى ابى لذلك ، فانه اسرف فى حبى ، لأننى كنت شديد الشبه بأمى

• **تنبه** احساسى قبل ان يتنبه فكرى . ثم عمد أبى الى اسلوب خطر ، اذ أشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة

• **اضطر** أبى الى ان يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى، كادت تلقى به الى السجن دون مبرر قانونى. فبقيت فى كنف خالى «برنار» ، الذى كان متزوجا من عمتى ، والذى ارسلنى مع ابنه الى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ونتلقى العلم على يديه ويدى اخته التى نبه عقابها اياى ، المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

• **على أثر** عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى .. وألحقنى خالى بمكتب موثق للعقود، فلم استسغ هذا العمل . ومن ثم ألحقنى كصبى – أو تلميذ صانع – لدى حفار ينقش على المعادن. وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبروننى ، وتعلمت السرقة، سيما وان معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فاننى لم اكن اسرق حبا فى المال أو الحيازة .. والى جانب هذا ، اشتد اقبالى على القراءة حتى أصبح تهوسا

• **واضطرتنى** قسوة معلمى ، ونفورى من حياتى ، الى الهرب من (جنيف) . . وانتهى بى المطاف الى سيدة محسنة فى (انيسى)، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش، لأنها اعتنقت الكاثوليكية . . تلك هى « مدام دى فاران » ، التى اشفقت

على ، وارسلتنى الى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكيا ..

• **واستطبت** بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت الى العودة الى مدام دى فاران ، التى رحبت بى ، وانزلتنى من نفسها منزلة الابن، وافردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم انكماش مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الايام صرت ادعوها «ماما» !

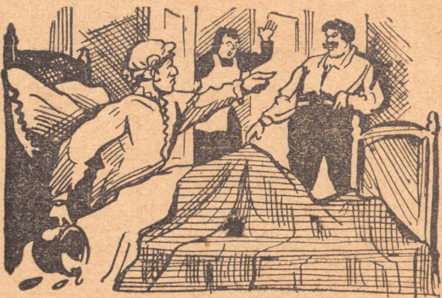
• **وكانت** هذه الحياة ابهج من ان تدوم . فقد اوفدتنى «ماما» مرة لأعاون السيد «لوميتر» ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء ان يفر من وجوههم .. وقد رافقته الى (ليون)، حيث اخذت تعاوده نوبات الصرع ، لفرط اسرافه فى الشراب، ففررت منه فى احدى هذه النوبات ، وعدت الى (انيسى) .. واذا بى افاجأ بأن «ماما» قد رحلت فى بعض شئونها، ولم ادر لها مقصدا أو مقرا !

• **واقمت** فترة مع «فينتور» ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل ، كان يزعم انه موسيقى موهوب . وكان لبقا ، انيقا ، مرحا ، يستهوى الاناث .. وعرفنى « فينتور » بالضابط القضائى ــ السيد سيمون ــ الذى ابدى ارتياحا لصحبتى .. وكان مشوه الجسم ، شديد القصر ، كبير الرأس ، لذلك كان يحلو له ان يعقد مقابلاته فى الصباح ، وهو فى السرير ، حيث يبدو رأسه ذو القسمات الجميلة ، ولا يبدو جسده المشوه !

والآن .. تابع قراءة هذا الحادث الذى بدأ به «روسو» الكراسة الرابعة من اعترافاته

***

• وفى ذات صباح ، بينما كان ينتظر فى سريره ـ أو بالأحرى ، على سريره ـ اصحاب الشكايات ، وقد ارتدى قلنسوة بيضاء بديعة ، مزدانة بزائدتين عريضتين من شريط وردى اللون ، وصل أحد الريفيين وطرق الباب . وكانت الخادم قد خرجت ، فما ان سمع السيد سيمون الطرقات ، حتى صاح مجيبا : « ادخل ! » .. وهو اذا لفظ الكلمة بشىء من القوة ، انبعثت بصوته الحاد . ودخل الرجل ، فبحث عن مصدر هذا الصوت النسوى ، وما ان رأى فى السرير قلنسوة وشريطا ، حتى هم بالخروج ثانية ، وهو يقدم « للسيدة » اعتذارات بالغة ! فغضب السيد سيمون ، ولم يزدد الا صراخا ، فتأكد الريفى من فكرته ، ورأى انه قد اهين ، فأغرقه بالشتائم ، وقال له ـ لها : « لست سوى فاجرة » ، وان السيد الضابط القضائى لا يضرب بحياته المنزلية مثلا طيبا !.. واشتد بالسيد سيمون



الغضب ، فلم يجد فى متناول يده سوى الوعاء الذى يقضى فيه حاجته فى المخدع ، فأوشك ان يلقى به على رأس الرجل المسكين ، لولا ان وصلت مدبرة بيته !

واذا كان هذا القزم الضئيل قد شوهت الطبيعة جسمه ، فانه لقى تعويضا فى الناحية العقلية التى كانت بطبيعتها مقبولة، والتى كان يعنى بتحسينها . ومع انه كان يقال عنه انه كان مستشارا قضائيا موفقا ، الا انه لم يكن يحب مهنته . فألقى بنفسه فى غمار الأدب ، واستطاع ان يوفق . ولقد اكتسب — فوق كل شيء — تلك اللباقة السطحية، تلك الموهبة التى تبعث فى المجتمع طرافة ، سيما مع النساء ! .. كان يعرف عن ظهر قلب دقائق المأثورات (١) وما اليها ، وقد أوتى فن ابرازها ، وربطها بالمناسبات ، واحاطتها بجو غريب ، وكأن الذى حدث مثلا منذ ستين عاما ، حكاية وقعت بالأمس ! وكان ملما بالموسيقى ، يحسن الغناء — بدرجة مقبولة — بصوته الآدمى. وقصارى القول انه أوتى مواهب أجمل مما يحتاج اليه مستشار قضائى. **وكان بحكم مجاملته لنساء (انيسى) قد أصبح ((موضة)) بينهن، فكن دائما يسحبنه وراءهن وكأنه ((نسناس)) صغير !.. حتى لقد راح يزعم انه كان محظوظا لدى النساء ، فكان ذلك يطربهن كثيرا . وكانت سيدة منهن — تدعى ((مدام ديبانى)) — تقول ان اقصى ما يشتهيه هو ان يقبل امرأة فى ركبتها ! (٢)**

ولما كان مطلعا على كتب الأدب الراقى ، ومشغوفا بالحديث عنها ، فان كلامه لم يكن ممتعا فحسب ، وانما كان مفيدا أيضا . وعندما اكتسبت — فيما بعد — ميلا الى الدروس ، أنميت معرفتى به ، فأفدت من ذلك نفعا عظيما. وكنت أسعى فى بعض الاحيان من (شامبيرى) — حيث كنت اذ ذاك — لكى ازوره . وقد أذكى هو فى هذا الميل وشجعه ، وكان يقدم لى بعض الارشادات فى مطالعاتى ، فكنت كثيرا ما أن تقع بها. ولسوء الحظ ، كانت تعمر هذا الجسد الواهن نفس مرهفة الحس ،

---

(١) مجموعات الاقوال المأثورة عن بعض الشخصيات ، والطرائف الصغيرة المرتبطة بهم .

(٢) تعنى أنه لايستطيع أن يصل الى فمها أو يدها لقصر قامته !

وقد قدر له ـ بعد ذلك بسنوات ـ ان يرتكب ذنبا لا ادريه ، مما أحزنه ، فلم يلبث ان قضى نحبه . ويا لهـا من خسارة ! لقد كان ـ يقينا ـ رجـلا طيبا ، ضئيل الجسم ، يبـدأ المرء بالضحك منه ، ثم ينتهى بأن يحبه ! .. ومع ان حياته لم تكن مرتبطة بحيـاتى فى شىء ، الا اننى أخذت عنـه بعض دروس نافعة ، فرأيت ـ بدافع من العـرفان ـ ان أخصه بحيز من ذكرياتى !

* * *

• **وما ان** انصرفت من لدن السيد سيمون ، حتى هرعت الى الشارع الذى كانت الآنسة جالى(١) تقيم فيه ، ممنيا نفسى بأن أرى شخصا ما ، داخلا او خارجا ، او فاتحا احدى النوافذ ، على الأقل !.. ولـكن شيئا ما لم يلح لى ، ولا هـرة ! بل ان البيت ظل ـ طيلة مكثى هناك ـ مغلقا تمـاما ، وكأنه لم يعمر قط بسكان . وكان الشارع صغيرا ومقفرا ، فكان وجود انسان كفيلا بأن يستلفت الأنظار .. وبين الحين والحين ، كان يعبره مار ، مابين داخل أو خارج من البيوت المجاورة . وقلقت من اجل نفسى ، فقد تراءى لى انهم كانوا يحدسون سر وجودى هناك . وامضتنى هـذه الفكرة ، فقد اعتدت دائمـا ان أقدم شرف وطمأنينة اولئك الأعزاء لدى ، على مسراتى الخاصة

وأخيرا ، مللت لعبة العاشق الاسبانى (٢) ، ولما لم يكن ثمة «جيتار» معى ، فقد اعتزمت الكتابة الى الآنسة دى جرافينرييه . وكنت أفضل ان اكتب لصديقتها ، ولكنى لم اكن أجسر ، فضلا عن انه كان من الاليق ان ابدأ بالتى كنت مدينـا لها بمعـرفة

---

(١) اعتاد العاشق فى اسبانيا أن يقف على قارعة الطريق ، بالقرب من دار الحبيبة ، ويمضى فى العزف على «الجيتار» عسى أن تفطن الى وجوده ، فتنعم عليه بنظرة !

(٢) الآنسة جالى والآنسة دى جرافينرييه هما الفتاتان اللتان قضى روسو معهما يوما بهيجا فى الريف (الصفحات ٢١٦ ـ ٢٢٢ من الجزء الأول) .

الأخرى ، والتى كنت معها أكثر ألفة ومودة . وما ان أتممت رسالتى ، حتى حملتها الى الآنسة « جيرو » (١)، وفقا لما اتفقت عليه مع الآنستين عندما افترقنا، وكانتا هما اللتان اقترحتا هذه الطريقة للتراسل. ذلك ان الآنسة «جيرو» كانت تحترف تنجيد الاثاث ، وقد عملت حينا فى دار السيدة جالى ، ومن ثم فقد كان دخول الدار مباحا لها . والحق ان اختيار هذه الوسيطة لم يبد لى موفقا ، ولكنى خشيت ان لاترشح الفتاتان سواها ، اذا انا أثرت أى اعتراض . كما اننى لم أجرؤ على القول بأنها كانت تعمل لحسابها الخاص . . وكنت أشعر بالضعة لمجرد انها كانت تجرؤ على ان تظن نفسها ــ فى نظرى ــ منتمية الى نفس جنس الآنستين ! على اننى ارتضيت فى النهاية هذه الوسيلة لنقل رسالتى ، نظرا لعدم وجود سواها ، فأقدمت عليها رغم كل النذر !

واكتشفت «جيرو» سرى منذ الكلمة الأولى ، فما كان هذا بالأمر العسير . واذا كانت الرسالة الموجهة الى فتاة شابة لاتشى بحقيقة الأمر ، فان ارتباكى واضطرابى كانا كفيلين بأن يكشفا سرى ! وقد يخطر بالبال ان هذه المهمة لم تبعث فى نفس الفتاة اى سرور ، ولكنها فى الواقع تكفلت بها ، وأدتها بأمانة . وفى الصباح التالى هرعت اليها ، فوجدت الرد المنشود . وما كان أسرعنى فى الخروج من دارها، لأقرأه وأقبله دون حرج!.. وليست بى حاجة الى ان أفيض فى هذا ، ولكن الذى يحتاج الى اسهاب ، هو مسلك الآنسة جيرو ، فقد وجدت فيه من الرقة والاعتدال فوق ما كنت أتوقع . **كانت من الحكمة بحيث رأت انها ــ بسنى عمرها السبع والثلاثين ، وبعينيها الشبيهتين بعينى الارنب ، وبأنفها الملوث بالسعوط ، وبصوتها الحاد الرفيع وبشرتها السوداء ــ لا يمكن ان تبارى فتاتين شابتين ،**

(٢) « جيرو » هى صديقة لوصيفة مدام دى فاران المدعوة « ميرسيريه » ، وكانت « جيرو » قد اعلنت على روسو الحب ، رغم نفوره الشديد منها !

مليئتين بالحسن ، وفى كل أبهة الجمال .. ومن ثم لم تشأ ان تغدر بهما، كما لم تشأ ان تخدمهما.. بل انها آثرت ان تفقدنى على ان تساعدهما على الظفر بى . (كما سيبدو فيما بعد)

٧ - سنة ١٧٣٢

• **وكانت** « ميرسيريه » قد بدأت تفكر - منذ فترة - فى العودة الى (فريبور) ، اذ انها لم تتلق أى نبأ من سيدتها ، وما لبثت الآنسة جيرو ان حملتها على ان تقرر ذلك ، بل انها ذهبت الى أبعد من هذا ، فأدخلت فى روعها أن من المستحسن ان يرافقها احد الى دار أبيها، ورشحتنى لذلك(١) ورأت ميرسيريه الصغيرة - التى لم أكن بغيضا اليها - ان الفكرة صالحة، فاذا بهما تحدثانى عنها ، فى نفس اليوم ، وكأنها امر مفروغ منه ! ولما لم أجد ما يضيرنى فى البعد بهذه الطريقة ، فقد وافقت ، وأنا أحسب ان الرحلة لن تعدو ثمانية أيام على الأكثر . ولكن جيرو لم تحسب مثل هذا الحساب ، وتولت تدبير كل شىء . واضطررت الى ان أكشف حالتى المالية ، فسرعان ما دبرت لى الموارد، اذ تكفلت «ميرسيريه» بنفقاتى. وتعويضا عن الخسارة التى تكبدتها بذلك ، وافقت الفتاة - تحت الحاحى - على ان ترسل متاعها البسيط مقدما ، بينما نقطع نحن الرحلة على الاقدام ، متمهلين .. وهذا ما حدث !

ولكم يؤسفنى أن اتحدث عن فتيات عديدات كن يحببننى .. على أننى لا أجد مبررا لأن أزهو بما خرجت به من كل هذه الغراميات .. ومن ثم أرى أن بوسعى أن أقول الحق دون تمويه ، فان الآنسة « ميرسيريه » - التى كانت اصغر سنا وأقل دهاء من جيرو - لم تبد قط نشاطا كالذى كانت هذه تبديه لاغرائى ، وانما كانت تقلد لهجتى وصوتى والقائى،

---

(١) كانت هذه هى الحيلة التى لجأت اليها « جيرو » الماكرة كى تبعد روسو عن محبوبته ، وعن المدينة كلها !

وتردد كلماتى ، وتولينى من الاهتمـام ما كان ينبغى ان اوليها اياه .. كما كانت تحرص دائما على ان ننام فى حجرة واحدة، اذ كانت شديدة الخوف ..! وهى ألفة نادرا ما تقف عند هذا الحد ، فى رحلة تجمع بين شاب فى العشرين وفتاة فى الخامسة والعشرين !.. ولكن هذا هو عين ما جرى ، فى هذه المناسبة . فبالرغم من ان « ميرسيريه » لم تـكن دميمة ، فان سذاجتى لم تقف عند حـد اننى لم اعمد ـ خلال الرحلة بأسرها ـ الى النطق بأتفه مغازلة فحسب ، وانما بلغت بى السذاجة اننى لم أفكر ـ مجرد تفكير ـ فى شىء من هذا القبيل على الاطلاق !.. بل انه لو خطرت لى هذه الفكرة ، لعجزت لغبائى عن أن أفيد منهـا ! فما كنت لأتصور كيف تنـام فتاة وشاب فى فراش واحـد . . وكنت أخال ان الاستعداد لمثل هذا الأمر الرهيب يتطلب قرونا من الزمن !.. واذا كانت ميرسيريه البـائسة قد طمعت ـ حين تكفلت بنفقاتى ـ فى جزاء من هذا القبيل، فقد خاب حدسها ، لأننا بلغنا (فريبور) بنفس الحال التى غادرنا بها (أنيسى) تماما !

وعندما مررنا بجنيف، لم اسع لزيارة احد، ولكنى اوشكت ان أصاب بمرض من فرط انفعالى وانا أعبر جسور المدينة . أبدا ما أقبلت على هـذه المدينة ، ولا ولجت أبوابهـا دون ان أحس بقلبى يغوص وقد اثقلته الانفعالات الطاغية !.. فبينما كانت صورة الحـرية النبيلة تسمو بروحى ، كان التفكير فى المساواة والاتحاد ورقة الخلق يؤثر فى نفسى الى الدرجة التى تدمع عندها عيناى ، ويبعث فى حسرة محتدمة على كونى قد حرمت من كل هذه النعم !.. وكم كنت مخطئا !ـ ولكن ، كم كان هذا الشعور طبيعيا ، كذلك ! ـ لقد كنت اخال اننى ارى كل هذه النعم فى وطنى، لاننى كنت أحملها فى سويداء قلبى !

واضطررنا الى ان نمر بمدينة (نيون) .. فهل كنت اجتازها دون ان أرى أبى الشيخ ! ؟ لو اننى فعلت ، لكنت خليقا بأن أموت ـ بعده ـ كمدا !.. ومن ثم تركت ميرسيريه فى الفندق وذهبت لأراه، رغم كل الاعتبارات. آه ، **ما كان أشد خطأى اذ أوجست من لقائه !.. فما ان اقتربت منه ، حتى تفتح قلبه لعواطف الأبوة العارمة .. وكم بكى عندما تعانقنا !..** ولقدظن ـ بادىء الأمر ـ اننى عدت اليه ، فأنبأته بقصتى وبخطتى.. وعارض فى وهن ، وراح يبصرنى بالأخطار التى كنت أعرض نفسى لها ، قائلا ان أقصر النزوات والحماقات هى أفضلها !.. وفيما عدا ذلك ، لم يداخله أى ميل الى غضبى على البقاء ، وأرى انه كان فى ذلك على حق ، ولكن من المؤكد انه لم يبذل كل ما كان فى وسعه لاستبقائى، اما لأنه كان يرى ـ فى تقديره ـ ان من واجبى ان لا أعود اليه، واما لأنه كان فى حيرة .. ولعله لم يكن يدرى ما الذى يفعله بى فى مثل تلك السن التى بلغتها!.. **ولقد علمت فيما بعد انه كون لنفسه عن زميلتى فى الرحلة فكرة كانت جد ظالمة وجد بعيدة عن الحقيقة ، ولكنها ـ على اية حال ـ كانت طبيعية !** .. وكانت زوجة أبى امرأة طيبة ، على شىء من الدهاء والقول المعسول ، فقد تظاهرت بالرغبة فى استبقائى للعشاء .. ولكنى لم أمكث ، وان وعدتهما بان ابقى معهما وقتا أطول عند عودتى ، وعهدت اليهما بحزمة متاعى الصغيرة ، التى كنت قد ارسلتها فى مركب ، والتى كنت حائرا فيما أفعله بها. وفى اليوم التالى رحلت مبكرا، وانا جد مغتبط باننى رأيت والدى، واننى وجدت الجرأة على ان اؤدى واجبى!

* * *

• **ووصلنا** بسلام الى (فريبور) ، وكانت مغازلات الآنسة ميرسيريه قد خفت عندما اقتربت نهاية الرحلة . حتى اذا وصلنا ، لم تعد تبدى لى سوى الفتور ، كما ان اباها ـ الذى

لم يكن غارقا فى الرخاء ـ لم يولنى حفاوة بالغـة ، فاضطررت الى ان أقضى ليلتى فى احـدى الحانات . . وزرتهما فى اليوم التالى ، فدعوانى الى العشاء ، وقبلت الدعوة . . ثم افترقنا دون ما دموع ، وعدت فى المساء الى حانتى . وفى اليوم التالى رحلت ، دون ان ادرى وجهة أقصدها !

.. **وكانت تلك فرصة اخرى ارادت فيها العناية ان تمنحنى ما كنت أبتغيه لكى انفق ايامى فى هناء ..** فلقد كانت ميرسيريه فتاة جد طيبة ، ولئن لم تكن بالذكية ولا بالجميلة ، فانهـا لم تكن ـ كذلك ـ بالدميمة ، كما انها كانت على شىء من النشاط وكثير من الرزانة . وكانت تتعرض أحيانا لنوبات قصيرة عابرة ، تقضيهـا فى بكاء ، ولكن هـذه النوبات لم تكن تفضى قط الى عواقب عاصفة . ولقد كانت الفتاة صادقة الميل نحوى ، فكان بوسعى ان اتزوجها دون عناء ، وان احترف مهنة أبيها (١) ـ اذ ان ميلى للموسيقى كان كفيلا بأن يجعلنى أحب هذه المهنة ـ وان استقر فى (فريبور) ، وهى بلدة صغيرة ، قليلة الجمال ، ولكنها تضم قوما طيبين . **وكنت بذلك سأحرم بلا شك من متع عظيمة ، ولكنى كنت خليقا بأن أعيش فى سلام الى آخر لحظة فى حياتى . ولقد كنت جديرا بأن أعرف ـ اكثر من اى امرىء آخر ـ انه لم يكن ثمة ما يبرر التردد لحظة واحدة ازاء صفقة كهذه !**

وعلى اثر رحيلى من (فريبور) لم ارجع الى (نيون) ، وانما اتجهت الى (لوزان) ، فقد شئت ان أتملى بمنظر البحيرة الجميلة التى تشـاهد هناك فى اكثر اجزائهـا اتساعا . ولم تـكن اغلب البواعث الخفية التى تقرر مسلكى ، بواعث جامدة . . فان المناظر التى تشاهد عن بعد ، نادرا ماكانت من القوة بحيث تحفزنى على العمل ، كما ان المستقبل غير المضمون كان يجعلنى انظر دائما الى المشروعات التى يتطلب تنفيذها أجلا طويلا ،

(١) يفهم من هذه العبارة ان اباها كان موسيقيا .

نظرتى الى حيل خادعة !.. **وانا ، بطبعى ، انغمس فى الآمال كفيرى ، طالما كانت لاتكبدنى شيئا ، أما اذا كانت تتطلب رعاية مستمرة فاننى لا امضى وراءها . وان اقل متعة صغيرة تعرض لى ، وتكون فى متناول يدى ، لأكثر اغراء لى من مباهج الفردوس.** .على اننى استثنى من ذلك ، المتعة التى يعقبها ألم ، فهى لاتغرينى قط ، لاننى لا أحب سوى المسرات النقية الخالصة ، وهذه لا يحظى بها المرء اطلاقا عندما يعرف انه انما يهيىء نفسه للندم !

وكنت بحاجة ماسة الى بلوغ أى مكان.. فكان أقرب الأماكن هو أفضلها ! ولما كنت قد ضللت طريقى ، فقد ألفيتنى ــ ذات مساء ــ فى (مودون) ، حيث انفقت القليل الذى كان قد تبقى معى ، ما عدا عشرة « كروتزرات » (١) لم تلبث أن تبددت فى الغداء، فى اليوم التالى.. حتى اذا بلغت ــ فى المساء ــ قرية صغيرة على مقربة من (لوزان) ، دخلت احدى الحانات وليس فى جيبى دانق ادفعه لقاء مبيتى ، بل اننى لم اكن ادرى ما قد يكون من امرى ! **وكنت جد جائع ، فتجلدت وطلبت عشاء ، كما لو كنت أملك ان ادفع ثمنه !.. ثم أويت الى مضجعى دون ان احمل هما ، فاستغرقت فى نوم هادىء** . وبعد ان أفطرت ــ فى الصباح التالى ــ وحاسبت مضيفى ، أردت ان اترك له صديرى رهنا ،لقاء السبعة «باتزات» ،(٢) التى بلغتها نفقاتى . ولكن الرجل الطيب أبى ، وقال انه ــ والحمد للسماء ــ لم يجرد أحدا قط من ثيابه ، وانه ما كان ليشرع فى ذلك لقاء سبعة « باتزات » ، ومن ثم فقد بات فى وسعى ان احتفظ بصديرى ، على ان ادفع له حقه متى استطعت . وقد تأثرت لطيبته ، ولكن بدرجة اقل مما كان ينبغى ، وأقل مما صرت أشعر كلما تذكرت الأمر بعد ذلك . وقد بادرت بارسال المبلغ

(١) « لكروتزر عملة المانية ونمسوية قديمة .

(٢) «الباتز» عملة ألمانية أخرى

اليه فيما بعد ، شاكرا ، مع رجل ائتمنته . . على اننى بعد خمس عشرة سنة ، مررت بلوزان ، فى عودتى من ايطاليا ، فشعرت بأسف صادق لكونى نسيت اسم الحانة واسم الرجل ، والا لذهبت لرؤيته ، ولحظيت بسرور حقيقى وانا اذكره بالخير الذى أسداه ، وأثبت له انه لم يضعه فى غير موضعه ! .. **وكم من خدمات أكثر أهمية ، بلا شك ـ ولكنها بذلت بكثير من التفضل والمن ـ بدت لى اقل استحقاقا للعرفان من العمل الانسانى البسيط الذى بذله هذا الرجل الطيب فى غير زهو !**

وفيما كنت اقترب من (لوزان) ، رحت اتأمل الضيق الذى وجدتنى فيه ، والوسائل التى استطيع بها ان انتزع نفسى منه دون أن أطلع زوجة أبى على تعاستى ! .. واخذت أقيس نفسى ـ فى سفرى على الاقدام ـ بصديقى فنتور عندما وصل الى (انيسى) ، فاذا بهذه الفكرة تبث الدفء فى نفسى ، حتى اننى اعتزمت ان اكون «فنتور» صغيرا فى (لوزان) ، دون ان يجول بخاطرى اننى لم أوت لطفه ولا مواهبه . . وقررت ان اقوم بتدريس الموسيقى التى لم اكن على علم بها ، وأن أزعم اننى وفدت من باريس ـ التى لم ازرها قط ! ـ وبناء على هذا المشروع البديع ، شرعت فى السؤال عن فندق صغير استطيع ان اجد فيه مقرا مريحا بأبخس النفقات . اذ لم تكن ثمة مدرسة للشمامسة استطيع ان اعرض عليها معونتى ، كما اننى لم اكن من الغباء بحيث اندس وسط أهل الفن ! .. ودلنى البعض على شخص يدعى «بيروتيه» كان يؤجر غرفا فى داره . وتجلى لى ان هذا الـ « بيروتيه » كان خير رجل فى العالم ، وقد أحسن استقبالى . واذ رويت له أكاذيبى الصغيرة ـ كما دبرتها ـ وعدنى بأن يذكرنى لدى الناس ، وان يسعى ليأتينى ببعض التلاميذ . وقال لى انه لن يسألنى اجرا الا بعد ان اكتسب نقودا . وكان أجر المنزل خمسة دنانير بيضاء (١) ، وهو اجر

(١) (ECU) عملة قديمة من الفضة

زهيد بالنسبة للمكان ، ولكنه كان باهظا بالنسبة لى . ولقد نصحنى «بيروتيه» بأن اكون فى البدايه «نصف نزيل» ، اى ان استمتع بالاقامة ، وبغداء يتألف من حساء دسم — لا أكثر — وبعشاء طيب فى المساء .. فوافقت . كان هذا الـ «بيروتيه» المسكين يقدم لى كل هـذه الميزات عن طيب خاطر ، وعن خير نية فى الدنيا . ولم يكن يدخر وسعا كى يساعدنى !

ترى لماذا قدر لى — وقد وجدت كل هؤلاء الناس الطيبين فى صباى — ان لا أجـد منهم فى كبرى الا القليلين ؟ .. ايكون نوعهم قد انقرض ؟.. لا ، ولكن الطبقة التىاضطر الى البحث عنهم فيها اليوم ، لم تعد عين الطبقة التى كنت أعثر عليهم فيها من قبل ! ذلك لأن نداء الأحاسيس الفطرية يزداد ترددا وانبعاثا لدى الناس الذين لايسمع التمشدق بالعواطف العظمى بينهم الا قليلا!.. **أما بين ابناء الطبقات الراقية ، فان المشاعر الفطرية تختنق تماما ، فلا يعلو سوى صوت المصلحة أو الغرور !**

* * *

• **وكتبت** لأبى من (لوزان) ، فأرسل حزمة متاعى ، وخصنى بنصائح رائعة، كان خليقا بى أن أفيد منها.. وكنت قد لاحظت اننى أصبحت أتعرض لفترات من الشرود لم ادر مأتاها ، بل كنت لا أشعر خلالها بنفسى — وهنا ايضا بادرة من البوادر التى تستحق الملاحظة ! — ولكى تدرك الى اى مدى كنت أفقد رأيى ، والى أى مدى « فنترت » نفسى — أى تشبهت بفنتورا ، ان صح هذا القول — يكفى ان نرى كم من الأعمال الجنونية كنت آتيها معا ، وفى آن واحد ! : فها قد غدوت مدرسا للغناء دون ان أعرف كيف أفك رموز أى لحن! — اذ ان الشهور الستة التى قضيتها مع «لوميتر» لم تكن بالكافية، حتى اذا كنت قد أفدت منها ! — ثم اننى كنت قد تعلمت على يدى استاذ ، وكان هذا كافيا لأن يجعلنى لا أكترث بالدراسة ! «١»

(١) لعله يقصد ان الفن لم يكن موهبة اصيلة في نفسه

واذ صرت باريسيا من (جنيف)، وكاثوليكيا فى بلد بروتستانتى، فقد رأيت ان على ان أغير اسمى كما غيرت عقيدتى ووطنى، اذ كنت احاول دائما أن أصبح اقرب ما اكون الى المثل العظيم الذى اتخذته . وقد كان يسمى نفسه «فنتور دى فيلنيف»، لذلك قلبت اسم «روسو» الى «ووسور» ، أو «فوسور»، واسميت نفسى «فوسور دى فيلنيف» ! ولقد كان «فنتور» على معرفة بالتلحين، وان لم يقل شيئا عن ذلك .. **اما أنا ، فبدون معرفة بالتلحين ، رحت افتخر ببراعتى امام العالمين .. وبدون ان أستطيع تمييز أبسط أغنية دارجة ، جعلت من نفسى ملحنا !**

.. ولم يكن هذا كل ما فى الأمر ، فقد قدمت الى السيد دى تريتوران - وكان استاذا فى القانون ، أحب الموسيقى واعتاد ان يقيم حفلات موسيقية فى داره - فشئت ان اعرض عليه «عينة» من براعتى ، وعكفت على وضع لحن لاحدى حفلاته فى جرأة بالغة ، وكأننى كنت أعرف كيف أؤدى المهمة !.. وواظبت على العمل خمسة عشر يوما فى اعداد هذا اللحن الجميل ، وفى نسخ صورته ، وفى تقسيم اجزائه ، وفى توزيعها باطمئنان بالغ ، وكأن اللحن تحفة متناسقة . وأخيرا - الأمر الذى لايكاد يصدق ، ولكنه الحقيقة الخالصة - أردت ان أتوج هذا الانتاج الراقى بشكل يليق به ، فأضفت فى النهاية أغنية بديعة كانت تتردد فى الطرقات ، ولعل الناس اجمعين لايزالون يذكرونها ، وهذا نصها :

« يا للفجور .. ويا للجحود .. ماذا ؟!
هل غدرت حبيبتك كلاريس بأهلك ؟!.. الخ »

وكان فنتور قد لقننى هذا اللحن - الذى يعزف على اوتار الطبقة الثانية - مع كلمات أخرى بذيئة ، تذكرته بفضلها . ومن ثم اضفت فى نهاية لحنى هذا المقطع وانغامه الخفيضة ، وقدمت الجميع على انها من ابتداعى ، فى اعتداد ، وكأننى كنت **اخاطب قوما من سكان القمر !**

واجتمعت الفرقة لعزف لحنى ، فشرحت لكل فرد نوع الحركة ، وطريقة الأداء ، وعلامات تكرار الاجزاء ، وانهمكت فى ذلك كل الانهماك .. فقضى العازفون خمسا أو ست دقائق — بدت لى كخمسة أو ستة قرون ! — فى تنسيق أصواتهم وآلاتهم ، حتى أصبحوا أخيرا على تمام الأهبة ، فوقعت الضربات الخمس أو الست اشارة الانتباه ، على منضدة القيادة ، بانبوبة بديعة



من الورق ، **فساد الصمت ، وبدأت أوقع الوقت فى عظمة وجد .. وبدأ العزف ! — لا ، فمنذ ظهور « الاوبرا » الفرنسية على قيد الحياة ، لم تسمع مثل تلك « الضوضاء » ! — ومهما يكن قد خالج القوم بصدد براعتى المزعومة ، فان الاثر كان اسوأ من أى شىء توقعوه !** .. وكتم الموسيقيون ضحكهم ، بينما فتح المستمعون عيونهم عن آخرها ، وكانوا على استعداد لأن يسدوا آذانهم ، ولكنهم لم يعرفوا لذلك وسيلة . وعمد العازفون القساة — رغبة فى السخرية — الى العزف بشدة كافية لأن تخرق طبلة اذن الأصم ! (١)

---

(١) فى الأصل : تخرق اذن أحد الخمسة عشر عشرينا .. كناية عن نزيل المستشفى الذى يحمل هذا الاسم «الخمسة عشر عشرينا» فى باريس ، والذى انشىء فى الأصل ليأوى ٣٠٠ أعمى

وأوتيت من الجلد ما يكفى لأن استمر فى دورى دون توقف ، وان راح عرقى يتصبب غزيرا فى الواقع.. فقد منعنى الحياء ، فلم أجرؤ على الهرب ، بينما كان الجميع جالسين.. وعلى سبيل العزاء، سمعت المساعدين المحيطين بى يتهامسون بعضهم فى آذان بعض ، او - بالاحرى - فى اذنى .. فقال احدهم : « ليس فى هذا ما يطاق ! » .. وقال آخر : « يا لها من موسيقى جنونية! » .. وقال غيره: « يا للحن الشيطانى »

.. مسكين انت يا جان جاك ، فما طمعت - فى تلك اللحظة - فى أن تنتزع انغامك هذه يوما، وفى حضرة ملك فرنسا وحاشيته بأسرها، تمتمات الدهشة، وتصفيق الاعجاب.. وأن تتهامس النسوة الفاتنات، فى المقصورات المحيطة بك: « يا لها من نغمات ساحرة !.. اية موسيقى فاتنة !.. كل هذه الانغام تنفذ الى القلب ! »

على ان الذى رد القوم الى رضاهم ، هو ذاك المقطع الذى اضفته فى النهاية .. فما ان عزفت بضع نغمات منه ، حتى سمعت القهقهات تتصاعد من كل جانب .. واخذ كل امرىء يهنئنى بذوقى الجميل ، ويؤكد لى ان هذا المقطع كفيل بأن يذيع اسمى ، واننى جدير بأن تردد انغامى فى كل مكان . ولست بحاجة الى ان أصف غمى ، ولا الى ان اعترف بأننى كنت أستحقه !

وفى اليوم التالى، جاء احد العازفين-وكان يدعى «ليتولد»- ليرانى ، وكان من الأمانة بحيث انه لم يهنئنى بنجاحى .. فاذا شعورى العميق بحماقتى ، وبالخجل والندم واليأس من جراء الحال التى انحدرت اليها ، واستحالة ابقاء قلبى مغلقا على هذه الآلام الجسيمة .. اذا شعورى هذا يحملنى على ان افتح قلبى له ، وان أطلق العنان لدموعى .. **وبدلا من ان اكتفى بأن اعترف له بجهلى ، افضيت اليه بكل شىء ، وسألته ان يكتم سرى ، فوعدنى بذلك ، وبر بوعده على النحو الذى يمكن**

تصوره .. فما ان حل مساء اليوم ذاته ، حتى كانت (لوزان) بأسرها قد عرفت حقيقتى ! .. وكان أعجب ما فى الامر ، ان أحدا لم يطلعنى على انه قد عرفها ، ولا « بيروتيه » الطيب ، الذى لم يحجم ، رغم ذلك كله ، عن ايوائى واطعامى !

وقدر لى ان اعيش ، ولكن فى حزن غامر . وكان من جراء موقف كهذا ، ان لوزان لم تعد بالنسبة لى مقاما مستحبا ، فلم يقبل التلاميذ زرافات . بل اننى لم أظفر بتلميذة واحدة ، ولا بأحد من أبناء المدينة .. كل الذين ظفرت بهم كانوا اثنين او ثلاثة من الالمان الذين كانوا من الغباء بقدر ماكنت من الجهل ، وكانوا يضايقوننى الى درجة الموت ، كما انهم لم يصبحوا — على يدى — ولو عازفين غير منتظمين ! .. ولم أدع الا الى بيت واحد ، كانت فيه فتاة صغيرة — كأنها الحية — اخذت تتلهى باطلاعى على كثير من القطع الموسيقية التى كنت عاجزا عن قراءة « نوتاتها » ، ثم كانت تنطلق فى الغناء — بعد ذلك — امام مدرس الموسيقى لتريه كيف يجب ان يؤدى اللحن ! .. وكنت لا أكاد استطيع ان اقرأ أى لحن من اول نظرة ، حتى اننى — فى الحفلة الباهرة التى تحدثت عنها — كنت عاجزا عن ان اتتبع العزف لحظة لأتبين ما اذا كان العازفون يحسنون توقيع ما كان تحت بصرى ، وما كنت قد ألفته بنفسى ! ،أم لا!

وفى غمرة هذا الهوان ، وجدت عزاء فى الانباء التى كنت اتلقاها بين وقت وآخر ، من الصديقتين الفاتنتين .. فلقد اعتدت دائما ان اجد طاقة مرفهة عظيمة فى الجنس الآخر ، فليس ثمة ما يواسى أحزانى — فى المصائب — أكثر من انثى لطيفة تعنى بى ! .. على ان هذا التراسل لم يلبث ان انقطع بعد ذلك بقليل ، ولم يقدر له ان يستأنف قط .. غير ان ذلك كان فى الواقع ذنبى ، اذ اننى عندما غيرت محل اقامتى ، اغفلت ان ابعث اليهما بعنوانى ، ثم نسيتهما تماما ، اذ كنت مضطرا — بحكم الضرورة — الى ان أفكر فى نفسى باستمرار !

* * *

• **ولقد** انقضى وقت طويل دون ان اتحدث عن «ماما» (١) المسكينة . على ان المرء يكون جد مخطىء اذا ظن انني نسيتها هي الاخرى ، فانني لم أكف عن التفكير فيها ، وعن الشوق الى العثور عليها ثانية ، لا لحاجتي المادية فحسب ، وانما لما هو اكثر من ذلك .. لحاجتي القلبية ! .. كان تعلقي بها - رغم ما كان عليه من حرارة وحنان - لايحول بيني وبين ان احب غيرها ، ولكن على غير شاكلة حبى لها ! فان النساء جميعا كن - على السواء - مدينات بعاطفتى لمفاتنهن .. أما هى ، فكانت لها مكانة فريدة ، دونها مكانات الأخريات ، فلم تكن مفاتنهن تعدو عليها .. **بل لقد كان من المحتمل ان تهرم « ماما » وان تصبح دميمة ، وانا مقيم على حبها ، دون ان يقل شغفى بها ! .. كان قلبى قد نقل الى شخصها كل التمجيد الذى استشعره من قبل نحو جمالها ، فما كانت عواطفى نحوها لتتغير قط - مهما يكن التغير الذى يتعرض مظهرها له - طالما ظلت فى جوهرها هى بذاتها !** .. وكنت أدرك تماما اننى مدين لها بالفضل ، ولكنى لم افكر فى ذلك قط ، فى الواقع .. بل كان ما فعلته وما لم تفعله من أجلى سواء عندى ، اذ اننى لم أحببها عن شعور بالواجب أو بالمصلحة الذاتية ، ولا عن خضوع وامتثال ، وانما أحببتها لأننى خلقت كى أحبها ! .. وكنت عندما أقع فى هوى اية امرأة أخرى ، اشغل بها - كما ينبغى ان اعترف - فيقل تفكيرى فى « ماما » .. ولكنى كنت اذا ما عدت للتفكير فيها ، افكر بنفس المتعة . وما شغلت بها قط - سواء كنت على حب او لم اكن - دون ان اشعر بأننى لن أجد سعادة حقيقية قط فى الحياة طالما كنت بعيدا عنها !

(١) رأينا فى الجزء الأول كيف اطلق روسو على راعيته الكريمة « مدام دى فاران » لقب « ماما » .

ومع انني لم اسمع عنها منذ امد طويل ، الا انني لم اعتقد قط بأنني فقدتها تماما، ولا خطر لي ان من الممكن ان تكون قد نسيتني . وكنت اقول لنفسي : « انها لن تلبث ان تعلم ـ طال الوقت او قصر ـ بأنني شريد وحيد ، فتبعث الى بما يطمئنني الى انها على قيد الحياة . ولسوف القاها ثانية ، بكل تأكيد . وفى انتظار ذلك ، كان من بواعث البهجة أن أعيش فى مسقط رأسها ، وان اجتاز الطرقات التى سارت فيها من قبل ، وامر بالبيوت التى كانت تقيم فيها .. كل هذا بالحدس والتخمين ، فقد كان من نزواتى الحمقاء اننى كنت عاجزا عن ان احمل نفسى على الاستعلام عنها ، بل عن ذكر اسمها ، ما لم تكن ثمة ضرورة ماسة .. كان يبدو لى انني بذكر اسمها أشي بكل ما كانت تلهمني اياه من مشاعر ، وان فمي يفضح سر قلبي ، وانني احرجها بطريقة ما ! كذلك خيل الى ان تحرجي عن ذكر اسمها كان يمتزج بشعور ماكان يوحى الى بان احدا قد يذكرها أمامى بسوء ! فقد كان الناس يكثرون من الحديث عن الخطوة التى اتخذتها ، ويمسون سلوكها بعض الشيء . لذلك آثرت ان لا اسمع اى شيء يقال عنها ـ على الاطلاق ـ خوفا من ان يقال لى ما لا اتوق الى سماعه !

ولما لم يكن تلاميذى يشغلونني كثيرا ، وكان مسقط رأسها لا يبعد عن (لوزان) بأكثر من أربعة فراسخ ، فقد قضيت ثلاثة أيام أو أربعة أتمشى هناك ، دون أن يفارقنى أعذب شعور عرفته . كان لمنظر (بحيرة جنيف) وضفافها البديعة سحر يأسر عينى دائما ، ولا قبل لى بوصفه .. سحر لم يكن ينحصر فى جمال المنظر فحسب ، بل كان يشتمل أيضا على شيء أكثر جاذبية ، وأقدر على التأثير على ، والسيطرة على مشاعرى . وفى جميع المرات التى كنت أقترب فيها من مقاطعة (فود) ، كان يخامرنى شعور ينطوى على ذكرى « مدام دى فاران » ـ التى ولدت هناك ـ وأبي ، الذي عاش

هناك ، والآنسة دى « فيلسون » التى استمتعت بأولى ثمار حب صباى ، وكثير من الرحلات البهيجـة التى قمت بها فى طفولتى .. وسبب آخر ـ فيما يبدو لى ـ كان أكثر اثارة ، وأشد غموضا ، وأقوى سلطانا من كل هذه مجتمعة !.. **كانت الرغبة المتأججة فى هذه الحياة الهانئـة الوادعة ـ التى كانت تفر منى رغم أننى ولدت لها ـ تتجه دائما الى مقاطعة (فود) ، على مقربة من البحيرة ، ووسط الريف الفتان .. كنت أصبو الى أن يكون لى بستان على شاطىء هذه البحيرة دون سواها ، والى أن يكون لى صديق أمين ، وامرأة لطيفة ، وبقرة ، وزورق صغير . ولن انعم بسعادة كاملة على الأرض ، الا اذا تحقق لى كل هذا !** وانى لأضحك من السذاجة التى كانت تحدو بى الى زيارة هذه البلاد مرارا ، لمجرد البحث عن هـذه السعادة الخيالية ! وكنت أدهش دائما اذ كنت أجد سكانها ـ لا سيما النساء منهم ـ على النقيض مما كنت أنشد.. لكم كان يهولنى هذا التناقض !.. أبدا لم يلح لى أن كلا من المقاطعة وأهلها قد خلق من أجل الآخر !

* * *

• وفى **خـلال** الرحلة الى (فيفـاى) (١) ، اطلقت نفسى ـ وأنا اتمشى على شاطىء البحيرة الجميلة ـ للشجون العذبة ، فاذا بقـلبى يندفع فى شـوق الى آلاف من المفاتن البريئـة ، وأترعت نفسى بالانفعالات ، فرحت اتنهد وأبكى كالطفل ! .. كم من مرة توقفت لأبكى ما شاء لى البـكاء !.. وكنت أجلس على حجر كبير ، اتسلى بتأمل دموعى وهى تتساقط فى المـاء !

وفى (فيفـاى) ، اقمت فى (لاكليه) . وفى خـلال اليومين اللذين أقمتهما هنـاك دون أن أرى أحدا ، تملكنى نحو هـذه

---

(١) مسقط راس مدام دى «فاران»

المدينـة حب ظل يلاحقنى فى كل رحـلاتى ، وحملنى ــ فى النهاية ــ على أن أقيم فيها معبدا لأبطال خيالى القصصى . وانى لأقول ــ عن طيب خاطر ــ لأولئك الذين اوتوا ذوقا وحسا مرهفين : « **اذهبوا الى فيفاى . . وجوسوا خلال ريفها ، وتأملوا المواقع ، وتمشوا على ضفاف البحـيرة ، وقولوا ما اذا كانت الطبيعة لم تخلق هذا البلد الجميل لجوليا وكلير وسان برو (١) . . ولكن، لاتتوقعوا أن تجدوهم هناك !** » . . على انى أعود الآن الى قصتى :

لما كنت كاثوليكيا ، وقـد اعترف بى كذلك ، فقد رحت أمارس جهارا ، وبدون احجـام ، العقيدة التى اعتنقتهـا . . وكنت ــ فى أيام الأحد ذات الجو المعتدل ــ أحضر الصلاة فى (اسين) ، على مبعدة فرسخين من (لوزان) ، فكنت اقطع المسـافة عادة فى صحبة غيرى من الـكاثوليكيين ، اذكر منهم بالذات شخصا كان يحترف التطريز الباريسى ، وقد غاب عنى اسمه . ولم يكن الرجـل باريسيا على شـاكلتى ، وانما كان باريسـيا صميما ، من باريس . وكان تقيـا مؤمنا ، ذا فطرة طيبة كأبناء (شامبانى) ، وقد بلغ من حبه لوطنه انه لم يسمح لنفسـه البتة بالارتياب فى اننى باريسى مثـله ، خوفا من أن يضيع على نفسه فرصة الحديث عن باريس . وكان لدى السيد « دى كروزا » ــ مساعد الحاكم ــ بستانى من باريس كذلك ، ولـكنه كان أقل طيبـة ، وكان يرى أن من المسـاس بكرامة بلده ان يجرؤ أى انسان على أن ينتمى اليها دون أن يكون له حق فى هذا الشرف ! . . لذلك راح يمطرنى بالأسـئلة ، وهو يبتسم فى خبث ، بلهجة الواثق من أنه لن يلبث أن يكتشـف غلطة ! ولقد سـألنى مرة عن أبرز معالم (مارشـيه نيف) ، فأجبته اعتباطا وتخبطا ، كما يستطيع المرء أن يحدس . وجدير بى اليوم ــ وقد أقمت فى باريس عشرين عاما ــ أن أكون على

(١) هؤلاء الثلاثة من ابطال قصة روسو الطويلة (هيلويز الجديدة) .

دراية بهـا ، ومع ذلك ، فلو أن أحـدا وجه الى سـؤالا كهذا السؤال ، لما كان ارتباكى فى الاجابة أقل منه يومئذ ،ولاستنتج أى امرىءـ من هذا الارتباك ـ اننى لم اقطن باريس قط !.. الى هذا الحد يكون المرء معرضا للاعتماد على ظواهر خداعة ، ولو صادف الحقيقة !

وليس بوسعى أن أذكر تماما مدة اقامتى يومئذ فى(لوزان)، فاننى لم أحمل من هذه المدينة ذكريات حية . كل ما أدريه هـو اننى حين وجدت نفسى عاجزا عن كسب عيشى فيهـا ، نزحت منها الى (نيوشاتيل) حيث قضيت الشتاء. ولقد كنت فى هذه المدينـة أكثر توفيقا ، اذ كان لدى تلاميـذ ، كما اننى كسبت منهـا ما مكننى من الوفاء بدينى لصـديقى الطيب « بيروتيـه » ، الذى كان من النبل بحيث ارسـل الى ـ فى الماضى ـ حزمة متـاعى الصغيرة ، رغم اننى كنت مدينـا له بمبلغ كبير !

ولقد تعلمت الموسيقى ـ دون قصد منى ـ خلال تدريسى اياها . وكانت حياتى على قـدر لا بأس به من الدعة . كانت حياة تكفى لأن يقنع بها أى رجل عاقل ، ولكن قلبى القلق كان يصبو الى شىء آخر .. وكنت فى أيام الأحـد والأيام الأخرى التى أخلو فيها من العمل ، ارتع فى الريف والغابات المجاورة ، دون أن أكف عن التجوال ، والتأمل ، والتنهد . وكنت اذا ما خرجت من المدينة ، لا أعود اليها قبل المساء . وفى ذات يوم ، كنت فى (بودرى) فولجت فندقا لأتناول الغداء ، واذا بى أرى رجل طويل اللحية ، ذا حلة بنفسجية على النمط اليونانى ، وقلنسوة من الفرو ، وقد أوتى مظهرا ينم عن نبـل . وكان يجد عناء ـ فى أكثر الأحيان ـ فى أن يجعل القوم يفهمون ماكان يبغى ، اذ كان لا يكاد ينطق بغـير لهجة ركيكة لا سـبيل الى تمييزها تقريبا ، ولكنها كانت شديدة الشبه باللغة الايطالية ، ولا لغة غيرها. وفهمت كل ماكان يقول تقريبا ، وكنت الوحيد

الذى فهم . ولم يجد الرجل بوســعه ان يوضح ما يبغى الا بتبادل الاشارات مع صاحب الفندق ومع ابناء المنطقة، **فوجهت اليه بضع كلمات بالايطالية ، فهمها تماما ، فنهض وعانقنى فى ابتهاج . وسرعان ما تعارفنا ، ومنذ تلك اللحظة عملت مترجما له . وكان غـداؤه شهيا ، فى حـين أن غدائى كان أقـل من المتوسط ، فدعانى الى أن أشاركه طعامه ،فلم أبد تمنعا يذكر. وبينما كنا نشرب ونتكلم ، وثقنا من تآلفنا ، فلم ينته الغـداء حتى أصبحنا لا نطيق افتراقا !** .. وروى لى انه كان قسـا يونانيا ، و « ارشيمندريت » لبيت المقدس ، وقد أوفد لجمع اكتتابات من أوربا لتجديد كنيســة المهد المقـدس . واطلعنى على شهادات بديعة من القيصرة والامبراطور ، كما كان لديه كثير غيرها من ملوك آخرين . وكان جد راض عما جمع حتى ذلك الحين ، ولكنه كان قد صادف فى المـانيا صعوبات لاتخطر بالبال ، اذ أنه لم يكن يفقه كلمة واحدة من الالمانية أو اللاتينية أو الفرنسية ، فكان مضطرا الى الاقتصار على لغته اليونانية ، وعلى اللغة التركية ، واللغة الفرنجية ، مما لم يسعفه كثيرا فى البلدان التى لم يكن ملما بألسنتها . لذلك عرض على أن أصحبه فأكون له سكرتيرا ومترجما . والى جانب ان حلتى البنفسجية المتواضعة ــ التى كنت قد ابتعتها حديثا ــ لم تكن تنسجم مع مركزى الجديد ، فاننى لم أوت من اناقة المظهر سـوى قسط بسيط ، مما جعله يعتقد ان الظفر بى أمر غير عسير . ولم يكن فى ذلك مخطئا ، فسرعان ماتم اتفاقنا ، اذ أننى لم أطلب شيئا ، فى حين انه وعد بالـكثير .. وبدون احتياط ، ولا ضمان ، ولا معرفة ، اسلمته قيادى .. وهـكذا رحلت من الغـد فى طريقى الى بيت المقدس !

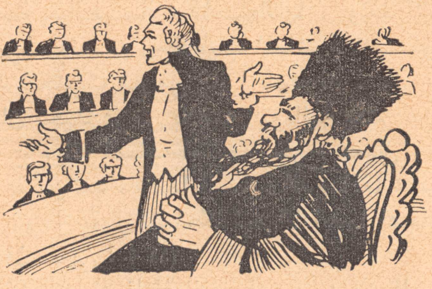
وبدأنا رحلتنا بمقاطعة (فريبور) ، فلم يخرج منها بطائل ، اذ أن كرامته الـكنيسية لم تكن لتسمح له بأن يقوم بدور المتسول ، ولا بجمـع الاكتتابات من خاصة القوم . على أننا

عرضنا مهمته على مجلس الشيوخ ، فمنحه مبلغا صغيرا . ومن هناك يممنا شطر (بيرن)، وهبطنا فى فندق « اوفوكون »، وكان فى ذلك العهد نزلا طيبا ، يؤمه وسط طيب . وكانت المائدة حافلة ، ومحفوفة بالعناية . **وكان قد انقضى وقت طويل اضطررت فيه الى النزول بالفنادق الرخيصة ، ومن ثم فقد كان لزاما على أن أهيىء نفسى لتعويض ما فاتنى ، وكانت الفرصة سانحة ، فاستغللتها** . ولقد كان السيد « الارشمندريت »نفسه رجلاطيب المعاشرة ، مشغوفا بالمائدة، مرحا ، يجيد الحديث مع من كانوا يفهمونه . ولم تكن تنقصه المعرفة ، وكان يجيد عرض بلاغته اليونانية بكثير من البراعة . وحدث ذات يوم انه أصاب أصبعه بجرح عميق ، بينما كنا نكسر بندقا عقب الغداء ،فلما انساب الدم دافقا ، عرض أصبعه على الحضور وهو يقول ضاحكا : « ألا أبدوا اعجابكم ياسادة .. انه دم بيلا سجى ! » (١)

ولم تكن خدماتى له قليلة النفع فى (بيرن) ، فلم أخرج منها بنتيجة سيئة كما كنت أخشى ، وانما كنت أكثر جرأة وأبلغ حديثا مما لو كنت أعمل لنفسى ! .. على أن الأمور لم تجر بالبساطة التى جرت بها فى (فريبور) ، بل كآن لا بد من مؤتمرات طويلة وعديدة من كبار رجال الدولة ، كما ان فحص شهادات « الارشيمندريت » لم يكن بالمسألة التى تتم فى يوم واحد . وأخيرا ، عندما تمت الاجراءات اللازمة ، كان علينا ان نعرض الأمر على مجلس الشيوخ . فذهبت مع «الارشمندريت» بوصفى مترجما له ، فطلب الى أن أتكلم ، وكان هذا آخر ما توقعت ، فما خطر ببالى ان ثمة ضرورة ـ بعد المحادثات الطويلة مع الأعضاء فرادى ـ الى مخاطبة المجلس مجتمعا ، وكأنما لم يدز من قبل أى حديث !.. **فتصوروا ارتباكى !..**

(١) نسبة الى « بيلاسجو » ، وهو عنصر عريق كان ينتشر قديما على سواحل وفى جزر شرقى البحر الابيض المتوسط وبحر ايجه ، ويرتبط بالعنصر الاغريقى

تصوروا رجلا خجولا مثلى ، يطالب بأن يتكلم لا أمام ملأ من الناس فحسب ، وانما امام مجلس شيوخ (بيرن) بالذات .. وان يتكلم ارتجالا ، وليست امامه مذكرة واحدة معدة .. كان هذا ما أوشك ان يقتلنى ! .. ومع ذلك فاننى لم أجبن ، وانما عرضت فى وضوح وايجاز مهمة الارشيمندريت ، وأطريت تقوى الامراء الذين ساهموا فى الاكتتاب الذى جاء لجمعه ،



ولكى أثير حمية مثل هؤلاء السادة الفخام ، قلت انه من غير المتوقع ازاء كرمهم المألوف ان يكونوا أقل من أولئك .. ثم حاولت ان أثبت لهم ان مثل هذا العمل الخيرى يهم المسيحيين جميعا ، دون ما تمييز بين مذاهبهم .. وانتهيت بأن وعدت كل من يساهم فيه ببركات من السماء !

ولن أقول ان خطابى كان مؤثرا ، بيد انه صادف — بالتأكيد — هوى لدى المستمعين . وعند مغادرة الاجتماع ، تلقى «الارشيمندريت» تبرعا سخيا مشرفا ، فضلا عن اطراءات لذكاء سكرتيره ، نعمت بمهمة ترجمتها اليه ، وان لم أجسر على ان انقلها بنصها ! وكانت هذه هى المرة الوحيدة فى حياتى التى تكلمت فيها على الملأ وامام صاحب سلطان ، ولعلها أيضا المرة الأولى التى تكلمت فيها بلباقة واجادة . فأى تحول فى تصرفات

نفس الرجل !.. لقد ذهبت أخيرا ــ منذ ثلاث سنوات ــ الى (ايفردون)لأزور صديقى القديمالسيد « روجان »،فاستقبلت وفدا جاء يشكرنى اذ أهديت مكتبة البلدة بعض الكتب .. والسويسريون خطباء بارعون ، ومن ثم انطلق هؤلاء السادة فى الخطابة لى ، **ووجدتنى مضطرا للرد ، ولكنى ارتبكت بدرجة كبيرة حين شرعت فىذلك، واضطربت أفكارى الىدرجة جعلتنى أوجز وأجعل نفسى موضع السخرية !** .. وعلى الرغم من أننى خجول بطبيعتى ، الا أننى كنت جسورا فى بعض الأحيان ــ فى شبابى ــ ولكنى لم أكن كذلك قط فى كبرى .. فكلما ازددت تعرفا على المجتمع ، قلت قدرتى على ان اكيف نفسى وفقا لأساليبه فى الحديث !

* * *

• **واذ غادرنا** (بيرن) ، ذهبنا الى (سولير) ، اذ ارتأى الارشيمندريت ان يجتاز المانيا ثانية ، عائدا عن طريق المجر أو بولندا ، وهى رحلة بالغة الطول . ولكنه لم يخش طولها ، اذ كان كيسه خليقا بأن يمتلىء خلال الطريق بدلا من أن يفرغ !.. أما أنا ، فكان سواء لدى أرحلت على جواد أو على قدمى ، فما كنت لأبتغى أفضل من الترحال بهذا الشكل ، طيلة العمر .. ولكن كان مكتوبا لى أن لا أمضى فى ترحالى بعيدا !

كان أول ما فعلناه عند وصولنا الى (سولير) هو الذهاب لتحية السيد سفير فرنسا . وكان هذا السفير ــ لسوء حظ أسقفى ــ هو « المركيز دى بوناك » الذى كان سفيرا لدى الباب العالى ، والذى قدر له أن يكون على معرفة وفية بكل ما يتعلق بكنيسة المهد المقدس . وقضى الأرشيمندريت ربع ساعة فى المقابلة التى لم يسمح لى بحضورها ، لأن السيد السفير كان يفهم لسان الفرنجة ويعادلنى ــ على الأقل ــ فى اتقان الحديث بالايطالية . وعندما خرج صاحبى اليونانى ،

هممت بأن أتبعه ، ولكنى استوقفت ، اذ حان دورى لمقابلة السفير ، فقد تقدمت على اننى باريسى ، ومن ثم تحت ولاية صاحب السعادة ! وسألنى السفير عمن أكون ، وناشدنى أن أقول الحقيقة ، فوعدت بذلك ، ورجوت بأن يأذن لى بأن أخلو اليه ، فاذن لى ، وصحبنى الى مكتبه ، وأغلق الباب . . **واذذاك ارتميت على قدميه ، وبررت بوعدى . . وما كنت خليقا بأن أضن بالكلام ، ولولم أعد بشىء ، اذ كانت الرغبة المستمرة فى أن أفضى بما فى صدرى تدفع قلبى الى شفتى فى أية لحظة . . واذا كنت قد كشفت حقيقتى دون تحفظ للموسيقى «ليتولد»، فما كان من المحتمل ان الجأ الى التكتم امام المركيز دى «بوناك!»**

وبدأ عليه الاقتناع بقصتى القصيرة ، وبالصراحة التى فضفضت بها عن صدرى ، فأمسك بيدى وقادنى الى السيدة زوجة السفير ، فقدمنى اليها ، وأوجز لها قصتى ، فتلقتنى السيدة دى بوناك فى رفق ، وقالت اننى يجب ألا أترك مع ذلك الراهب اليونانى . ومن ثم تقرر أن أبقى فى الدار حتى يريا مايمكن أن يفعل من أجلى . ووددت ان اذهب فأودع ارشيمندريتى المسكين الذى كنت اشعر بميل نحوه ، فلم يؤذن لى ، وانما أوفد اليه من أنبأه بأننى قد احتجزت . . وان هو الا ربع ساعة ، حتى كانت حزمة متاعى الصغيرة قد وصلت . وعهد بى الى السيد دى لامارتنير ــ سكرتير السفارة ــ فقال وهو يرينى الغرفة التى أعدت لى : « لقد شغل هذه الحجرة ــ فى عهد كونت دى لوك ــ رجل مشهور كان له نفس اسمك (١) ،

---

(١) كان الشخص المقصود هو جان بابتيست روسو (١٦٧١ - ١٧٤١) . وكان شاعرا غنائيا فرنسيا . . وهناك « روسو » ثالث ، هو « بيير روسو » (١٧٢٥ - ١٧٨٥) وكان كاتبا مسرحيا . وقد قيل بهذا الصدد : « ثلاثة مؤلفين يدعون باسم روسو ، ذاع صيتهم من باريس الى روما : روسو الباريسى كان عظيما ، وروسو الجنيفى كان أحمق ، وروسو التولوزى كان . . هباء ! »

وعليك وحدك ان تملأ مركزه من جميع الاعتبارات ،حتى يقال: روسو الأول ، وروسو الثانى ! » .. وما كان لهذا التشابه — الذى لم أعلق عليه أملا اذ ذاك — ان يستهوى مطامعى ، لو قدر لى أن اطلع على المستقبل فأرى الثمن الذى كان مقدرا على أن أدفعه من اجله يوما !

ولقد أثار قول السيد « دى لامارتنيير » فضولى ، فقرأت مؤلفات ذلك الذى شغلت غرفته . **وازاء المجاملة التى وجهت الى ، واعتقادا منى بأننى أوتيت موهبة الشعر ، نظمت أغنية فى مدح السيدة دى بوناك ، كمحاولة أولى ، على أن هذه النزوة لم يطل أمدها .. ولقد اعتدت أن أنظم الشعر جزافا — بين وقت وآخر — فهو مران لا بأس به لتدريب المرء على الرشاقة فى تكوين العبارات ، ولتحسين الأسلوب النثرى ، ولكننى لم أجد فى الشعر الفرنسى قط جاذبية كافية لأن تجعلنى أتفرغ له !**

ورغب السيد دى لامارتنيير فى أن يرى اسلوبى ، فسألنى ان اكتب عين القصة التى رويتها للسيد السفير ، فكتبت له رسالة طويلة — سمعت انها الآن فى حوزة السيد دى مارتان ، الذى ظل زمنا طويلا ملحقا بالسفارة فى عهد المركيز دى بوناك ، والذى خلف السيد دى لامارتنيير فى عهد تولى السيد دى كورتى السفارة ! — ولقد رجوت السيد دى ماليشيرب ان يسعى للحصول لى على نسخة من هذه الرسالة .. واذا قدر لى ان أظفر بها بوساطته، أو بوساطة سواه ، فسوف توجد فى المجموعة التى ستلحق باعترافاتى .

واخذت الخبرة التى بدأت أحظى بهـا ، تخفف من جموح مشروعاتى الخيالية شيئا فشيئا . فلم اقتصر — مثلا — على عدم الوقوع فى هوى السيدة دى بوناك فحسب ، بل اننى رأيت لتوى اننى لن أجد مجالا كبيرا للرقى فى دار زوجهـا ، اذ كان السيد « دى لامارتنيير » راسخا فى منصبه ، وكان السيد دي ماريان متربصا ليخلفه ، مما كان لايدع لى مجالا للأمل —

مهما يكن الحظ – فى اكثر من منصب مساعد السكرتير، الذى لم يكن يستهوينى كثيرا . ومن ثم فاننى حين استشرت فيما أحب ان افعل أبديت رغبة شديدة فى الذهاب الى باريس . واستساغ السيد السفير هذا الرأى ، الذى بدا خليقا بأن يخلصه منى على الأقل !.. وقال السيد دى مرفييه ، السكرتير المترجم للسفارة ، ان صديقه السيد جودار – وكان ضابطا سويسريا برتبة كولونيل ، فى خدمة فرنسا – كان يبحث عن شخص يعهد اليه برعاية ابن اخيه، الذى التحق بالخدمة وهو بعد صغير السن ، ومن ثم فقد رأى اننى خليق بأن أروق له. وبناء على هذه الفكرة ، التى قبلت فى تسرع ، تقرر سفرى..

فطار قلبى فرحا، اذ رأيت أمامى رحلة تنتهى بى الى باريس!.. ومنحونى بعض خطابات للتوصية ، ومائة فرنك للانفاق على الرحلة ، تصحبها نصائح طيبة .. ثم رحلت !

وقضيت فى هذه الرحلة خمسة عشر يوما، أعدها بين الأيام السعيدة فى حياتى . وكنت شابا ، موفور الصحة، وكان معى مال كاف ، وآمال وافرة ، وقد انطلقت فى الرحلة على قدمى . وكنت أسافر وحيدا ، وقد يعجب المرء – ان لم يكن قد ألم بطباعى – اذ يرانى اعتبر ذلك ميزة ، فقد كانت تصوراتى الناعمة تؤنسنى ، ولم يكن بوسع الواقع ان يتمخض عن أروع من هذه التصورات التى كان يوحى الىّ بها خيالى المتأجج .. وهكذا كنت اذا عرض على امرؤ مجلسا فى عربة ، أو اقترب منى شخص فى الطريق ، أعبس خشية ان يهدم الصرح الذى كنت ابنيه فى خيالى اثناء سيرى !.. على ان افكارى كانت فى هذه المرة «عسكرية» صرفة ، فقد كنت موشكا أن أكون مرافقا لرجل عسكرى، وأن اصبح عسكريا أنا الآخر،اذ كانت التدابير قد اتخذت لكى ألتحق بالمدرسة العسكرية . ورحت اتمثل نفسى فى زى ضابط ، وقد حملت ريشة بيضاء بديعة ، فأفعم قلبى بهذه الفكرة الرفيعة . وكانت لدي بعض معلومات باهتة

عن هندسة التحصينات ، فقد كان خالى مهندسا ، ومن ثم فقداعتبرت نفسى ـ بطريقة ما ـ عسكريا بالفطرة !.. وكان قصر نظرى عقبة، ولكنها عقبة لم تزعجنى، فقد عولت على ان أعوض هذا العيب بالجلد والشجاعة . **وكنت قد قرأت ان الماريشال (شومبيرج) كان قصير النظر ، فلماذا لايكون الماريشال روسو على شاكلته ؟.. وهكذا رحت أتدفأ على حرارة هذه الأوهام، حتى اننى لم أعد أرى سوى فرق من الجنـد ، ومتاريس ، وسلال الطـوابى (١) ، والمدفعيـات ، رشخصى وسط النـار والدخان ، أصدر الاوامر فى هدوء ، وانا أمسك بمنظار الميدان فى يدى** !.. ومع ذلك، فاننى عندما كنت أجتاز المناطق الريفية الجميلة ، كنت أرى ألادغال والجداول ، فيجعلنى هذا المنظر الفتان أتنهد حسرة ، واشعر فى غمرة ابتهاجى بالمجد ان قلبى لم يخلق لمثل هذا الضجيج، وسرعان ماكنت اتمثل نفسى وسط خرافى الحبيبة ـ دون ان أدرى كيف انتقلت اليها ـ نابذا الى الأبد أعمال مارس ! (٢)

* * *

• **كم كذبت** مشارف باريس الفكرة التى كانت لدى عنها!.. كانت المناظر التى رأيتها تزين ظاهر مدينة (تورين) ، وجمال طرقاتها ، وتناسق صفوف بيوتها ، قد جعلتنى اطمع فى مزيد من ذلك كله فى باريس ، فكنت اتمثلها مدينة لهـا من الجمال بقدر ما لها من الاتساع ، وقـد أوتيت أبهى حسن .. لايرى المرء فيها سوى شوارع رائعة ، وقصور من مرمر وذهب !.. فلما دخلتها عن طريق ضاحية (سان مارسو) ، **لم أر سوى شوارع صغيرة قذرة قميئة ، وبيوت بشعة سوداء ، وجو من**

---

(١) أداة اسطوانية الشكل ، مفتوحة الطرفين ، كانت تملأ ترابا ويستعان بها فى بناء الحصون ، فى ذلك العهد .

(٢) اله الحرب ..

الدنس والفقر ، ومتسولين، وحوذيين، وتجار للثياب القديمة، ومنادين يعلنون عن العلاج بالركة وعن القبعات القديمة!..كل هذا صدمنى منذ البداية ، الى درجة ان كل العظمة الحقيقية التى رأيتها فى باريس - بعد ذلك - لم تقو على ان تقضى على هذا الاثر الاول ، ومن ثم ظللت اكن دائما نفورا خفيا من الاقامة فى هذه العاصمة ! . . وأستطيع ان أقول ان المدة التى عشتها فيها - بعد ذلك - لم تشغل بأكملها الا فى السعى وراء موارد تمكننى من العيش بعيدا عنها !

هكذا تكون ثمار الخيال البالغ النشاط ، الذى يتمادى الى ما وراء مبالغات البشر ، والذى يطمع دائما فى ان يرى اكثر مما يقال له !.. فكم امتدحت لى باريس ، حتى اننى صورتها لنفسى على غرار بابل القديمة ، التى كان من المحتمل - لو قدر لى ان أزورها - ان أجد فيها الكثير الذى لايتفق مع الصورة التى أكون قد رسمتها لها فى خيالى !.. ولقد حدث لى الشىء نفسه عندما زرت دار «الاوبرا» ، التى سارعت الى مشاهدتها فى اليوم الذى أعقب وصولى . . ثم وقع لى الشىء ذاته - فيما بعد - عندما زرت (فرساى) ، ثم حين شهدت البحر للمرة الأولى . ولسوف يظل الأمر ذاته يراودنى كلما رأيت شيئا أكون قد سمعت عنه اطنابا بالغا . . ذلك لأنه من المستحيل على البشر، ومن العسير على الطبيعة ذاتها، التفوق على خصب خيالى !

وخيل الى - من الطريقة التى استقبلنى بها كل اولئك الذين حملت اليهم رسائل التوصية - ان حظى قد اكتمل . وكان الشخص الذى تلقى اكبر قسط من التوصية، والذى استقبلنى بأقل قسط من الحفاوة ، هو السيد دى «سوربك» الذى كان قد اعتزل العمل وعاش متفلسفا فى ضاحية (بانيو)، حيث زرته مرارا ، وحيث لم يقدم لى كوب ماء قط !. . ولقد حظيت باستقبال أوفر من مدام دى «مرفييه» - زوجة أخ المترجم -

ومن ابنهمـا ، وكان ضابطـا فى الحرس . فان الأم وابنهـا لم يتلقيانى فى حفاوة فحسب ، بل انهمـا دعوانى الى مائدتهما ، فاستغللت هذه الدعوة مرارا اثناء اقامتى فى باريس. **ولاح لى ان مدام دى ((مرفيبيه)) كانت حسناء يوما ما، فقد كان شعرها لايزال ذا سواد بديع ، وكانت تنسقه فى حلقات على جبينها ، وفقا للنمط القديم . وكانت محتفظة بمـا لايخبو حين تخبو المفاتن الشخصية .. واعنى بذلك : عقلا لا بأس به .** وقد بدا انهـا استساغت فكرى ، وأخـذت تبـذل كل ما فى وسعهـا لمساعدتى ، ولكن أحدا لم يؤازرها.. وما لبثت ان تبينت بجلاء الاهتمام العظيم الذى تولاها نحوى .على ان من واجبى انصاف الفرنسيين ، فانهم لايغالون فى الاحتجاجات ـ كما يقال ـ بل ان ما يبدونه منها يكون صـادقا على الدوام . على ان لهم فى التظاهر بالاهتمام بك أسلوبا اكثر خـداعا من زخرف القول ! اما المجاملات الضخمة المأثورة عن السويسريين ، فلا تجوز الا على الحمقى ! ان طباع الفرنسيين ليست بالغة الاغراء والفتنة الا لأنها بالغة البسـاطة .. وقـد يلوح انهم لايقولون لك كل مايودون ان يفعلوه ، لـكى يستطيعوا أن يقدموا لك مفاجآت مستحبة . بل اننى لأذهب الى القول بأنهم ليسـوا كاذبين فى مظاهرهم ، فهم بطبيعتهم بشوشون ، عطوفون، محبون للخير .. بل انهم ـ مهما يقال ـ اكثر صدقا فى عواطفهم من ابناء اية امة اخرى .. بيـد انهم نزقون ، سريعو الملل والتقلب . **انهم يشـعرون فى الواقع بالعواطف التى يبدونها لك ، ولـكن هذه العواطف سرعان ما تذهب كما جاءت .. و هم حين يحدثونك ينصرفون اليك بجماع انفسهم ، ولـكنهم ينسونك بمجرد ان تغيب عن أبصـارهم .. فلا دوام لشىء فى قلوبهم ، بل ان كل شىء لديهم ابن لحظته !**

ومن ثم فقد حظيت بكثير من المجاملات وقليل من النفع.. وظهر ان ذلك الكولونيل «جودار»ـ الذى اوفدت لابن اخيه ـ

كان شيخا وغدا شحيحا ، ما ان رأى ما كنت فيه من محنة ، حتى طمع فى ان يظفر بخدماتى دون مقابل ، رغم انه كان يتقلب فى الذهب ! .. فلقد ارادنى على ان اكون لابن اخيه بمثابة وصيف بدون أجر ، اكثر منى رائدا ومربيا حقيقيا ! ولما كنت مرافقا اياه باستمرار ، ومعفى من الخدمة لذلك ، فقد كان لزاما ان أعيش على مرتبى كطالب عسكرى — أو بالأحرى ، كجندى — وكاد التعس لا يوافق على منحى حلة عسكرية ، اذ كان يريد ان اقنع بحلة الخدمة التى تقدمها الكتيبة للجندى العادى. ولقد حالت مدام دى مرفييه نفسها بينى وبين قبول هذه المقترحات ، اذ استنكرتها .. وكذلك أبدى ابنها عين الشعور. ودار البحث عن عمل آخر لى ، فلم يسفر عن شىء . وبدأت فى تلك الاثناء أحس بحاجة ماسة الى المال ، فما كانت الفرنكات المائة التى انفقت منها على رحلتى لتكفينى فترة أطول . على اننى — لحسن الحظ — تلقيت من لدن السيد السفير منحة صغيرة أخرى ، كانت عظيمة النفع لى . وأعتقد انه ماكان ليتخلى عنى لو اننى كنت قد اوتيت مزيدا من الصبر ، ولكن التقاعس ، والانتظار ، والاسترحام أمور مستحيلة بالنسبة لى .. فانصرفت عن هذه الاسرة ولم أعد اتردد عليها !

ولم أكن قد نسيت ((ماما)) المسكينة ، ولكن كيف كان لى أن أعثر عليها ؟ اين كان لى أن أبحث عنها ؟ .. وكانت ((مدام دى مرفييه)) — التى عرفت قصتى — قد ساعدتنى فى هذا البحث فترة طويلة ، دون جدوى .. وأخيرا ، علمت ان ((مدام دى فاران)) قد غادرت باريس منذ شهرين ، ولكن أحدا لم يدر هل ذهبت الى (سافوى) أم الى (تورين) ، بل ان بعض الناس قالوا انها عادت الى سويسرا . وما كنت بحاجة الى ان اضيع وقتا فى عقد العزم على الانطلاق فى اثرها ، وانا واثق من ان البحث عنها — أيا كان مكانها — سيكون فى الاقاليم أيسر من كل ما قدر لى أن أقوم به فى باريس !

وقبل أن أرحل ، مارست براعتي الشعرية الجديدة في رسالة الى الكولونيل جودار ، نلت منه فيها بأقصى ما استطعت ! ولقد عرضت هذا الهذيان على مدام دى « مرفييه » ، فبدلا من ان تلومني – كما كان ينبغي ان تفعل – ضحكت كثيرا من سخرياتي ، وكذلك فعل ابنها الذى لم يكن يحب السيد جودار ، على ما اعتقد – وخليق بى ان اعترف بانه لم يكن أهلا للحب! – وهكذا ألفيتني ميالا الى ارسال القصيدة اليه ، بعد ان وجدت تشجيعا على ذلك ، فحزمت الصفحات ، وكتبت عليها عنوانه. واذ لم يكن فى باريس خدمة داخلية للبريد – يومئذ – فقد وضعت الخطاب فى جيبى ، وارسلته من (اوكسير) عندما مررت بها . وما زلت اضحك احيانا عندما أفكر فى الامتعاضات التى لا بد ان يكون الكولونيل قد أبداها وهو يقرأ هذه القصيدة التى وصفته أدق وصف ، والتى بدأت هكذا :

« اظننت ايها الكهل الآثم ، ان نزوة حمقاء
« توحى الى بالشوق الى تربية ابن اخيك ؟ » !

ولقد كانت هذه القصيدة الصغيرة ركيكة فى الواقع ، بيد انها لم تكن تفتقر الى الطلاوة ، كما كانت تنم عن استعداد طيب لفن « الهجاء » .. على انها كانت الهجو الوحيد الذى انساب من قلمى ، فان قلبى لم يحو من الخبث ما يمكنني من استغلال موهبة كهذه ، وان كنت أرى ان المرء يستطيع ان يحكم – من بعض المجادلات القلمية التى اكتبها من وقت الى آخر ، دفاعا عن نفسي – انني لو كنت قد أوتيت روح الصراع ، لعز على من يهاجمونني ان يضحكوا عقب النزال !

ان اكثر ما آسف عليه من تفصيلات حياتى التى قدر لها ان تضيع من ذاكرتى ، هو انني لم أكتب يوميات عن اسفارى . فما قدر لى قط ان اكون أكثر تفكيرا ، وأكثر استمراء لوجودى وحياتى ، واكثر قربا من حقيقتى – اذا جاز لى ان اقول هذا – مما كنت فى تلك الرحلات التى كنت اقوم بها سيرا على قدمى.

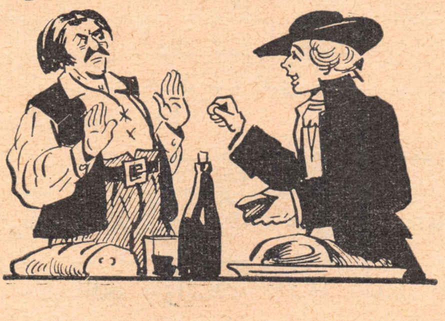
ففى المشى شيء ينعش نشاطى ويسمو بأفكارى . وأنا لا اكاد افكر عندما أكون ساكنـا ، بل لا بد لجسمى من ان يكون فى حركة حتى يتحرك عقلى . ان رؤية الريف ، وتتابع المناظر الممتعة ، والخلاء ، والشهية المتفتحة والصحة الطيبة اللذين أكتسبهما بالمشى ، والحياة الحرة فى الفنادق الريفية.. وغياب كل ما يجعلنى أحس بأننى عالة على غيرى ، وكل ما يذكرنى بمركزى ، وكل ما يفكرنى بحالى .. كل هذا يطلق روحى من عقالها ، ويمنحنى جرأة بالغة فى التفكير ، ويلقى بى - كما ينبغى ان يقال - فى بحار الكائنات الشاسعة لكى أجمعها وافرزها وأنسقها كما يحلو لى ، دون ما حرج أو خوف ! .. كنت اتصرف فى الطبيعة بأسرها ، وكأننى المسيطر عليها .. فكان قلبى فى تنقله من شيء الى شيء يتحد مع تلك الاشياء التى تروق له ويميزها عن سواها ، ويحيط نفسه برؤى فاتنة ، وينتشى بأحاسيس عذبة . واذا كنت - فى سبيل تسجيل هذه الاحاسيس واثباتها - أستعذب وصفها فى نفسى ، فأية خطوط قوية ، وأية ألوان بهيجة ، وأية تعبيرات متألقة أضفيها عليها ! .. وقد يقال ان هذه كلها قد وجدت فى مؤلفاتى وان كانت قد كتبت فى سنى أفولى .. آه ! ليت أحدا قد رأى ما كتبت فى صدر شبابى ، وما ألفت فى رحلاتى ، وما أنشأت من أفكار لم أكتبها اطلاقا ! .. وقد تقولون : لماذا لم تكتبها ؟ .. وأجيب أنا : **ولماذا أكتبها ؟ .. لماذا أحرم نفسى السحر الواقعى للذة ، لكى أقول للغير اننى استمتعت بهذه اللذة ؟ .. وفيم يعنينى القراء ، والجمهور ، والأرض بأسرها ، ما دمت أحلق فى السماء ؟ .. ثم ، افترانى كنت أحمل - فى رحلاتى - ورقا وأقلاما ؟ .. لو اننى كنت قد فكرت فى كل هذا ، لما وافانى شيء مما كان جديرا بالتسجيل .. اننى لم أكن أتنبأ بموعد الأفكار ، وانما كانت تواتينى عندما تشاء هى، وليس حين أشاء أنا !** .. وكانت تمتنع عن موافاتى ، أو تأتى

زرافات فتطغى على بقوتها وعددها .. وما كانت عشرة مجلدات فى اليوم بكافية لتدوينها ! فمن اين لى الوقت الذى اكتبها فيه ؟ .. كنت اذا بلغت بلدا ، لا افكر الا فى غداء شهى . واذا بارحت بلدا ، لا افكر الا فى سير سريع ، فقد كنت أحس بأن ثمة نعيما جديدا على الأبواب ، فلا افكر الا فى السعى اليه !

وما شعرت بكل هذا يوما قدر ما شعرت به فى رحلة العودة ، التى أتحدث عنها .. ففى طريقى الى باريس ، كانت خواطرى محدودة بما كنت ذاهبا لعمله هناك ، اذ كنت قد انصرفت الى الحياة العملية التى ظننت انها كانت تنبسط أمامى ، والتى كنت خليقا بأن اخوضها بكثير من الفخر . ولكن هذه الحياة كانت غير تلك التى دعانى قلبى اليها ، وقد آذت مخلوقات الواقع كائنات الخيال .. كان الكولونيل جودار وابن اخيه لا يتسقان مع بطل مثلى . اما الآن ، فقد تخلصت من هذه العقبات ، بفضل السماء ، وأصبح فى مقدورى أن أغوص وفق هواى فى عالم الأوهام ، اذ لم يبق امامى سوى هذا العالم !.. ولقد همت فيه تماما ، حتى اننى ضللت طريقى عدة مرات فعلا ، ولكنى كنت خليقا بأن اغتم لو اننى سلكت طريقا أكثر اتجاها الى مقصدى . ذلك لاننى توهمت انى لن ألبث أن أجد نفسى على الارض من جديد ، لدى وصولى الى (ليون) ، فوددت ان لا ابلغها ابدا !

وفى يوم من الأيام ، انحرفت عن طريقى عمدا ، لأتأمل عن كثب مكانا تراءى لى جديرا بالاعجاب . وبلغ من ابتهاجى به انى اكثرت من الدوران حوله ، حتى ضللت تماما فى النهاية! .. وبعد عدة ساعات من السير على غير هدى ، وقد انهكنى التعب وبرح بى الجوع والعطش ، دخلت لدى فلاح لم تكن داره جميلة المظهر ، ولكنها كانت الوحيدة التى رأيتها فيما حولى . وكنت أخال ان الأمر كما فى جنيف أو فى سويسرا عموما ، حيث يخف جميع السكان الميسورى الحال الى اظهار

كرمهم . وسألت هذا الفلاح ان يمنحنى ما اتناوله غداء ، عارضا عليه ان ادفع الثمن . فقدم لى لبنا خثرا وقطعة من خبز الشعير الخشن ، قائلا ان ذلك كان كل ما لديه . فشربت اللبن جذلا ، وأكلت الخبز ، بقشه و « ردته » ! بيد ان هذا لم يكن قوتا كافيا لرد النشاط الى رجل انهكه التعب ..
وادرك الفلاح ـ الذى تفرس فى عن كثب ـ صدق قصتى ، بما تجلى له من شهيتى ، فصارحنى بعد ذلك فورا بأنه استطاع ان يتبين اننى كنت شابا طيبا وأمينا (١) ، وانني لم آت كى ابتز منه مالا .. ثم فتح باب مخزن صغير ـ بالقرب من المطبخ ـ وهبط منه ، وعاد بعد دقيقة برغيف بديع من خبز القمح المحمص ، وقطعة شهية من لحم الخنزير ، وان توخى التقتير فى حجمها ، وزجاجة نبيذ انعش مرآها فؤادى اكثر من كل ما عداها ! ..و اضاف الى ذلك قطعة سميكة من العجة ، فحظيت بغداء لم يحظ بمثله قط عابر سبيل ! ..
وعندما حان وقت الدفع ، عاود الرجل قلقه وخوفه ، فأبى ان يأخذ شيئا من نقودى ، ورفضها فى انزعاج غير عادى .



(١) من الجلى أن ملامحى ـ فى ذلك العهد ـ لم تكن قد شابهت بعد الملامح التى رسمت فى صورى بعد ذلك .

والطريف فى الأمر اننى لم استطع ان اتصور ما كان يخيفه . وأخيرا ، اطلق هذه الكلمات الرهيبة وهو يرتجف : « محصلو العوائد » و « جرذان القبو » ! (١) . . وأفهمنى انه كان يخبىء نبيذه بسبب العوائد ، وكان يخفى خبزه بسبب الضرائب (العشور) ، وانه يغدو رجلا ضائعا لو ارتاب هؤلاء فى انه لم يكن يتضور جوعا ! . . ولقد ترك كل ما قاله الرجل عن هذا الموضوع ـ الذى لم تكن لدى اتفه فكرة عنه ـ اثرا لن يمحى ، كان بمثابة « بذرة » الكراهية التى لاتخبو ، والتى راحت تذكو فى قلبى ـ منذ ذلك الحين ـ ضد المظالم التى كانت تحيق بالشعب التعس ، وضد الطغاة . **كان هذا الرجل لا يجرؤ ـ رغم يسر حاله ـ على ان يأكل الخبز الذى كسبه بعرق جبينه ، ولم يكن يملك ان يتفادى خرابه الا بأن يبدى نفس الشقاء الذى كان يسيطر على من حوله !** . . وغادرت داره وانا موزع بين السخط والتأثر ، أرثى لحظ تلك البلدان الجميلة التى لم تسبغ الطبيعة هباتها عليها الا لتجعلها فريسة لمحصلى الضرائب المتوحشين !

هذه هى الذكرى الواضحة الوحيدة التى تبقت لى من كل ما حدث خلال تلك الرحلة . ولست اذكر الى جوارها سوى اننى حين اقتربت من (ليون) ، شعرت بميل الى ان اطيل طريقى كى أسعى الى مشاهدة ضفاف (الليتيون) ، فقد كان بين القصص التى قرأتها مع أبى ، قصة لم أنسها ، بل كثيرا ما عادت الى ذاكرتى . . تلك هى «استريه» (٢) ! . . فسألت عن الطريق الى (فوريز) . وبينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع صاحبة أحد الفنادق ، علمت ان تلك المنطقة كانت ذات موارد طيبة

---

(١) « جرذان القبو » لقب كان يطلق فى ذلك العهد على مندوبى الحكومة الذين يتفقدون موارد المرء ويقدرون ما ينبغى عليه أن يدفع من مكوس وخراج .

(٢) قصة عن غرام الرعاة للروائى « أونوريه دورفيه » (١٥٦٨ ـ ١٦٢٥)

للعمال، وان فيها كثيرا من المسابك، وان القوم يجيدون صناعة الحديد. فهدأ هذا القول من جموح خيالى فى الحال، اذ أدركت أن من غير الملائم ان أسعى للبحث عن أمثال « ديانا » و « سيلفاندر » (١) بين قوم من الحدادين !.. ولا بد ان المرأة الطيبة ـ التى شجعتنى على هذا النحو ـ ظنتنى صانع أقفال مرتزق !

ولم يكن ذهابى الى (ليون) دون ما غرض على الاطلاق، فما ان وصلت اليها حتى سعيت الى جهة (شاسوت) لزيارة الآنسة « دى شاتيليه » ، صديقة مدام « دى فاران » التى كانت قد أعطتنى رسالة لها عندما ذهبت مع السيد « لوميتر » .. ومن ثم فقد كان ثمة تعارف بيننا . وأنبأتنى الآنسة « دى شاتيليه » بأن صديقتها « مدام دى فاران » كانت قد مرت ـ فعلا ـ بليون ، ولكنها تجهل ما اذا كانت قد واصلت رحلتها حتى (بييمونت) .. بل انها عند رحيلها لم تكن مستقرة الرأى على ما اذا كانت ستعرج على (سافوا) ام لا .. واضافت الآنسة انها على استعداد لأن تكتب فى طلب الأنباء ، اذا شئت، وان خير ما ينبغى ان أفعله هو أن انتظر فى (ليون) . وتقبلت الاقتراح ، **ولكنى لم أجرؤ على أن أقول الآنسة دى شاتيليه انني كنت ملهوفا على الجواب المرتقب ، وان كيسى الصغير الناضب لم يكن يتيح لى الانتظار طويلا !** ولم يكن ما صدنى عن المصارحة انها أساءت استقبالى ، فهى ـ على النقيض ـ قد أبدت لى كثيرا من المجاملات ، وعاملتنى فى مساواة جردتنى من الجرأة على أن أخفى عنها حالى ، وأن أهبط من مكانة الزميل المقبول ، الى مكانة المستجدى التعس !

ومع اننى ألتزم تسلسل الحوادث التى أوردتها فى هذا الكتاب، فأننى أعود بالذاكرة الى رحلة أخرى الى (ليون) قمت بها فى

---

(١) عاشقان من الآلهة يرد ذكرهما فى قصة « أستريه »

عين تلك الفترة ، وان لم يكن بوسعي أن أحدد زمانها بالضبط، وقد وجدت نفسي خلالها في ضائقة شديدة. وثمة حادث صغير ـ من العسير أن ارويه ـ لايتيح لي قط أن أنساها : فقدكنت ذات مساء أجلس في (بيلكور) ، بعد عشاء جد خفيف ، أفكر في وسيلة أنتزع بها نفسي من ضيقي، واذا برجل له مظهراولئك المشتغلين بالحرير،الذين يدعون في(ليون) باسم« القماشين ». ووجه الى الخطاب ، فرددت عليه. ولم نكد نسترسل في الحديث نحو ربع ساعة ، حتى عرض علي ـ بنفس الهدوء الذي كان يلازمه ، وبدون أي تغير في لهجته ـ أن نلهو معا في الريف . وانتظرت أن يبين نوع اللهو ، ولكنه شرع ـ دون أن ينبس بكلمة أخرى ـ يصور لي مثلا لهذا اللهو (١) . وكنا متلاصقين تقريبا ، ولم تشتد ظلمة الليل بعد بدرجة تحول دون رؤية العمل الذي تهيأ له . ولم يكن له مطمع في شخصي ، فما من شيء نم ـ على الأقل ـ عن هذا القصد ، كما أن المكان لم يكن ملائما لذلك .. فهو لم يكن يبغي ـ كما قال لي ـ سوى أن يلهو ، وألهو أنا الآخر ،كل منا على حدة . وقد بدا له هذا أمرا بسيطا ، حتى أنه لم يخطر بباله انني قد لا أنظر الى الأمر نظرته !.. **ولقد جزعت لهذه القحة ، حتى انني نهضت مسرعا ـ دون أن أرد عليه ـ وهربت بأقصى ما اسعفتني ساقاي ، وأنا أتوهم ان ذلك الشقي كان في اثري ! وكنت من الاضطراب بحيث انني بدلا من ان اقصد الى مأواي عن طريق (سان دومينيك) ، انطلقت اعدو بجوار رصفة الميناء ، فلم أقف حتى كنت قد عبرت الجسر الخشبي ، وانا ارتجف وكأنني عائد لتوي بعد ارتكاب جريمة !.. ولقد كنت فريسة لتلك الرذيلة من قبل ، ولكن هذا الحادث أبرأني منها زمنا طويلا !**

وقد صادفت ـ في أثناء الرحلة الثانية ـ مغامرة من نفس النوع تقريبا ، ولكنها عرضتني لخطر عظيم . واليك قصتها :

(١) يبدو أن هذه الرذيلة هي الاستمناء ، أو (العادة السرية) .

كنت قد أحسست بأن مواردى أوشكت أن تنضب ، فأخذت اقتصد فى انفاق المبلغ الضئيل المتبقى ، بحيث أصبحت لا أتناول وجباتى فى فندق الا لماما .. ثم لم أعد أتناول منها شيئا هناك على الاطلاق ، اذ كان بوسعى أن أحظى فى الحانة ، لقاء خمسة أو ستة « سو » ، بشبع يفوق ما كنت أحظى به فى الفندق لقاء خمسة وعشرين !.. واذ لم أعد أتناول طعامى فى الفندق ، لم ادر كيف كان لى أن أظل أبيت هناك ، اذ أننى خجلت من أن أشغل حجرة دون أن أتيح لصاحب الفندق مجالا كافيا للربح.

وكان الفصل بديع الجو ، لكن الحر اشتد فى احدى الأمسيات ، فقررت أن أقضى الليل فى الميدان العام . وما أن استلقيت على مقعد عريض هناك ، حتى مر راهب ، فرآنى نائما على هذا النحو ، واذ ذاك اقترب فسألنى عما اذا لم يكن لى مأوى . وأفضيت اليه بحالى ، فبدا عليه التأثر ، وجلس الى جوارى ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . وكان حديثه مناسبا ، اذ كان كل ما قاله يوحى الى بخير فكرة عن الناس . ولما رآنى أنست اليه ، قال لى انه لم يكن يملك مسكنا فخما واسعا ، بل كان مسكنه يتألف من حجرة واحدة ، ولكنه ما كان – يقينا – ليدعنى أنام فى الميدان العام . ولما كان الوقت متأخرا ، ولاسبيل الى البحث عن مأوى لى ، فقد عرض على نصف سريره فى تلك الليلة . وقبلت العرض ، وقد خالجنى الأمل فى أن أكون قد عثرت على صديق قد يستطيع ان يكون ذا نفع لى . وذهبنا الى مسكنه ، فأشعل ضوءا ، تراءت حجرته لى على هديه مناسبة ، رغم صغرها . وأخذ مضيفى يكرمنى فى أدب جم ، ثم أخرج من وعاء زجاجى بعض الكريز الذى كان منقوعا فى النبيذ .. فأكل كل منا اثنتين ، ثم أوينا الى السرير .

وكانت لهذا الرجل نفس ميول صاحبى اليهودى الذى كان فى دار الضيافة بالدير ، (١) ولكنه لم يبدها بمثل وحشية ذاك ،

(١) وردت واقعة اليهودى بصفحة ١١٠ من الجزء الاول

اما لأنه أدرك ان بوسعى أن أصل بصوتى الى الاسماع ، فخشى أن يضطرنى الى الدفاع عن نفسى .. واما لأنه كان فى الواقع ضعيف التثبت من خططه ، فلم يجرؤ على ان يقترح بصراحة تحقيقها ، وانما حاول استثارة انفعالاتى دون ان يستثير شكوكى ! **ولما كنت قد تعلمت من التجربة الأولى ، فاننى ادركت سراعا مقصده ، فارتجفت .. ولم اكن أعرف فى أى منزل ولا بين أى يدين كنت ، فخشيت أن أدفع حياتى ثمنا لأية ضجة أحدثها !.. فتظاهرت بتجاهل ما كان يبغيه منى ، ولكنى أبديت استياء شديدا من ملاطفاته ، واذ عقدت العزم على أن لا اتقبل أى تماد منه ، فقد تصرفت بحيث اضطررته الى أن يكبح نفسه.** ثم تحدثت اليه بكل ما اوتيت من لطف وحزم.. وبدون ابداء أى ارتياب فى شىء ، اعتذرت له بتجربتى السابقة عن القلق الذى ابديته نحوه، ورحت أبالغ فى رواية تلك التجربة بعبارات مفعمة بالاستبشاع والاشمئزاز ، بحيث أثرت اشمئزازه — على ما اعتقد — ومن ثم عدل عن غايته القذرة تماما .. فقضينا ما تبقى من الليل فى هدوء . بل انه ذكر لى كثيرا من الأمور الطيبة الرقيقة ، فما كان — بالتأكيد — خلوا من الميزات ، رغم انه كان وغدا كبيرا !

وفى الصباح ، لم يشأ السيد الراهب أن يبدو مستاء ، فتحدث عن تناول الافطار ، وسأل احدى ابنتى صاحبة الدار — وكانت جميلة — أن تحضر لنا فطورا ، فقالت له ان لا وقت لديها لذلك . ووجه الرجاء الى اختها ، فلم تتفضل عليه برد !... وظللنا ننتظر ، ولا أثر لفطور !.. وأخيرا انتقلنا الى حجرة الآنستين، فاذا بهما تستقبلان الراهب بنذر ضئيل من التلطف. ولم يكن لى ان اطمع فى استقبال أفضل **:فان كبرى الفتاتين داست — وهى تستدير — طرف قدمى بكعب حذائها المدبب . وكانت فى قدمى بثرة (كاللو) شديدة الايلام — اضطرتنى من قبل الى أن اقطع طرف حذائى — أما الفتاة الأخرى فقد جذبت**

من خلفى فجأة مقعدا كنت أهم بالجلوس عليه .. بينما كانت أمهما تلقى من النافذة بعض الماء الذى أغرق وجهى !.. وعلاوة على ذلك كن، أينما جلست ، يقصينني للبحث عن شىء ما ! .. أبدا لم ألق فى حياتى مثل هذه ((الحفاوة)) ! .. وكنت أرى فى نظراتهما المهينة الساخرة سخطا مكتوما ، كنت من الغباء بحيث لم أفقهه. وفى ذهولى ودهشتى ،أوشكت ان اخال ان الشيطان قد استولى عليهن جميعا ، فبدأت أشعر بجزع شديد . وفى تلك الأثناء ، ادرك الراهب ـ الذى كان يتظاهر بأنه لم يكن يرى أو يسمع ـ ان لا أمل فى فطور ، فقرر مبارحة الدار . . واسرعت خلفه وأنا جد مغتبط بالافلات من الشيطانات الثلاث!

وفى أثناء سيرنا ، عرض على أن نذهب فنفطر فى مقهى . وعلى الرغم من أننى كنت شديد الجوع ، الا أننى لم أقبل هذه الدعوة التى لم يصر عليها بعد ذلك ، ومن ثم افترقنا بعد أن اجتزنا ثلاثة شوارع أو أربعة . أما أنا فقد كنت مبتهجا اذ غاب عنى منظر كل ما كان يمت الى تلك الدار اللعينة .. وأما هو فكان مرتاحا ـ فيما اعتقد ـ اذ ابتعد بى عنها حتى لا يسهل على أن أعرفها . . واذ لم تكن قد عرضت لى من قبل أمثال هاتين المغامرتين ، سواء فى باريس أو سواها ، فانهما لم تخلفا فى نفسى أثرا طيبا عن أهل (ليون) ،بل ظللت دائما اعتبر هذه المدينة مثالا للمدينة الأوربية التى يسودها أفظع فساد !

* * *

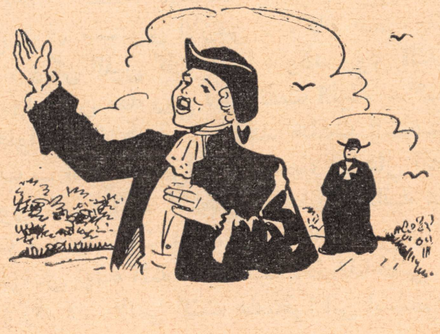
• **ولا تساعد** الظروف التى انحدرت اليها فى تلك المدينة ، على الاحتفاظ عنها بذكريات طيبة . ولو كنت قد خلقت على غرار سواى : لو أوتيت مثلا موهبة الاقتراض ، او ان أكون مدينا لفندقى ، لسهل على أن انتزع نفسى من الحرج ، ولكن مقدرتى على هذا الأمر كانت تعادل نفورى منه. ولكى تتصوروا

الى أى مدى بلغ عجزى ونفورى ، يكفى أن تعرفوا اننى بعد أن قضيت حياتى كلها ــ تقريبا ــ فى الفاقة ، وكنت أوشك فى كثير من الأحيان على أن لا أجد القوت ، لم أتلق يوما من دائن مطالبة بنقود الا اجبتها فى اللحظة عينهـــا . وما عرفت الطريق الى القروض قط ، بل كنت دائما أوثر العناء على الديون المالية !

ولقد كان من العذاب حقا أن أهبط الى درك قضاء الليل فى الشارع ، الأمر الذى حدث لى مرارا فى (ليون) ، فلقد آثرت ان استغل الدراهم القليلة التى بقيت لى فى دفع ثمن خبزى ، بدلا من دفع أجر مأواى .. فقد كان خطر النوم فى العراء أقل من خطر الموت جوعا ! .. والعجيب فى الأمر اننى لم اكن ــ فى تلك الظروف القاسية ــ قلقا ولا حزينا ! لم يكن لدى أدنى قلق بصدد المستقبل ، بل رحت انتظر ــ مطمئنا ــ الرد الذى كان لا بد ان تتلقاه الآنسة « دى شاتيليه » .. وكنت أنام فى العراء ، مستلقيا على الأرض ، أو على مقعد عريض ، مستغرقا فى النعاس وكأننى فى سرير من الورود ! .. واذكر ــ بوجه خاص ــ اننى انفقت ليلة ممتعة خارج المدينة ، على أرض طريق ممتدة الى جانب نهر (الرون) أو (الساؤن) ــ فلست أذكر أى النهرين كان ! ــ وكانت تحف بالجانب الآخر للطريق حدائق أقيمت على ارتفاع فوق مستوى الأرض . وكان الحر قائظا فى نهـــار ذلك اليوم ، ولكن الليل كان بديعا ، وقد روى الندى الأعشاب الظامئة .. ولم تكن ثمة ريح ، اذ كانت الليلة ساكنة ، والنسيم رقيقا ، خلوا من الرطوبة .. وقد خلفت الشمس وراءها ــ بعد الغروب ــ أبخرة حمراء فى السماء ، أحال انعكاسها المـاء الى لون الورد ! .. وكانت أشجار الحدائق العالية عامرة بالبلابل التى راحت تتجاوب بالشدو . وأخذت أتمشى فى نشوة ، مسلما حواسى وفؤادى لهذه المتعة الصافية ، فلم تداخلنى سوى حسرة ــ تمثلت فى زفرة ــ لأننى كنت مضطرا الى استمراء هذه المتعة

وحدى .. وواصلت السير الى ساعة متأخرة من الليل ، وأنا مستغرق فى تأملاتى الناعمة ، دون أن افطن الى ان التعب قد ادركنى .. ولكنى انتبهت الى ذلك اخيرا ، فألقيت بنفسى — فى اغتباط — على قاعدة « كوة » أو باب زائف نحت فى جدار سياج الحدائق ، وقد تعانقت الافنان مؤلفة شبه « سقف » فوق سريرى .. كما جثم بلبل فوق رأسى مباشرة ، وراح يغرد لى .. حتى نمت .

وكان نعاسى لطيفا ، كما كان استيقاظى ألطف .. فقد كان الصباح رائعا ، ووقعت عيناى — حين فتحتهما — على الماء والخضرة ، وريف بديع ! .. ونهضت من مرقدى ، فتمطيت ، واذ شعرت بالجوع انطلقت طروبا صوب المدينة ، وقد عقدت العزم على أن انفق على فطورى القطعتين الفضيتين اللتين بقيتا من نقودى !.. وكم كنت مبتهجا ، حتى أننى أخذت اردد احدى أغانى « باتيستان » التى كنت أحفظها عن ظهر قلب ، وكان عنوانها : « حمام ثوميرى » . . الافلتبارك السماء « باتيستان » الطيب وأغنيته ، فقد أتاحا لى فطورا أفضل مما كنت انتوى ، وغداء اكثر امتاعا — وهما وجبتان لم تكونا فى الحسبان قط ! — **فبينما كنت سائرا أغنى — على خير حال —**



سمعت شخصا خلفى ، فالتفت ، واذا بأحد « الأنطونيين »(١) يتبعنى ، وقد لاح انه كان ينصت الى غنائى فى طرب . وبادأنى بالحديث ، فحيانى ، وسألنى عما اذا كنت على الملم بالموسيقى، فأجبت : « بعض الشىء » ، بلهجـة توحى اليـه بأننى كنت أعرف الـكثير .. وتابع سؤالى ، فرويت له شطرا من قصة حياتى ، واذذاك سألنى عما اذا لم يكن قدسبق لى أن نسخت « نوتات » موسيقية ، فقلت له : « كثيرا » ــ وكان هذا صدقا، اذ كان معظم ما تعلمته من الموسيقى عن طريق النسخ ــ فقال: « حسنا ! تعال معى ، ففى وسعى أن أشغلك بضعة أيام ، لن يعوزك خلالها شىء .. على شريطة ان لا تغادر الحجرة قط ! » .. ووافقت عن طيب خاطر ، فتبعته !

وكان هذا الانطوانى يدعى السيد « روليشون »، وكان يحب الموسيقى ويحذقها ويغنى فى الحفلات الصغيرة التى كان يقيمها مع اصدقائه . ولم يكن فى هذا سوى كل ماهو برىء وشريف، ولكن هوايته كانت تنحدر ــ كما اتضح لى ــ الى تهوس كان مضطرا الى التستر عليه بعض الشىء !.. وقادنى الى حجرة صغيرة نزلت بها ، فوجدت فيها كثيرا من القطع الموسيقية التى نقلها هو ، كما اعطانى سواها لكى انقلها، وكانت من بينها الأغنية التى كنت ارددها ، والتى كان مزمعا أن يغنيها بعـد أيام . . وقضيت ثلاثة أيام أو أربعة وانا عاكف على النسخ طيلة الوقت، باستثناء وقت الطعام ــ فما كنت فى أى يوم من أيام حيـاتى اكثر شهية ولا أفضل غذاء مما كنت خلال تلك الأيام! ــ وكان الرجل يحمل الطعام الى بنفسـه من المطبخ ، ولا بد ان طعام القوم كان طيبا شهيا ، اذا صح ان ما كان يقـدم لى كان من طعامهم العادى ! .. ولقد كنت طيلة عمرى لا أجـد فى الأكل

---

(١) « الانطونيون » أتباع مذهب علمـانى فى الرهبنة . وكانوا يفخرون بأنهم حملة « صليب مالطة » ، وهو وسام منحوا اياه قديما حين أبدوا بسالة فى الحرب .

متعة ، وجدير بى أن أعترف كذلك بأن هذه الوجبات جاءت فى الوقت المناسب تماما ، اذ اننى كنت جافا كالخشب . ورحت أعمل بنفس الاقبال الذى كنت آكل به ، وهو اقبال لم يكن بالقليل ! .. على انى ، فى الواقع ، لم اكن دقيقا فى عملى بقدر ما كنت سريعا . وقد حدث بعد ذلك ببضعة ايام ان قابلنى السيد روليشون فى الطريق ، فأنبأنى بأن منسوخاتى جعلت العزف الموسيقى مستحيلا ، لأنها وجدت مليئة بالشطب والتكرار والتحريف . ومن الواجب ان اعترف بأننى اخترت المهنة الوحيدة التى كنت اقل الناس استعدادا لها ، لا لأن علاماتى الموسيقية لم تكن جميلة أو لأننى لم اكن دقيقا فى النقل، وانما لأن الملل من عمل جد طويل ، كان يشتت بالى الى درجة اننى كنت أقضى فى المحو وقتا اطول مما كنت أقضى فى الكتابة، والى درجة ان منسوخاتى لم تكن صالحة للتنفيذ ـ بالعزف ـ ما لم أبد عناية فائقة بمراجعتها . . **وهكذا أسأت انجاز عملى ، فى الوقت الذى كنت اسعى فيه لأدائه على خير وجه .. وبدلا من ان اسرع ، اذا بى اتخبط !** على ان هذا لم يمنع السيد روليشون من ان يحسن معاملتى الى النهاية ، ومن ان يمنحنى كذلك ـ عند انصرافى ـ دينارا لم أكن استحقه البتة ، وان كان قد أنقذنى من ضائقتى . . **وان هى الا أيام قلائل، حتى تلقيت نبأ من ((ماما)) ـ التى كانت فى (شامبيرى) ـ مصحوبا بنقود ، كى ألحق بها ، الأمر الذى أسرعت الى تحقيقه مسرورا.** ومنذ ذلك الحين حتى اليوم ، كثيرا ما أوشكت مواردى المالية على النفاد ، ولكنها لم تذهب فى نضوبها قط الى الدرجة التى اضطررت معها الى الصوم . وانى لأذكر تلك الفترة من حياتى بقلب شديد الشعور بالعناية الالهية ، فلقد كانت تلك آخر مرة فى حياتى أشعر فيها بالتعاسة والجوع !

ولقد مكثت فى (ليون) سبعة أيام أخرى أو ثمانية، فى انتظار بعض مهام كانت «ماما» قد عهدت بها الى الآنسة «دى شاتيليه» .

وفى اثناء هذه الفترة كنت أكثر مثابرة على زيارة الآنسة من ذى قبل ، فرحت أنعم بالحديث اليها عن صديقتها ، ولم أعد مثقل البال الا بتلك الأفكار القاسية التى كانت تعاودنى عن مركزى ، والا بمحاولة اخفاء هذا المركز . **ولم تكن الآنسة «دى شاتيليه» بالشابة ، ولا بالجميلة ، ولكنها لم تكن تفتقر الى الملاحة ، وكانت رقيقة الأعطاف، ودودة ، كما كان ذكاؤها يضفى بهاء على هذا الود . ولقد اوتيت ذلك الشغف بالتأمل الخلقى الذى يقود الى دراسة الشخصيات ، واليها أدين بأول حافز أصلى دفعنى الى هذا الاتجاه .** وكانت مشغوفة بقصص «ليساج» ، لاسيما قصة « جيل بلا » التى حدثتنى عنها وأعارتنيها ، فقرأتها فى استمتاع ، ولكنى لم اكن قد نضجت بعد بحيث افقه هذا النوع من القراءة، اذ كنت انشد القصص الحافلة بالأحاسيس الرفيعة . وهكذا قضيت وقتى الى جوار مدفأة الآنسة « دى شاتيليه » فى استمتاع وانتفاع ، ومن المحقق ان الأحاديث الطريفة ذات الطابع الفكرى — التى تصدر عن امرأة موهوبة — أصلح لتكوين الشاب من كل ما فى الكتب من فلسفة متحذلقة ! .. ولقد تعرفت — بين المقيمين فى (شاسوت) واصدقائهم — الى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها، تدعى الآنسة «سير» ، لم أبد لها اذ ذاك اهتماما عظيما ، ولكنى شغفت بها حبا بعد ذلك بثمانى أو تسع سنوات .. وكنت على حق فى تدلهى بها ، فقد كانت فتاة ساحرة (١)

وفى غمرة انشغالى بتوقع رؤية «ماما» الطيبة — عما قريب — اهملت أوهامى قليلا ، اذ عوضتنى الهناءة الحقيقية التى كانت فى انتظارى ، عن السعى وراء الخيالات . . فانى لم اعثر على «ماما» مرة أخرى فحسب، وانما وجدت فى قربها، وبوساطتها، ظرفا مواتيا ، اذ اشارت فى رسالتها الى انها عثرت لى على عمل كانت تأمل ان يروق لى ، كما انه لم يكن ليقصينى عنها. ولقد

(١) سيرد ذكرها فى القسم الخاص بسنة ١٧٤١ من الكراسة السابعة .

ارهقت حدسى فى التكهن بنوع ذلك العمل ، بيد انه كان لابد للمرء من ان يصبح نبيا حتى يصيب الحدس ! .. وكان لدى من المال ما يكفى لأن أقوم برحلة مريحة . وقد رغبت الآنسة « دى شاتيليه » فى ان استأجر جوادا، ولكنى لم اكن املك ان اوافقها ، وكنت على حق . ولولا ذلك لفقدت متعة آخر رحلة على الأقدام فى حياتى ـ فلست أستطيع ان أصف النزهات التى كثيرا ما كنت أقوم بها فى الضواحى المجاورة أثناء اقامتى فى (موتيير) ، بأنها رحلات على الأقدام !

ومن الأمور العجيبة ان خيالى لا يحلق قط راضيا الا عندما تكون حالى غير مرضية ، كما انه ـ من ناحية اخرى ـ يغدو أقل ما يكون ابتساما عندما يبتسم كل ما حولى!.. فان رأسى النكد لا يستطيع ان يتكيف مع الأشياء ، فهو لايقنع بتجميل الأمور ، وانما يصبو الى الخلق والابتداع .. كما ان الأشياء الحقيقية لاتبدو له الا كما هى فى الواقع، فهو انما يجيد تنميق الأشياء الخيالية فحسب . **وعلى هذا القياس ، لا بد لى من ان أكون فى الشتاء ، اذا شئت أن أصور الربيع ! واذا رغبت فى وصف جمال مناظر الطبيعة ، وجب ان اكون داخل الجدران .. ولقد قلت مائة مرة انه لو كان قد قدر لى يوما ان ألقى فى غياهب (الباستيل) ، لكنت قد رسمت أبدع صورة للحرية !**

وعندما بارحت (ليون) ، لم أكن أرى أمامى سوى مستقبل باسم .. ولقد كنت سعيدا ، وكان لى الحق فى ذلك ، بعد ان حرمت هذه السعادة وانا أغادر باريس . . ومع ذلك فانى لم انعم خلال هذه الرحلة بتلك الخواطر البهيجة التى كانت ترافقنى فى الرحلة الأخرى . كان قلبى جذلا، ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر . ورحت أقترب فى اشتياق نحو تلك الصديقة الرائعة التى كنت اسعى لرؤيتها من جديد ، وأتذوق مقدما حلاوة العيش بالقرب منها ، ولكن فى غير نشوة سكرى ، اذ كنت دواما اتوقع ذلك ، فكأنما لم يكن فيما انا مقبل عليه شىء جديد !..

ولقد خامرنى القلق بصدد ما كنت مقدما على عمله، وكأنما كان فى ذلك ما يدعو الى الاشفاق.. وكانت افكارى ساكنة وادعة، وليست «سماوية»، تسلب الروح والعقل. وكانت الأشياء المادية تجتذب نظرى، فكنت أولى مناظر الطبيعة اهتمامى.. كنت ألاحظ الاشجار والدور والجداول، وأحدث نفسى عند ملتقيات الطرق، فقد كنت فى خوف من أن أضل، ولكنى لم اضل على الاطلاق.. وبايجاز: لم أعد أحلق بين السحب، وانما كنت دائما حيث كنت.. فلم أبعد قط عن الواقع!

وأنا فى الحديث عن رحلاتى، تماما كما أنا فى أدائها، لا اتعجل بلوغ غايتى.. **وهكذا كان قلبى يخفق طربا وانا اقترب من «ماما» العزيزة، ولكنى لم أغذ السير اليها، فاننى أحب السير كما يروق لى، ولا اتوقف الا حين يحلو لى.. فحياة التجوال هى التى تلائمنى، والسفر على الاقدام، فى وقت بديع، وفى بلد جميل، دون ما تعجل، ونحو غاية مرغوبة، هو أكثر أساليب العيش طرا ملاءمة لذوقى!** وفيما عدا ذلك، فان ما أعنيه «بالبلد الجميل» أصبح معروفا: فما من بلاد مبسوطة الأديم بدت لعينى جميلة، مهما يكن جمالها.. بل لا بد لى من سيول، وصخور، وأشجار صنوبر، وغابات سوداء، وجبال، وطرق منحدرة اتسلقها أو أهبطها، ومهاوى من حولى تثير رعبى! ولقد اتيحت لى هذه المتعة، واستمرأتها فى أروع سحرها، وأنا اقترب من (شامبيرى).. فغير بعيد من جبل شديد الانحدار ــ يسمى (با دى لاشيل) ــ كان ثمة نهير يجرى تحت طريق واسعة منحوتة فى الصخر، عند البقعة المسماة (شايى). وكان نهيرا قصيرا، يندفع جامحا عبر مهاوى سحيقة بدا انه حفرها خلال آلاف السنين.. وكان ثمة سياج على حافة الطريق لتفادى النكبات، مما مكننى من ان أطل على الاعماق، وان أحظى بالدوار وفق هواى!.. **ذلك لأن من الامور الطريفة فى مزاجى اننى اميل الى الاماكن السحيقة الانخفاض،**

التى يدور لها رأسى ، واننى أحب هذا الدوار كثيرا ما دمت مطمئنا الى سلامتى . . ومن ثم انحنيت فى أطمئنان فوق السياج ، ومددت أنفى فى الفضاء، وظللت هكذا ساعات طويلة، أتأمل - بين وقت وآخر - الزبد والماء الازرق الذى كنت اسمع هديره وسط صراخ الغربان وصيحات الطيور الجارحة التى كانت تحلق من صخرة الى صخرة ، ومن دغل الى دغل ، على بعد مائة فرسخ تحتى .. وفى البقاع التى كانت الأرض تنبسط عندها فى انحدار شديد ، حيث لم تكن الاشجار من الكثافة بحيث تحول دون مروق الحصى ، رحت أجمع أكبر ما استطعت حمله من الاحجار ، ووضعتها على السياج ، ثم أخذت اطوح بها واحدة بعد أخرى ، مستعذبا رؤيتها وهى تمرق ، ثم ترتطم فتتهشم الى ألف قطعة ، قبل ان تبلغ قاع الهاوية !

واذ ازددت قربا من (شامبيرى) ، رأيت منظرا مشابها ، ولكنه من نوع مخالف : كانت الطريق تمتد عند اقدام صخرة كانت ابدع مسقط مائى شهدته فى حياتى . وكان الجبل منحدرا الى درجة تجعل الماء يندفع فى الفضاء، ثم يهبط بعيدا فى قوس كبير ، بحيث يستطيع المرء ان يمر بين الماء والصخرة دون ان يبتل احيانا ! ولكن كان من السهل ان يخدع الانسان اذا لم يكن حذرا فى حسابه . ذلك لأن الماء - عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق - ينشق ويسقط فى رشاش . . فاذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ ، اخضل بالماء فى لحظة ، دون ان يفطن - فى بادىء الأمر - الى انه قد ابتل !

* * *

• **ووصلت** أخيرا .. ورأيتهامن جديد! .. ولم تكن وحيدة، فقد كان المدير العام للاقليم لديها فى اللحظة التى دخلت فيها عليها . وبدون ان اتكلم ، تناولت يدى وقدمتنى اليه بذلك

اللطف الذى كان يفتح لها كل القلوب : « ها هو ياسيدى هذا الشاب المسكين ، فتكرم برعايته طالما استحق الرعاية ، ولن اشعر بعد ذلك بقلق من أجله ، بقية حياته ! » . . ثم وجهت الى الخطاب قائلة : « انك الآن يابنى فى خدمة الملك . . اشكر السيد المدير ، اذ هيأ لك أسباب العيش ! » . . **وفتحت عينى الواسعتين دون ان أقول شيئا ، ودون أن ادرى فيم ينبغى ان أفكر ، اذ ان طموحى المطرد النمو أدار رأسى ، فتصورت نفسى اللتو مديرا صغيرا ! . . ومن المؤكد ان حظى لم يرق الى التألق الذى أوحت به الى خيالى هذه البداية ، بيد انه كان يكفينى اذ ذاك ان أعيش فحسب، وقد كان ما دبر لى اكثر مما رجوت** . . وهاكم جلية الأمر :

خطر للملك « فيكتور اماديه » — على ضوء الحروب السابقة ، وحالة الميراث الذى آل اليه عن آبائه — ان هذا الميراث لن يلبث أن يفلت منه يوما ، ومن ثم فقد سعى الى استنزاف موارده . ولما كان قد قرر — قبل ذلك بسنوات قلائل — ان يخضع الاشراف لضريبة العشور ، فانه أمر باجراء تقدير عام لجميع الاراضى ، لتعيين مساحتها وقيمتها ، ليتسنى بعد ذلك فرض الضريبة العقارية ، واعادة تنسيقها بمزيد من المساواة . وكان هذا العمل قد بدأ فى عهد الأب ، واستؤنف فى عهد الابن . . واستخدم لهذه المهمة مائتان او ثلاثمائة شخص ممن يتولون مسح الأرض — وكانوا يدعون مهندسين — ومن الكتاب الذين اطلق عليهم لقب السكرتيرين . وقد حصلت لى « ماما » على منصب بين هؤلاء الأخيرين . ومع ان المنصب لم يكن عظيم المورد ، الا انه كان يدر ما يكفى للعيش عن سعة فى تلك المنطقة . وكان السىء فى الأمر ان هذا التعيين كان مؤقتا ، ولكنه جعلنى فى وضع يمكننى من البحث عن منصب أفضل وارتقاب الحصول عليه . وكان من بصيرة «ماما» ان تعمدت الظفر لى برعاية

خاصة من المدير ، حتى أتمكن من الانتقال الى منصب أرسخ مكانة ، اذا ما حانت نهاية عملي فى المنصب الأول

ودخلت الخدمة عقب وصولى بأيام قلائل . ولم يكن فى هذا العمل شيء من العناء ، فسرعان ما خبرته . وهكذا قدر لي للمرة الأولى — بعد أربع أو خمس سنوات قضيتها فى التجوال، والطيش ، والعذاب ، منذ بارحت (جنيف) — ان ابدأ فى كسب عيشي بعمل مشرف !

ولقد تبدو هذه التفصيلات المسهبة عن باكورة صباى ، أمورا صبيانية .. ولكننى غير مستاء لذلك ، فعلى الرغم من اننى ولدت رجلا — لاعتبارات معينة — الا اننى ظللت طفلا لأمد طويل ، ولا أزال كذلك لاعتبارات كثيرة أخرى .. وأنا لم أعد بأن أقدم للرأى العام شخصية عظيمة ، وانما وعدت بأن أصف تلك الشخصية التى أوتيتها . ولا بد — لكى تعرفونى فى كبرى — من ان تلموا الماما كافيا بصباى ، ذلك لان الاشياء المادية — بوجه عام — اقل انطباعا فى نفسى من ذكرياتها ، كما ان جميع افكارى تتخذ شكل صور خيالية .. فى حين ان الأحداث الأولى التى طبعت نفسها على صفحة ذهنى ظلت باقية، ولم تملك الأحداث التى انطبعت بعدها سوى ان تندمج فيها، بدلا من ان تطغى عليها !.. وهناك مجموعة متعاقبة من العواطف والآراء التى تطغى على كل ما يأتى بعدها من عواطف وافكار ، ولا بد من التعرف على الأولى لكى يتسنى الحكم على الأخيرة . وقد اعتدت — فى جميع الاحوال — ان اعنى بالأسباب الأولى ، حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوسا . . وانى لأرجو ان أستطيع — الى حد ما — ان اعرض نفسى شفافة أمام عينى القارىء ، ومن أجل هذا أسعى الى ان اطلعه عليها تحت جميع الأضواء ، وان أعرضها من جميع النواحى ، وان استيقن من انه لن تغيب عن ملاحظته اية حركة من حركاتها ، حتى يكون قادرا فى النهاية على ان يحكم بنفسه على المبادىء

التى انتهجتها

وإذا كنت ألقى على نفسي مسئولية النتيجة، وأقول للقارىء: ((هذه هي شخصيتى)) ، فقد يخيل اليه اننى اذا لم أكن أخدعه هو ، فاننى — على الأقل — أخدع نفسى . اما عندما اكتفى بتفصيل كل ما جرى لى ، وكل ما فعلت ، وكل ما خطر ببالى، وكل ما خالجنى من مشاعر ، فاننى لا استطيع ان اغرر به — بمحض رغبتى على الاقل — بل اننى لو اردت لما وجدت الأمر سهلا .. ومن ثم فاننى أترك له عبء تجميع هذه العناصر ، وتقرير نوع المخلوق الذى تؤلفه ، اذ يجب ان تكون النتيجة من صنعه هو ، حتى اذا اخطأ بعد ذلك ، كان الخطأ كله من ذنبه . على انه لايكفى — من اجل هذه الغاية — ان تكون قصصى صادقة ، وانما يجب كذلك ان تكون دقيقة . وليس لى ان أحكم على اهمية الوقائع، وانما يقتضينى الواجب ان أرويها جميعا، ثم أترك له مهمة فرزها . وهذا ما حرصت عليه — حتى الآن — بكل ما أوتيت من شجاعة ، ولن أحيد عنه فيما يلى . غير ان ذكريات أوسط العمر، تكون دائما أقل تألقا من ذكريات باكورة الصبا. ولقد بدأت بأن اقتبست عن هذه أفضل قسط استطعت اقتباسه . فاذا واتتنى الذكريات الأخرى بنفس الوضوح ، فان القراء الذين ملوا الأولى ، ربما ازدادوا مللا .. اما انا — بالذات — فلن اكون مستاء من عملى ، وليس لدى ما اخشاه فى هذا المشروع سوى امر واحد : وليس هذا الأمر هو الاسراف فى القول ، او سرد الاكاذيب ، وانما هو ان لا اقول كل شىء ، او ان اخفى الحقائق !

الكراسة الخامسة

(من سنة ١٧٣٢ الى ١٧٣٦)

• **كان** ذلك فى سنة ١٧٣٢ ـ على ما يبدو لى ـ اذ وصلت الى (شامبيرى) ، كما ذكرت ، وبدأت عملى فى مسح الأرض ، فى خدمة الملك . وكنت قد تجاوزت عامى العشرين ، ودنوت من الحادى والعشرين . وكنت ـ من الناحية العقلية ـ وافى التكوين بالنسبة لسنى ، ولكن المقدرة على الحكم على الأمور لم تكن متوفرة لى ، بل كنت فى مسيس الحاجة الى الأيدى التى وقعت بينها، لأتعلم كيف أتصرف. ذلك لأن سنوات التجارب القليلة لم تقو على ان تبرئنى تماما من خيالاتى الشاعرية . وعلى الرغم من كل البأساء التى عانيتها ، فاننى لم اعرف عن الدنيا والناس الا القليل ، وكأنى لم ادفع ثمن المعرفة !

وأقمت فى دارى ، اعنى فى دار «ماما» ، ولكنى لم أسترد قط الغرفة التى كانت لى فى (أنيسى) ، **فلم تعد ثمة حديقة ، ولا جدول ، ولا مناظر .. بل كان البيت الذى شغلته معتما كئيبا ، وكانت غرفتى أكثر غرف البيت ظلمة وكآبة : جدار بدلا من مناظر الطبيعة ، وحارة مسدودة بدلا من الشارع ، وقليل من الهواء ، ونزر من ضوء النهار ، ومساحة ضئيلة ، وصراصير ، وفئران ، واخشاب بالية تكسو الأرض .. كل هذه ما كانت لتجعل من الغرفة سكنا بهيجا ، ولكنى كنت فى دارها ـ دار «ماما» ـ وبالقرب منها !** .. ولما كنت بلا انقطاع فى مكتبى أو فى غرفتها ، فانى لم أنتبه كثيرا الى بشاعة غرفتى، اذ لم يكن لدى وقت للتفكير فيها . ولسوف يبدو عجيبا ان تقيم «ماما» فى (شامبيرى) خصيصا لتسكن هذه الدار الوضيعة، ولكنها كانت حيلة ماهرة من جانبها، ينبغى ان لا أغفل ذكرها: فلقد واجهت فكرة الرحيل الى (تورين) وهى كارهة ، اذ كانت

تشعر ــ بعد الثورات التى كانت حديثة العهد ، وبعد القلاقل التى كانت لاتزال تلم بالبلاط ــ ان الوقت لم يكن ملائما لوجودها هناك . فى حين أن شئونهـا كانت تتطلب ظهورها ، اذ كانت تخشى ان تغدو منسية أو ضحية للوشايات، سيما وانها كانت تعلم ان الكونت « دى سان لوران » ــ المدير العـام للمالية ــ لم يكن يميل اليها . وكانت له فى (شامبيرى) دار عتيقة، رديئة البنيان، وفى موقع بلغ من سوئه انها كانت تظل خاوية باستمرار، فاستأجرتها «ماما» واستقرت فيها ! . . **وكان هذا التصرف اكثر توفيقا من الرحيل الى (تورين) ، فلم يقطع معاشها قط، بل أصبح الكونت « دى سان لوران » ــ منذ ذلك الحين ــ من اصدقائها !**

وألفيت ادارة بيتها تقرب مما كانت عليه من قبل ، كما ظل وصيفها الوفى « كلود آنيه » معها دائما .. وهو ــ كما اظننى ذكرت ــ فلاح من (موترو)، اعتاد فى طفولته ان يجمع الاعشاب فى منطقة (جورا) لصناعة الشاى السويسرى ، فألحقته « ماما » بخدمتها من اجل عقاقيرها ، اذ وجدت من الاصوب والأوفر ان يكون خادمها خبيرا بالأعشاب! .. وكان مشغوفا كل الشغف بدراسة النباتات، فحبذت هذا الميل الى درجة ان أصبح الرجل خبيرا نباتيا بحق ، ولولا انه مات فى شبابه ، لكان من المحتمل ان يذيع اسمه فى هذا العلم ، بقدر ما يستحق ان يخلد اسمه بين الشرفاء الأمناء . ولما كان جادا، بل ووقورا، كما اننى كنت اصغره ، فانه غدا منى بمثابة المربى، مما عصمنى من كثير من الحمـاقات ، اذ كان ذا اثر على نفسى ، فلم أكن أجسر على ان أنسى نفسى فى حضرته ! وكان له عين الاثر على نفس سيدته ، التى عرفت حسن ادراكه، واستقامته، وولاءه الذى لايتزعزع نحوها ، فجازته خير الجزاء .. ولقد كان «كلود انيه » ــ بلا مراء ــ رجلا نادرا ، بل انه الوحيد الذى رأيته من نوعه على الاطلاق ! كان متئدا، متزنا، مفكرا ، حكيما فى تصرفاته ، هادئا

فى طباعه ، موجزا مفيدا فى أقواله . **وكان فى عواطفه عنف لم يكن يدعه يظهر البتة .. عنف كان ينهش أحشاءه ، ولكنه لم يدفعه أبدا الى ان يرتكب فى حياته سوى حماقة واحدة ، ولكنها كانت رهيبة .. تلك هى انه سم نفسه ! .. وقد وقع هذا الحادث المحزن عقب وصولى بقليل ، وكان خليقا بأن يطلعنى على مدى المودة الوثيقة التى كانت بين هذا الفتى وسيدته ، اذ اننى ما كنت لأحدسها اطلاقا لو لم تنبئنى بها هى بنفسها !**

.. ويقينا انه اذا كان الولاء ، والتحمس ، والوفاء ، جديرة بجزاء من نوع تلك المودة ، فقد كان «آنيه» اهلا لذلك . والذى يثبت انه كان خليقا به ، انه لم يسىء استغلال ثقة سيدته أبدا ! .. وكان نادرا ما يتشادان ، ودائما تنتهى مشاداتهما على خير . على انه قدر لاحداها ان تنتهى بسوء ، فلقد قالت السيدة لآنيه ــ فى غضبها ــ كلمة مثيرة لم يقو على احتمالها ، وفى تأثره وأساه ، وقعت يده على زجاجة بها خلاصة دهن الأفيون ، فتجرع محتوياتها ، ثم استلقى فى هدوء ، مطمئنا الى انه لن يستيقظ قط ! .. ولحسن الحظ ان مدام دى فاران راحت تجوس خلال دارها ــ وهى قلقة ، منفعلة ــ فعثرت على الزجاجة فارغة ، وحدست الباقى ، فأسرعت لنجدته ، وهى تطلق صرخات اجتذبتنى اليها . . فاعترفت لى بكل شىء ، وناشدتنى المعونة ، ونجحنا بعد كثير من العناء فى حمله على تقيؤ الأفيون . واذ شهدت هذا المنظر ، عجبت لغبائى اذ لم يساورنى قط أتفه ريب فى الصلات التى انبأتنى هى بها ! .. بيد ان كلود آنيه كان من التكتم بحيث ان من يفوقوننى فى جلاء البصيرة كانوا خليقين بأن يغتروا بمظهره ! وكان الصلح بينهما بعد ذلك من نوع جعلنى أتأثر ــ انا نفسى ــ أشد التأثر . ومنذ ذلك الحين أضفت الى التقدير احتراما نحوه ، وأصبحت تلميذا له ، الى حد ما .. الأمر الذى لم أجد فيه عيبا !

* * *

• **على أننى** لم أنج من الألم ، اذ ادركت ان ثمة من استطاع ان يعيش مع « ماما » فى مودة تفوق مودتى كثيرا . بل اننى ما فكرت يوما فى ان اشتهى لنفسى مثل هذه المكانة ، غير انه كان من الشاق على نفسى ان اراها تمتلىء بشخص آخر !.. وكان هذا امرا طبيعيا، **ومع ذلك فاننى بدلامن ان أشعر بنفور من ذاك الذى سلبنى اياها، وجدت ان وفائى للسيدة قد امتد ـ فى الواقع ـ اليه هو الآخر ! فقد كنت راغبا ـ قبل كل شىء ـ فى سعادتها ، وما دام هو ضروريا لهذه السعادة ، فقد ارتضيت ان يكون هو الآخر سعيدا . أما هو ، فانه « غاص » تماما فى وجهات نظر مولاته ، واستشعر صداقة صادقة نحو الصديق الذى اصطفته** . وبدون أن يفرض على السلطة التى كان مركزه يخوله اياها ، فانه مارس ـ بطريقة طبيعية ـ تلك السلطة التى كان ذكاؤه الفائق يتيحها له على ذكائى ، بحيث لم أجرؤ البتة على عمل ما قد يبدو استهجانا له ، كما انه لم يكن يستهجن سوى ما هو سىء . وهكذا عشنا فى وحدة أسعدتنا جميعا ، ولم يكن ليقوى على تقويضها سوى الموت ! . . ومن أدلة روعة شخصية تلك المرأة الحبيبة ، ان كل الذين أحبوها كانوا يتحابون فيما بينهم .. فكانت الغيرة ، بل والتنافس ، يخضعان للشعور المسيطر الذى كانت توحى به السيدة، وهكذا لم ار قط واحدا ممن كانوا يحيطون بها يضمر شرا لآخر ! . . فليكف اولئك الذين يقرأون كتابى لحظة عن مطالعتهم ، عند هذا المديح ، فاذا وجدوا ـ وهم يتأملونه ـ امرأة أخرى يستطيعون ان يقولوا عنها الشىء ذاته ، فليتعلقوا بها ليضمنوا الطمأنينة فى حياتهم . . ولو كانت ـ فيما عدا ذلك ـ آخر الغاويات !

وهنا تبدأ ـ منذ وصولى الى شامبيرى ، حتى رحيلى الى باريس فى سنة ١٧٤١ ـ فترة مداها ثمانى أو تسع سنوات ،

سأرى خلالها من الحوادث التى تستحق الرواية عددا قليلا ، لأن حياتى كانت جد بسيطة وبهيجة . وكانت رتابتها هذه هى عين ما كانت تمس اليه حاجتى لكى استكمل تكوين شخصيتى ، التى حالت القلاقل المستمرة دون استقرارها .

وفى هذه الفترة الغالية ، تماسكت تربيتى ـ المتنوعة ، غير المتتابعة ـ فجعلت منى الشخص الذى لم أكف بعد ذلك عن ان اكونه فى غمار العواصف التى كانت تتربص بى . ولقد كان هذا التطور غير محسوس ، كما كان بطيئا مصحوبا ببضعة احداث جديرة بالذكر .. بل جديرة بالمراعاة والتنمية !

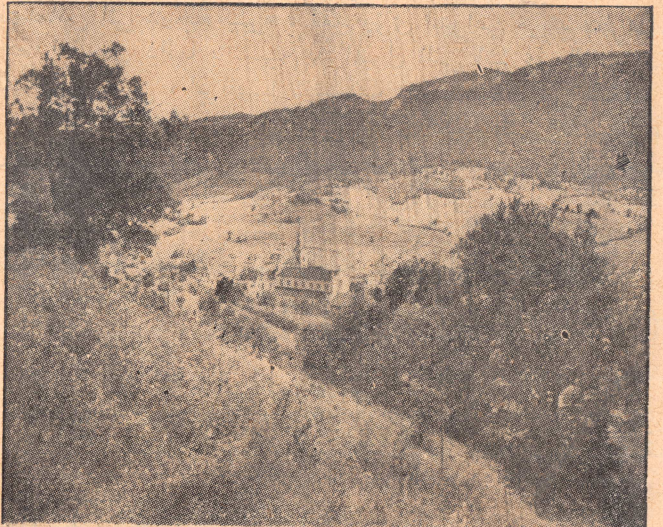
ففى بداية الأمر ، لم أشغل بشىء سوى عملى ، اذ ان قيود المكتب لم تكن تدعنى أفكر فى شىء آخر . وكان الوقت القليل الذى أتحرر فيه ، ينقضى الى جوار «ماما» الطيبة . ولما لم تكن لدى فسحة للقراءة ، فان شغفى بالاطلاع لم يعد يتملكنى . حتى اذا أصبحت واجباتى نوعا من العادة المتواترة ، قل انشغال بالى بها ، فعاودنى التململ والقلق ، واصبحت القراءة ضرورة ـ من جديد ـ وكأنما كان هذا الميل يحتدم كلما عز ارضاؤه ، فكان خليقا بأن يغدو ولعا جنونيا ـ كما حدث عندما كنت فى كنف معلمى (١) ـ لو لم تتدخل بعض نوازع اخرى فتحول اهتمامى عنه

ومع ان عملياتنا لم تكن تتطلب تعمقا فى الحساب ، الا انها كانت تحتاج الى قدر منه كان كافيا لأن يزعجنى فى بعض الأحيان . ولكى أتغلب على هذه العقبة . ابتعت بعض كتب فى علم الحساب ، واستوعبتها جيدا ، اذ كنت أستذكرها وحدى . وقد تبينت ان الحساب التطبيقى أوسع نطاقا مما يتصور المرء ، اذا ما كانت الدقة منشودة . فثمة عمليات بالغة الطول ، كنت أرى المهندسين يخطئون احيانا فى سياقها . بيد ان التفكير المقترن بالمران يتيح سوانح جلية ، فلا يلبث المرء ان يهتدى

(١) يقصد الحفار الذي قضى فترة عنده يتعلم حرفة النقش على المعادن .

الى اساليب مقتضبة يثير ابتكارها اعتداده بنفسه ، كما ان دقتها ترضى العقل ، وتضفي سحرا على عمل لاينطوى على حمد ولا عرفان . ولقد تعمقت فى هذا الباب تعمقا موفقا الى درجة ان أية معضلة قابلة لان تحل بالارقام وحدها لم تكن تعييني !.. حتى انني الآن ، وقد اخذ كل ما عرفته ينمحى من ذاكرتى يوما بعد يوم ، اجد ان هذه المعرفة التى اكتسبتها لاتزال باقية ـ الى حد ما ـ بعد انصرافى عنها ثلاثين عاما !..

ولقد حدث منذ أيام، وفى خلال رحلة قمت بها الى (دافينبورت)، ان عاونت ابناء مضيفى فى درس الحساب، فكان سرورى يفوق



بين أحضان هذا الوادى الخلاب، عاش « روسو » سنوات من حياته يمارس شعائر «عبادة الطبيعة» !

التصور ، اذ حللت — دون ما خطأ — مسألة من أشد المسائل تعقدا. وكان يخيل الى وانا أسجل الأرقام اننى فى (شامبيرى) من جـديد ، وفى أيام شبابى الهانئـة . فلقد ارتدت الى تلك الأيام ، على بعد الشقة بينى وبينها !

كذلك ولد تلوين خرائط مهندسينا الميل الى الرسم فى نفسى، فابتعت بعض الألوان، وشرعت ارسم الزهور والمناظر الطبيعية. ومما يرثى له اننى اكتشفت انى لم أوت سوى موهبة طفيفة فى هذا الفن الذى كنت أميل اليـه بكل جوارحى ! .. وكنت خليقـا بأن اقضى — بين اقلامى وفرشى — أشهرا بأكملهـا ، دون ان ابرح دارى . واذ أصـبحت هـذه الهواية تسـتأثر باهتمامى الى درجة كبيرة ، فقد رؤى انتزاعى من سيطرتها. وهكذا الحال دائما بالنسبة لكل الميول التى اشرع فى الانصراف اليها بكل نفسى ، اذ انهـا تتضاعف وتستحيـل الى شغف ، فسرعان ما لا أعود أرى فى الدنيا سوى المتعة التى استشعرها فى مزاولتهـا . ولم تبرئنى السن من هـذا العيب ، بل انه لم يتضاءل مع مرور السنين ، حتى اننى لأرانى — وانا اكتب هذا الآن — كمخرف كهل يهيم بدراسة أخرى لا نفع من ورائها ، ولا يفقه فيها شيئا ! .. دراسة يضطر اولئك الذين كرسوا لها حياتهم ابان شبابهم ، الى التخلى عنها فى مثل السن التى اريد ان اشرع فى ممارستها فيها ! (١)

* * *

• **ولقد** كانت هذه الهواية خليقة بأن تبدو أمرا طبيعيا فى ذلك الوقت (٢) ، اذ كانت الفرصة سانحة ، وكان ثمة مايغرينى

---

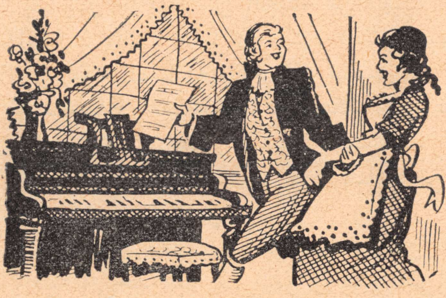
(١) شغف « روسو » — وهو يكتب هذه الكراسة من اعترافاته — بفلاحة البساتين .

(١) يقصد الفترة التى عاش خلالها فى « شامبيرى » مع مدام دى فاران .

بانتهازها . **فان الرضى الذى كنت أشهده فى عينى « آنيـه » وهو يعود الى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلنى — مرتين أو ثلاثا — على وشك ان انصرف الى جمع الاعشـاب معه . واكاد أوقن بأن هذه الهواية كانت قمينـة بأن تستولى على ، لو اننى خرجت معـه مرة ، ولعلنى كنت قد أصبحت اليوم خبيرا كبيرا بالنباتات !** .. فلست اعرف فى الدنيا دراسة اكثر ملاءمة لميولى الطبيعيـة من دراسة النبات ، وما الحيـاة التى اعيشها فى الريف منذ عشر سنوات سوى دراسـة مستمرة للأعشاب ، دون ما هدف — فى الواقع — ودون ما تقـدم .. على اننى لم اكن فى ذلك العهد على بينة بشىء عن علم النبات ، فشعرت بنوع من الازدراء — بل ومن النفور — لهذه الدراسة ، ولم أر فيها سـوى ما يراه كل الجهلة من أنهـا حرفة المهتم بصناعة العقاقير — فان « ماما » ، التى كانت تحبها ، لم تكن تفيد منها الا فى هذه الصناعة ، ولم تكن تبحث الا عن النباتات العـادية ، لتستغلها فى عقـاقيرها — وهكذا كان علم النبـات والـكيمياء والتشريح تختلط فى ذهنى تحت اسم الطب ، ولم تكن تصلح الا لامدادى بفكاهات ساخرة طيلة يومى ، ولتجلب على الصفعات بين وقت وآخر !

والى جانب ذلك ، اخذ ميل آخر مختلف عن هـذا — بل على النقيض منه الى حد كبير — ينمو فى نفسى باطراد ، وسرعان ما ابتلع كل ما عـداه : واعنى بذلك الموسـيقى . ولا بد اننى خلقت لهذا الفن بالتأكيد ، فقد بدأت أحبه منذ باكورة طفولتى ، وهو الوحيد الذى ظللت أحبه باستمرار فى جميع الأوقات . والعجيب فى الامر ان الفن الذى خلقت من اجله ، قـد كبدنى تعلمه — رغم ذلك — عناء كبيرا ، وكان تقدمى فيه من البطء بحيث اننى لم أجرؤ قط على الغناء باعتداد ، بعد كل التدريب الذى مارسته فى حياتى ! .. أما الذى حبب الى هذه الدراسة — فى ذلك الحين بوجـه خاص — فهو اننى كنت استطيع ان

اواصلها مع « ماما » . فمع ان اذواقنـا فى النواحى الأخرى كانت جد مختلفة ، الا ان الموسـيقى كانت ـ بالنسبة لنـا ـ رباطا يجمع بيننا ، فكنت أحب دائما أن أفيد منه . وما كانت « ماما » لتأبى ذلك . بل اننى كنت اذ ذاك أكاد أعادلها تقدما فى هذا الفن ، فكان فى وسعنا بعد محاولتين أو ثلاث ان نحل رموز اى لحن . **وكنت احيـانا اذا ما رأيتها مستغرقة أمام موقد ، أقول لها : ((ماما ، هاك لحنا ساحرا لاثنين ، يبدو لى انه خليق بأن يجعل رائحة عقاقيرك تنم عن احتراقها !)) .. فـكانت تقول لى : ((آه ! .. قسما لأجعلنك تأكلهـا اذا انت شغلتنى عنها حتى تحترق !)) ..وبينما يدور الجدل ، كنت اجرها الى معزفها ، فننسى نفسينا ، حتى تحترق خلاصـة**



الابسنت أو العرعر (١) بالفعل ، فنلطخ ((ماما)) بها وجهى .. وكم كان كل ذلك عذبا !

ومن هذا ترون اننى وان كنت لم اوت من الفراغ الا وقتا قصيرا ، فقـد كان لدى كثير من الامور التى أنفق فيها هـذا الوقت . على انه كان ثمة ـ الى جـانب ذلك ـ ملهاة خليقة بأن تعادل وحدها كل المـلاهى الأخرى ! واليك قصتها : كنا

(١) الابسنت عقار مخدر ، « والعرعر» نبات .

نقيم فى شبه سجن معتم خانق ، حتى اننا كنا بحاجة الى الخروج احيانا لننشد الهواء فى الريف . واغرى آنيه «ماما» بأن تستأجر بستانا فى الضواحى لتربية النباتات . وكان يلحق بهذا البستان بيت ريفى صغير بديع ، جهز بأثاث متواضع ، وأقيم فيه سرير . وكثيرا ما كنا نتناول عشاءنا هناك ، كما كنت أنام فيه أحيانا .. ولقد أولعت ــ دون ان افطن ــ بهذا « المعزل » الصغير ، فحملت اليه قليلا من الكتب وعددا من المطبوعات ، وقضيت شطرا من وقتى فى تزيينه ، وفى اعداد مفاجأة مستحبة لماما اذا ما خرجت للنزهة فى ذلك المكان . وكنت ابتعد عنها احيانا ، لكى أشغل بها بالى ، ولكى افكر فيها بمزيد من الابتهاج . وكانت هذه نزوة اخرى لا يسعنى ان ابررها أو اشرحها ، ولكنى اعترف بها ، لأنها كانت حقيقة . **وانى لأذكر ان مدام دى « لوكسمبورج » حدثتنى مازحة ــ ذات مرة ــ عن رجل اعتاد ان يفارق عشيقته لكى يكتب اليها رسائل ! .. وقد قلت لها انه كان من المحتمل أن أكون ذلك الرجل ــ وكان خليقا بى ان أضيف اننى كنت اتصرف احيانا مثله ! ــ على اننى لم اكن اشعر قط ، وأنا مع «ماما» ، بضرورة الابتعاد عنها كى ازداد حبا لها ، لأننى كنت اذا ما خلوت اليها أشعر بطمأنينة كاملة ، كما لو كنت وحيدا !** ... وهى حال لم استشعرها البتة فى حضور اى امرىء آخر ــ رجلا كان أو امرأة ــ مهما يكن تعلقى به ! .. ولكنها كثيرا ما كانت تحاط بقوم لم اكن انسجم معهم اطلاقا ، فكان ينتابنى شعور من الضيق والملل ، يدفعنى الى ملاذى ذاك (١) ، حيث كان بوسعى ان أهنأ بها كما كنت ابتغيها ، دون ان اخشى ان يتعقبنى الزائرون الثقلاء !

وعلى هذه الحال ــ التى كان وقتى فيها موزعا بين العمل واللهو والتعلم ــ نعمت بحياة مفعمة بأعذب دعة ! على ان اوربا

(١) يقصد البيت الريفى الملحق بالبستان .

لم تكن فى مثل طمأنينتى ، اذ كانت فرنسا والامبراطور قد اعلنا الحرب لتوهما ، وساهم ملك (سردينيا) فى النزاع ، فأخذ الجيش الفرنسي يتقدم عبر (بييمونت) ليغزو اراضى ميلان . ومرت فرقة منه خلال (شامبيرى) ، كان بين كتائبها كتيبة (شامبانى) ، التى كان قائدها الدوق دى « لاترموبى » . وقد قدمت اليه ، فكان مسرفا فى وعوده ــ وانى لموقن من انه لم يتذكرنى البتة بعد ذلك ! ــ وكان بستاننا الصغير يقوم فى اقصى طرف الضاحية التى دخلها الجند ، ومن ثم فقد كان بوسعى ان انعم تماما بمتعة مشاهدتهم وهم يمرون ، **وكنت من التحمس لنجاح هذه الحرب ، كما لو كانت لى مصالح عظيمة مهددة بها ! .. ولم يكن قد جال بخاطرى حتى ذلك الحين ان افكر فى المسائل العامة ، فبدأت اقرأ الصحف للمرة الأولى ، ولكن .. فى تحيز لفرنسا (١) كان يجعل قلبى يخفق طربا كلما أحرزت أقل نجاح ، بينما كانت اخفاقاتها تحزننى وكأنها قد ألمت بى أنا !** .. ولو ان هذه الحماقة كانت عابرة ، لما وجدتها جديرة بأن أتحدث عنها ، ولكنها تغلغلت فى فؤادى دون ما سبب كاف ، حتى اننى حين قمت ــ فى باريس ــ بدور عدو الطغاة المعتز بدعوته ، شعرت ، رغما عن نفسى ، بميل خفى الى هذه الأمة التى وجدتها راسفة فى الذلة ، والى الحكومة التى كنت اتظاهر بالنقمة عليها . والطريف فى الامر اننى ، لخجلى من شعور يناقض مبادئى ، لم أجسر على أن افضى به لأى امرىء ، ورحت اسخر من الفرنسيين فى هزائمهم ، بينما كان قلبى يدمى من اجلهم ، اكثر مما كانت تدمى قلوبهم هم ! ومن المؤكد اننى الرجل الوحيد الذى يعيش بين قوم أحسنوا معاملته وهام بحبهم ، ولكنه مع ذلك يظهر نحوهم ، وهو بينهم ، روح الازدراء ! وهذا الميل من ناحيتى مجرد من

(١) لم يكن روسو يعتبر فرنسا وطنه ، فقد كان من رعايا (جنيف) بسويسرا .

الهوى ، وهو من القوة ، والبقاء ، والمناعة بحيث انني لم استطع ان ابرىء نفسي من هذا الضعف ، حتى بعد رحيلي عن فرنسا ، عقب العاصفة التي تبارت حكومتها وحكامها وكتابها في اثارتها ضدي ، ومذ أصبح العرف المألوف هو اغراقي بما لا استحق من سباب ! .. نعم ، انني احبهم رغم نفسي ، ورغم سوء معاملتهم اياي !

ولقد سعيت طويلا الى تبين سبب هذا التحيز ، فعجزت عن العثور عليه ، اللهم الا في عين المناسبة التي أوجدته : فان الميل المطرد الى الأدب اولاني شغفا بالكتب الفرنسية ومؤلفيها وبلاد هؤلاء المؤلفين . وفي الوقت الذي مر فيه الجيش الفرنسي بشامبيري ، كنت اقرأ كتاب « برانتوم » المسمى « القادة العظام » ، فكان رأسي مليئا بأمثال كليسون ، وبايار ، ولوتريك ، وكوليني ، ومونمورنسي ، وتريموييي ، وكنت أحب ذرياتهم بوصفهم ورثة فضائلهم وبسالتهم . ورحت اخال انني المح في كل كتيبة مرت تلك العصابات السوداء الشهيرة ، التي احرزت تلك البطولات ، من قبل ، في (بييمونت) . **وموجز القول انني ربطت ما كنت اراه ، بالأفكار التي كنت اقتبسها عن الكتب . وراحت مطالعاتي الدائبة ــ وكانت لا تزال مقصورة على مؤلفات الادباء الفرنسيين ــ تغذي حبي لبلادهم ، ثم حولت هذا الحب في النهاية الى شغف أعمى لم يقو شيء على التغلب عليه !** ولقد سنحت لي ــ فيما بعد ــ الفرصة كي ألاحظ في سياق رحلاتي ان هذا الاثر لم يكن قاصرا علي بالذات ، وانما كان يتعداني ــ بدرجة متفاوتة ــ الى افراد من جميع البلدان ، وهم ذلك القسم من الامة الذي يحب القراءة ويقبل على الادب ، فكان هذا الشغف يرجح على النفور العام الذي توحي به عجرفة اخلاق الفرنسيين ! .. **والملاحظ في هذا الصدد ان قصص ادبائهم أكثر استيلاء من رجالهم على قلوب النساء في جميع البلدان ..** كما ان تحفهم التمثيلية تجتذب

الشباب الى مسارحهم ، فان شهرة مسارح باريس تجذب اليها زرافات من الأجانب ، الذين يعودون الى اوطانهم وهم من اشد المعجبين المتحمسين لها ! .. وبالاختصار أقول ان الذوق الرائع الذى يبين فى ادب الفرنسيين ، يسبى عقول كل اولئك الذين اوتوا أى قدر من العقل . **ولقد رأيت خلال تلك الحرب ـ التى انتهت اسوأ نهاية بالنسبة لهم ـ ان مؤلفيهم وفلاسفتهم قد صانوا شرف اسم فرنسا الذى لطخه محاربوها !**

وقد كنت اذ ذاك فرنسيا متحمسا ، نهما الى الأنباء ، فكنت أذهب مع حشد متسقطى الاخبار الى ساحة السوق ، لننتظر البريد . وكنت ـ فى غباء يفوق غباء الحمار فى الأسطورة ـ اشغل نفسى كثيرا بمحاولة معرفة اى سيد سيكون لى شرف حمل سرجه وركابه ، فلقد قيل فى تلك الأثناء اننا سنتبع فرنسا ، وان (سافوا) ستبادل بأراضى (ميلان) . على انه من الواجب الاعتراف بأننى كنت على حق فى قلقى ، فلو ان هذه الحرب انقلبت فى غير صالح الحلفاء ، لتعرض معاش «ماما» لخطر كبير . غير اننى كنت مفعما بالثقة فى اصدقائى الطيبين (١)، ولم تخب هذه الثقة ـ فى هذه المرة ـ بفضل ملك سردينيا ، الذى لم أفكر فيه اذ ذاك !

* * *

• **وبينما** كان الصراع دائرا فى ايطاليا ، كان الغناء دائرا فى فرنسا ! .. فقد بدأت أوبرات « رامو » تحدث ضجة ، وترفع من شأن مؤلفاته النظرية التى كان غموضها قد جعلها فى متناول نفر ضئيل من الناس . ولقد سمعت عفوا عن مؤلفه « رسالة فى التوافق » ، فلم ارتح حتى حصلت على هذا الكتاب . وبمصادفة اخرى ، سقطت مريضا . وكان مرضى نوعا من الالتهاب ، الذى كان عنيفا وقصيرا ، ولكن نقاهتى كانت

(١) يقصد الفرنسيين .

طويلة ، فلم يكن بوسعى الخروج ، لمدة شهر . وفى خلال هذه الفترة عكفت على « رسالة فى التوافق» التهمها ، ولكنها كانت طويلة ، محشوة بالاسهاب ، سيئة العرض الى درجة اننى شعرت بأن لا بد لى من وقت طويل كى ادرسها واستوعبها. وأرجأت جهودى ، ورحت أجلو عينى بالموسيقى .ولم تفارق ذهنى اغانى « بيرنييه » ، التى رحت اتدرب عليها . (فقد حفظت منها عن ظهر قلب أربعا أو خمسا ، منها تلك التى كانت تدعى « آلهة الحب النائمة » ، التى لم أسمعها ثانية منذ ذلك الحين ، والتى لاازال احفظها كلها تقريبا .وكذلك « الحب الذى لدغته نحلة »،وهى اغنية جد بديعة من تأليف «كليرامبو» حفظتها فى عين ذلك الوقت تقريبا .)

واستكمالا لشغفى ، وصل من (فال داوست) عازف ارغن شاب يدعى الأب « باليه » ، كان موسيقيا مجيدا ، ورجلا طيبا ، وعازفا يجيد مصاحبة من يغنى . وتعرفت اليه ، فأصبحنا لا نفترق . وكان قد تتلمذ على راهب ايطالى بارع فى العزف على الأرغن ، فحدثنى عن مبادئه فى الموسيقى ،وقارنتها بمبادىء « رامو » ــ الذى كنت اعجب به ــ وملأت رأسى بالعزف الذى يصاحب الغناء ، وبتناسق الانغام وتوافقها . وكان لا بد من أن أشحذ حساسية اذنى لكل هذا ، **فاقترحت على « ماما » اقامة حفلة موسيقية فى كل شهر ، فوافقت . واذا بى استغرق فى تلك الحفلات ، فلم اعد أشغل بشىء آخر ليلا أو نهارا .. والواقع اننى شغلت شطرا كبيرا من وقتى فى تنظيم الموسيقى ، والحفلات الموسيقية ، والادوات ، وتقسيم الأدوار ، وما الى ذلك ! ..** وكانت «ماما» تغنى ، كما ان الأب كاتون ــ الذى سبق ان تحدثت عنه ، والذى سأتحدث عنه مرة أخرى ــ كان يغنى هو الآخر .وكان استاذ للرقص يدعى « روش » يعزف مع ابنه على « الكمان » ، والسيد « كانافا » ــ وهو موسيقى بييمونتى كان موظفا فى المساحة ، وقد تزوج

بعد ذلك واستقر فى باريس - يعزف على الكمان الكبير ، بينما كان الأب « باليه » يصاحبهم على « البيانو » ، كما كان لى شرف قيادة الموسيقى ، دون ان انسى العصا . وفى وسع المرء ان يتصور مدى جمال كل ذلك ! .. ولئن لم تكن هذه الحفلات كتلك التى كانت تقام لدى السيد دى « تريتوران » ، الا انها كانت تقرب منها !

وأثارت الحفلات الموسيقية الصغيرة التى اخذت تقيمها مدام دى فاران - وهى حديثة عهد بالايمان ، وكانت تعيش على بر الملك ، كما كان يقال - تذمر عصبة الأتقياء ، ولكنها كانت ملهاة مستحبة لكثير من الشرفاء . ولكن هل يستطيع احد ان يحدس : من الذى كنت أضعه على رأس تلك المناسبات ؟ .. كان راهبا ، ولكنه راهب موهوب ، بل ومحبوب ، اثرت بلاياه ، فيما بعد ، على نفسى تأثيرا قويا ، ولا تزال ذكراه - التى ارتبطت بذكرى اجمل أيامى - عزيزة لدى . ذلك هو الأب كاتون - احد الرهبان الحبليين (١) - الذى عمل بالاشتراك مع الكونت « دورتان » على مصادرة موسيقى « الهريرة » المسكينة فى (ليون) ، ولم يكن هذا أبدع ما فى حياته . فقد تخرج فى « السوربون » ، وعاش ردحا طويلا فى ارقى الأوساط الباريسية ، وكان ذا حظوة خاصة لدى المركيز « دانترمون » ، الذى كان سفيرا لسردينيا فى ذلك العهد . وكان حسن البنيان ، ممتلىء الجسم ، بارز العينين ، ذا شعر أسود كان يتجعد بطبيعته على جبينه ، وذا اخلاق نبيلة وصريحة ومتواضعة ، فى آن واحد ! .. كان مظهره بسيطا وبديعا ، دون ما شىء من النفاق أو السلاطة التى عرفت عن الرهبان ، ودون ذلك الصلف المألوف لدى نجوم المجتمع ، وان كان واحدا منهم .. لم يكن يبدى سوى اعتداد الرجل الشريف ، الذى يحترم نفسه -

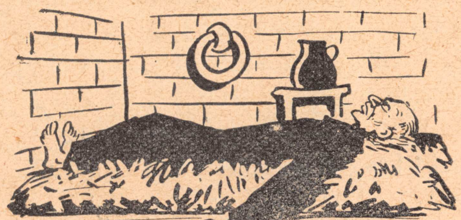
(١) سبق أن شرحنا مذهب الرهبان الحبليين فى الجزء الأول ، ونضيف أنهم من « الفرنسيسكان » .

دون ان يخجل من لباسه ـ ويشعر دائما بأنه فى الوسط المحترم انما يكون فى مكانه الطبيعى . ومع انه لم يكن جد متعلم بالدرجة التى تتفق مع « الدكتوراه » التى كان يحملها ، الا انه كان كامل العدة والاستعداد لأن يكون من رجال المجتمع .. ولم يكن يتلهف على ان يعرض معرفته ، وانما كان يستغلها فى الفرص المناسبة ، حتى لقد كان يظن انه اوتى من المعرفة اكثر مما كان يمتلك! .. ولما كان قد عاش طويلا فى المجتمع الراقى، فانه كان يولى المؤلفات المستحبة من الاهتمام اكثر مما كان يولى العلم الجاف . **وكان حاضر البديهة ، يقرض الشعر ، ويجيد الكلام ، ويحذق الغناء ، وقد وهب صوتا جميلا ، كما كان يعزف على الأرغن و((البيانو)) . وكان هذا اكثر مما يكفى لأن يجعله منشودا ومرغوبا ـ وهكذا كان بالفعل ! ـ بيد ان ذلك كله لم يحمله على ان يهمل واجبات منصبه الا بقدر تافه، فلم يلبث ان اختير ـ رغم غيرة مزاحميه ـ نائبا لرئيس طائفته فى اقليمه . وبمعنى آخر ، كان من ارفع افراد الطائفة شأنا !**

ولقد تعرف الأب « كاتون » الى « ماما » لدى المركيز «دانترمون» . وكان قد سمع عن حفلاتنا الموسيقية فى أحاديث القوم ، فأعرب عن رغبة فى المساهمة فيها . وقد فعل ، فأكسبها بهجة ! وسرعان ما توثق ودنا بفضل ميلنا المشترك للموسيقى ، اذ كان هذا الميل ـ لدى كل منا ـ ولعا متأججا ، وكان كل ما بيننا من فارق هو انه كان موسيقيا موهوبا حقا، فى حين اننى لم اكن سوى متطفل على الفن ! وكنا نذهب فنعزف فى غرفته ، مع « كانافا » والأب « باليه » ، كما كنا نعزف على ارغنه احيانا فى أيام الأعياد . وكثيرا ما كنا نتناول غداءنا على مائدته الصغيرة ، فقد كان ـ وهذا ايضا من دواعى العجب بالنسبة لراهب ـ كريما ، مغداقا ، ذواقة للأطعمة فى غير نهم . **وكان ، فى ايام حفلاتنا ، يتناول عشاءه فى دار ((ماما))، فكانت تلك المآدب كثيرة المرح والسرور ، يقال فيها كل ما يخطر**

بالبال ، وتلقى فيها الاغانى الثنائية .. بينما أسترسل انا على سجيتى ، فأغدق الملح والطرائف . وكان الأب ((كاتون)) يبدو لطيفا ، و ((ماما)) تستــأثر بالاعجاب ، بينما يغـدو الأب باليه هــدفا للضحك ، بصوته الذى يشبه خوار الثور ! .. ايتهـا اللحظات العذبة الحافلة بعبث الشباب ، لكم طال بك البعاد !

وبما اننى لن اعود الى الكلام عن هذا الأب كاتون المسكين ، فانى اوجز هنا قصته المحزنة فى كلمتين : فان الرهبان الاخرين ، الذين كانوا يغارون منه – او بالأحرى يحقدون عليه – اذ رأوا فيه كفاءة وخصالا حميـدة ، ليس فيها من فســاد الرهبان شيئا ، أوسعوه كراهية لأنه لم يكن بغيضا مثلهم ! .. فاجتمع رؤساؤهم عليه ، واوغروا ضده الرهبان الذين كانوا يحسدونه على مركزه ، و الذين لم يكونوا يجرؤون من قبـل على التطلع اليه ، ومناوأته .. فرمى بألف اهانة ، وأقصى عن منصبـه ، وانتزعت منه حجرته التى كان قد أثثها بأناقة وبساطة معا ، وحبسوه حيث لا ادرى .. وأخيرا ، أغرقه أولئك التعســاء بوصمات لم تقو نفسه الشريفة الأبية – بحق – على احتمالها . وبعد ان كان بهجة أظرف المجالس ، مات أسى على فراش حقير (برش) ، فى ركن ما من «زنزانة» أو «جب» ، مأسوفا عليه ومبكيا



من جميع الاشراف الذين عرفوه ، والذين لم يجدوا فيه أى عيب ، سوى انه كان راهبا !

* * *

• وفى سياق هذه المعيشة ، لم البث ان غدوت — بعد أمد وجيز ، غارقا فى الموسيقى . وألفيتنى بعيدا عن التفكير فى أى شىء آخر ، ولم أعد أذهب الى مكتبى الا غصبا ، فقد أصبح الارهاق والجهد الدائب يسببان لى عناء لا يطاق .. وانتهيت اخيرا الى الرغبة فى ترك منصبى ، لأكرس نفسى بأكملها للموسيقى ! وفى وسع المرء ان يتصور ان هذه الحماقة لم تقابل بغير معارضة ، فان ترك منصب شريف ، ودخل ثابت ، للجرى وراء تلاميذ غير مضمونين (١) ، كان نهجا خلوا من الحكمة ، بحيث لم يكن يرضى «ماما» .. بل اننا اذا افترضنا ان توفيقى المقبل بلغ ما كنت اتصوره من ضخامة ، فان ذلك كان يحد من طموحى ويحصره فى نطاق متواضع ، اذ يهبط بى طوال العمر الى مركز الموسيقى (الموسيقار) ! .. **وأخذت تلك المرأة التى لم تكن ترسم سوى أبدع الخطط ، والتى لم تعد تحكم على قط وفقا لرأى السيد « دوبون » ، اخذت ترمقنى فى ألم وانا أشغل جديا بموهبة كانت تراها غير مربحة ، وكثيرا ما كانت تردد لى ذلك المثل الريفى الذى قل ما يصدق فى باريس : « ان الذى يتقن الغناء ويحذق الرقص ، يتخذ لنفسه مهنة قل ان ترفع من قدره » !** .. على انها — من ناحية أخرى — كانت ترانى منساقا لميل لا يقاوم ، فان ولعى بالموسيقى غدا جنونا ، ومن ثم فقد حق لها ان تخشى أن يتأثر عملى من جراء انشغالى ، فيؤدى الى ان احرم من منصبى ، وهو أمر كان من الخير ان أقدم عليه بنفسى (٢) .. ومرة أخرى ، بينت لها ان هذا المنصب لم يكن

(١) كان يعتزم أن يتكسب عيشه من تدريس الموسيقى .
(٢) أى انه كان من الخير أن يستقيل بدلا من ان يقال !

مقدرا له ان يدوم طويلا ، وانه لابد لى من مهنة اكتسب منها عيشى ، وأن السعى الى أن اكتسب بالمران حذقا للفن الذى كان ميلى يدفعنى اليه – والذى اختارته لى هى – اضمن من أن أضع نفسى تحت رحمة من يولوننى حماهم ، أو ان أحاول عملا جديدا قد يجانبنى فيه التوفيق ، وقد يدعنى – فى النهاية – بلا موارد لكسب عيشى ، بعد ان أكون قد تجاوزت سن التعليم ! .. **وانتزعت أخيرا موافقتها ، بالغضب واللجاجة والملاينة ، اكثر منى بالحجج المقنعة ! .. فهرعت لفورى مقدما استقالتى الى السيد كوتشيللى – المدير العام للمساحة – فى زهو وخيلاء ، وكأننى أقدمت على أكثر الأعمال بطولة .. وهكذا تركت منصبى طواعية ،دون ما داع، ولا عذر ، ولامبرر .. بل فى اغتباط يفوق اغتباطى يوم ظفرت به قبل عامين !**

هذه الخطوة – رغم انها كانت حماقة مطلقة – اكسبتنى فى البلاد نوعا من الاعتبار الذى أفادنى . وظن البعض اننى استند الى موارد لم أكن امتلكها ، فى حين ان غيرهم قدروا موهبتى على ضوء تضحيتى – وهم يروننى أنصرف بكل نفسى الى الموسيقى – واعتقدوا ، ازاء كل هذا الولع بالفن ، اننى ولابد على معرفة فائقة به ! .. **ولما كان الأعور ملكا فى مملكة العميان ، فقد أخذنى القوم على أننى أستاذ بارع ، لأنه لم يكن ثمة من المعلمين سوى الرديئين !** .. والى جانب ذلك ، فاننى لم يكن يعوزنى حذق الغناء – الى درجة لا بأس بها – كما كنت مفضلا بسبب سنى وشكلى ، فسرعان ما أصبح لى من التلميذات أكثر مما كان يلزمنى لتعويض مرتبى كموظف كتابى !

ومن المؤكد انه لم يكن بوسع امرىء ان ينتقل – فى سبيل الاستمتاع بالحياة – من امر الى نقيضه ، بأسرع مما انتقلت أنا ! .. ففى المساحة كنت أمارس – ثمانى ساعات فى اليوم – اشد الأعمال كآبة ، مع اناس كانوا هم الآخرون أشد الناس كآبة ، حبيسا فى مكتب مسمم بأنفاس وعرق كل هؤلاء الأجلاف

- نظرا لعجزهم عن الاغراق فى طموحهم - يتبعون نصيحة « سينياس » (١) ، فيكرسون شبابهم للخدمة العسكرية ، ثم يعودون ليقضوا شيخوختهم فى وطنهم بسلام . وبذلك يتقاسم الشرف والحكمة حياتهم . **أما نساؤهم فجميلات ، وجميلات بحق ، اذ انهن يمتلكن جميعا ما يجعل للجمال قيمة ، بل وما يغنى عنه . ومن العجيب اننى - وقد قدر لى بحكم مهنتى ان أرى كثيرا من الشابات - لا أذكر اننى رأيت واحدة فى (شامبيرى) لم تكن فاتنة !** .. قد يقال اننى كنت ميالا لأن أراهن فاتنات ، وربما كان فى هذا بعض الحق ، ولكننى لم أكن بحاجة الى أن أضيف اليهن سحرا من خيالى . والحقيقة اننى لا أملك أن أفكر فى تلميذاتى الشابات دون أن أطرب .. وكيف اذكر هنا أبدعهن حسنا ، دون ان اتمثلهن معى فى تلك الأيام الهانئة التى نعمنا بها ! .. تلك اللحظات البريئة العذبة التى قضيناها معا ؟! .. كانت أولاهن الآنسة « دى ميلاريد » ، جارتى وأخت تلميذ السيد جايم . وكانت سمراء طروب ، مليئة بنشاط ورشاقة ناعمين ، ومجردة من كل نزق . وكانت - كمعظم لداتها - تميل الى النحافة ، ولكن عينيها اللامعتين ، وقوامها الأهيف ، وخلقها الجذاب ، لم تكن فى حاجة الى زينة كى تروق للأبصار . ولقد اعتدت ان اذهب اليها فى الصباح ، فأجدها عادة فى ثياب البيت ، لايزين رأسها سوى شعرها الذى رفعته فى اهمال ، وقد ازدان ببضع زهرات كانت توضع عند وصولى ، ثم ترفع عقب انصرافى ليتسنى تنسيق الشعر ! .. ولست أخشى فى الدنيا أكثر من شابة فى ثياب البيت - وتقل خشيتى هذه مائة مرة اذا كانت الفتاة فى كامل ثيابها ! - أما الآنسة « مانتون » ، التى كنت أذهب اليها بعد الظهيرة ، فكانت

---

(١) كان « سيناس » وزير « بيروس » ملك (ابيروس) - احدى جزر اليونان - وابن « أخيل » الذى قضى على طروادة ووضع خاتمة للحرب الطروادية .

الذين كان معظمهم بالغى القذارة ، مشعثين — حتى اننى كنت اشعر بدوار وغثيان لفرط الانتباه والرائحة والجهد والضيق أحيانا ! **فاذا بى الآن ، بدلا من ذلك ، أجدنى أغوص فجأة فى المجتمع الراقى ، وأصبح مرغوبا ومنشودا فى خير البيوت ، أحظى بالحفاوة والملاطفة والاكرام فى كل مكان ، حيث ترتقب وصولى آنسات لطيفات انيقات ، ليستقبلننى فى تلهف ! .. لا أدرى سوى الأشياء الفاتنة ، ولا اشم سوى الورد وزهر البرتقال ، ولا أحاط الا بالغناء والكلام والضحك واللهو .. ولا أغادر بيتا الا لأجد كل هذا فى بيت آخر !** .. ولسوف يقرنى القارىء على أنه — وقد تساوت الميزات — لم يكن ثمة مجال للتردد فى الاختيار . والحق اننى رضيت عن اختيارى الى درجة اننى لم أستشعر الندم قط .. حتى فى هذه اللحظة ، وانا أزن اعمال حياتى بميزان العقل ، بعد ان تحررت من البواعث النزقة التى كانت تحدونى اذ ذاك !

ولقد كانت هذه هى المرة الوحيدة — تقريبا — التى لم اطع فيها سوى ميولى ، فلم يخب رجائى ! ولقد أدت الحفاوة السلسة ، والروح اللطيفة ، والطباع السهلة التى أوتيها اهل تلك البلاد ، الى جعل اتصالى بالدنيا امرا مستحبا ، وقد كان الميل الذى تملكنى اذذاك نحو هذا كله ، دليلا اثبت لى بجلاء انه اذا كان قد قدر لى أن لا أحب العيش وسط الناس ، فقد كان هذا ذنبهم أكثر مما هو ذنبى !

ومما يؤسف له ان اهل (سافوا) ليسوا اغنياء — او لعله كان أمرا أجدر بالأسف ان يكونوا أغنياء ! — ذلك انهم ، على ماهم عليه ، خير من عرفت من الناس ، وأحسنهم معاشرة . واذا كانت فى الدنيا مدينة صغيرة تتسنى فيها عذوبة الحياة ، فى وسط ملائم ومأمون ، فهذه المدينة هى (شامبيرى) .. فان الأسرات العريقة فى الاقليم ، التى تتجمع فى هذه المدينة ، لم تؤت الا مايكفيها للعيش ، دون ما زيادة .. وهم بحكم الضرورة

دائما فى كامل ثيابها ، وكانت هى الأخرى تحدث فى نفسى أثرا بالغ الرقة ، ولكنه من نوع مختلف . **كان شعرها أشقر مغبر اللون ، وكانت بالغة الظرف ، وبالغة الخجل ، ناصعة البياض ، ذات صوت صاف ، واضح ، موسيقى الرنين ، ولكنها لم تكن تجسر على رفعه . وكانت ثمة ندبة على صدرها خلفها حرق نشأ عن ماء مغلى . ولم يكن الوشاح الحريرى الأزرق ليستر هذه الندبة تماما ، فكانت تجتذب انتباهى ، الذى لم يعد – بعد زمن قصير – ينحصر فى الندبة وحدها !**

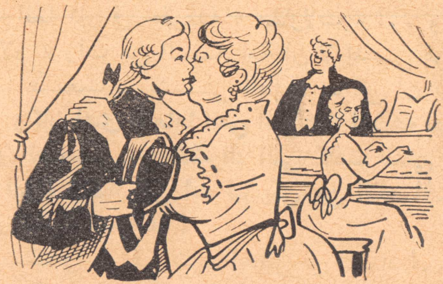
وهناك الآنسة دى « شال » ، التى كانت هى الأخرى من جاراتى . وكانت فتاة ناضجة ، وافية العود ، عريضة المنكبين ، تميل للبدانة . وكانت طيبة جدا . ومع انها لم تكن جميلة ، الا انها جديرة بالذكرى لكرم خلقها ، واعتدال طباعها ، وطيبة سجيتها . اما اختها السيدة « دى شارلى » – اجمل امرأة فى شامبيرى – فكانت قد تجاوزت سن تعلم الموسيقى ، ولكنها اتاحت التعلم لابنتها التى كانت لا تزال صغيرة ، والتى كان جمالها الناشىء يوحى بأنه سيضارع جمال أمها ، لولا انها – لسوء الحظ – كانت ذات شعر ضارب الى الحمرة . وكانت لى فى « دير الزيارة » آنسة فرنسية صغيرة ، (غاب عنى اسمها ولكنها جديرة بأن تحمل مكانا بين الاثيرات لدى) . وكانت قد اكتسبت ما للراهبات من لهجة متئدة ، متراخية .. وبهذه اللهجة المتراخية كانت تلقى ملحا طريفة ، لاتبدو ملائمة لوقارها ! وفيما عدا ذلك ، كانت كسولا ، لا تحب ان تتجشم عناء اظهار ذكائها – اذ كان ذلك صنيعا لا تبيحه لكل امرىء ! – ولم يخطر لها أن تولينى هذا الصنيع الا بعد شهر أو اثنين من التدريس ، فقد شاءت أن تجعلنى اكثر مواظبة على موافاتها ، اذ اننى ما استطعت قط ان احمل نفسى على الدقة فى المواعيد! كنت أحب دروسى أثناء قيامى بالقائها ، ولكنى لم أكن أحب أن اقسر على حضورها ، ولا أن أكون مقيدا بموعد .. **فقد كان**

التنفيذ والانصياع أمرين لا أطيقهما ، بحيث كانا يحملانني على أن أكره السرور ذاته !.. ويقال ان فى تركيا ، لدى «المحمديين»، ينطلق فى الطرقات عندما يشرف النهار على الطلوع ، رجل يدعو الأزواج الى أن يؤدوا واجباتهم نحو زوجاتهم . وانى لخليق بأن أكون تركيا غير صالح فى هذا الموعد (١)

كذلك كانت لى تلميذات من الطبقة الوسطى ، ومنهن واحدة كانت سببا غير مباشر فى تحول فى علاقاتى ، أرى أن أتحدث عنــه ، ما دمت ملزما بأن أروى كل شيء . كانت ابنــة بدال (بقال) ، تدعى الآنسة « لار » . وكانت نموذجا كاملا لتمثال اغريقى ، حتى اننى كنت خليقا بأن اصفها بأنها أجمل فتاة رأيتها فى حياتى ، لو قدر للجمال الصادق ان يوجد بلا روح ولا حياة ! .. كان فتورها وبرودها وتجردها من الشعور ،تبلغ فيها درجة لا يصدقها العقل . وكان من المستحيل ارضاؤها ، كما كان من المستحيل اغضابها ، على السواء . **وانى لمقتنــع بأنه لو قدر لامرىء أن يحاول العبث بها ،لتركته يفعل ، لا عن ميل ، وانما عن بلادة !** .. وهكذا كانت أمها ــ التى لم تشأ لها أن تتعرض للخطر ــ لاتفارقها لحظة. ولقد حاولت بغاية جهدها ان توقظ مشاعرها ، اذ اتاحت لها دراسة الغناء ، وجاءت لها بمدرس شاب كى يعلمها .. ولكن دون جدوى .. **وبينما كان المدرس يسعى لفتنة الابنــة ، كانت الأم تسعى لفتنة المدرس ، ولــكن احدهما لم يكن أكثر توفيقا من الآخر !**.. كانت السيدة « لار » تجمع الى نصيبها الطبيعى من الحيوية ، ما كان ينبغى لابنتها أن تحرزه ! كانت امرأة ذات وجه صغير، يقظ ، عابس،تناثرت فيه آثار الجــدرى . وكانت لهــا عينان صغيرتان ، شــديدتا التألق ، يشــوبهما شيء من الاحمرار ــ لانهــا كانت منحرفة الصحة باستمرار ــ وكنت اجد عند وصولى ، فى كل صباح ،

(١) من المفهوم أن هذه فرية من الفريات التى شاعت فى أوربا فى فترة الحروب الصليبية . وقد كان كل مسلم يسمى تركيا .

قهوتى الممزوجة بالقشدة . ولم يفت الأم قط ان تستقبلنى بقبلة تجيد طبعها على الفم ، فكنت - بدافع من الفضول - أتمنى لو اردها الى الابنة ، لأتبين كيف تتلقاها !.. على أن كل هذا كان يتم على صورة من البساطة وعدم التكلف ، بحيث كانت المغازلات والقبلات تأخذ مجراها كالمعتاد ، اذا ما كان السيد



« لار » موجودا !.. وكان رب الاسرة هذا رجلا طيبا ، وأبا حقيقيا لابنته ، فما خدعته زوجته يوما ، لأنها لم تكن بحاجة الى ذلك ! (١)

وكنت اتلقى هذه المغازلات بغبائى المعهود ، مفسرا اياها على أنها امارات للود الصادق ! .. على أننى كنت اتضايق أحيانا ، لأن السيدة « لار » لم تكن تغفل اداءها قط !.. وكنت اذا مررت خلال النهار بالحانوت دون أن أعرج عليه ، يخلق ذلك ضجيجا .. فكنت اضطر حين أكون فى عجلة من امرى الى ان آدور متخذا طريقا أخرى ، لفرط يقينى بصعوبة خروجى من لدن السيدة كما دخلت !

وهكذا كانت السيدة « لار » شديدة الانشغال بى ، بالقياس

(١) يقصد أنها لم تكن بحاجة الى خداعه ، اما لأنها كانت تمارس التقبيل امامه ، واما لأنها كانت تعجز عن اجتذاب الرجال رغم مغازلاتها .

الى عدم اهتمامى بها . ولقد أثرت فى هذه الحفــاوات كثيرا ، حتى أننى تحدثت عنها الى « ماما »، وكأنها امر غير مستغرب. ولو كان فيها ما يستغرب لما كنت أقل حديثا عنها ، فقد كان كتمان اى سر عن هــذه السيدة امرا غير ممــكن . كان قلبى مفتوحا أمامها كما هو مفتوح أمام الله !.. لكنها لم تتلق الأمر بمثل ما تلقيته من بســاطة ، فقد رأت أن ما كنت أعتــبره « مودة » ، انما كان فى حقيقته « مغازلات » !.. وحدست ان السيدة « لار » رأت من الـــكرامة ان لا تدعنى غرا كبيرا كما وجــدتنى ، فسعت ــ بشــتى الطرق ــ الى أن تكشــف لى غايتها ! .. **وكان لدى « ماما »من البواعث اللائقة بها ، ماجعلها ترغب فى أن تعصمنى من الشراك التى كانت سنى وشـــكلى يعرضاننى لها ، فضلا عن انه لم يكن من الانصاف ان تتولى امرأة اخرى تعليم تلميذها !**

.. ثم نصب فى طريقى شرك أخطر من المعتاد !.. ورغم اننى استطعت ان انجو منه ، فان هذا الشرك نبه « ماما » الى ان الاخطار التى كانت تهددنى دون انقطاع ، اصبحت تستوجب كل الاحتياطات التى رأت ان تتخذها !.. ذلك ان السيدة كونته « مانتون » ــ ام احدى تلميذاتى ــ كانت امرأة واسعة الذكاء، عرفت بأنها أوتيت من الخبث مالا يقل عن ذكائها. وقد تسببت ــ كما كان يقال ــ فى كثير من المنازعات ، منها ماكان ذا عواقب مشــئومة على أسرة « دانترمــون » . وكانت « ماما » علــى علاقة بها تكفى لأن تطلعها على اخلاقها ، فقد اولعت « ماما » ــ فى براءة ــ بشخص كانت مدام دى « ما نتون » قــد بنت عليه آمالا ، فاتهمتها بالعدوان على ايثار كان موجها اليهــا، رغم ان « ماما » لم تفعل .. بل انها لم تسع الى هذا الايثار ، ولم تتقبله !.. ولكن منذ ذلك الحين عمدت مدام « مانتون » الى تدبير عدة مكائد لغريمتها ، لم يقدر لأيه مكيدة منهــا ان تنجح. وسأروى واحدة من أكثرها اثارة للضحك ، على سبيل

المثال : فقـــد كانتا مرة فى الريف مع عــدد من الســادة ــ من الجــيران ــ بينهم الشخص المــذكور ، الذى كانت مدام دى « مانتون »تعلق عليه آمالها. و فىأحد الأيام ، قالت هذه لأحد السادة ان مدأم دى فاران لم تكن سوى امرأة متحذلقة ،وانها عديمة الذوق ، لا تحسن ارتداء ثيابهــا ، وتحرص عـلى أن تغطى عنقها كنساء الطبقة الوسطى . فقال السيد ، الذى كان مولعا بالمزاح : **« أما عن هذه النقطة الأخيرة ، فان لديها عذرا ، اذ أننى أعرف أن لديها ندبة كبيرة على شكل الفأر البشــع ، مطبوعه على صدرها ، وهى شديدة الشبه بالفأر، حتى ليقال انها تجرى ! »** . . والحب ــ كالبغضاء ــ يوحى بالتصديق ، لذلك اعتزمت مدام «دى مانتون» ان تستغل هذا الاكتشاف. وفى ذات يوم ، بينمــا كانت «ماما» تلعب الورق مع الشخص الذى جحد ايثار السيدة، اذا بهذه تنتهز الفرصة فتتسلل الى ما وراء غريمتها ،ثم توشك ان تقلب مقعدها لتزيح وشاحها عن عنقها .. **وبدلا من أن يرى السيد فارا كبيرا، رأى شيئا على النقيض تماما ، لم يكن نسيانه بأسهل من مشاهدته!.. وهذا ما لم يكن فى حسبان السيدة !**

. . ورغم انى لم اكن بالشخصيــة التى تشــغل بال مدام « دى مانتون » ، التى لم تكن تبغى حولها سوى اللامعين،فانها اولتنى بعض الاهتمام ، لا من أجل شكلى ــ الذى لم يشغلهــا البتة بالتأكيد ــ وانمــا من اجل ذكائى المزعوم ، الذى كان من المحتمل ان يجعلنى ذا نفع لها .. فلقــد كانت محتدمة الميل للهجــاء ، وكانت تحب نظم الأغانى والأشعــار فى هجو الذين لايروقون لها .. فلو انها وجدت لدى كفاءة كافية لمعاونتها فى نظم أشعارها ، واستعدادا كافيا لكتابتها ، لــكان فى وسعنا ــ فيما بيننا ــ ان نقيم (شامبيرى) ونقعدها !.. وكان فىالوسع طبعا الاهتداء الى مصدر هذه الهجائيات ،واذ ذاك كانتالسيدة «مانتون» كفيلة بأن تتنصل من المسألة بأن تضحى بى، فيلقى

بى فى السجن .. ولعلنى كنت امكث فيه بقية عمرى ، لأننى قمت بدور « فيبوس » (١) مع السيدات !

لكن شيئا من كل هذا لم يحدث ـ لحسن الحظ ـ فقد استبقتنى مدام ((دى مانتون)) مرتين أو ثلاثا للغداء ، لتستدرجنى فى الحديث ، فألفت اننى لم اكن سوى أبله! وكنت ـ أنا نفسى ـ أشعر بذلك ، واتحسر له ، واغبط صديقى ((فينتور)) على مواهبه ، فى حين اننى كنت جديرا بأن أحمد غبائى اذ انقذنى من المخاطر ! وهكذا ظللت ـ بالنسبة لمدام مانتون ـ المدرس الذى يلقن ابنتها الموسيقى ، لا أكثر .. ولكنى عشت فى امان ، وظللت مرغوبا فى (شامبيرى) . وهذا أفضل من ان أكون ذكيا ـ فى نظرها ـ وافعوانا فى نظر بقية القوم !

* * *

• **واذ كان** الأمر على هذه الشاكلة ، فقد رأت « ماما » ـ لانتزاعى من مخاطر شبابى ـ ان الوقت قد حان كى تعاملنى كرجل ، وهذا ما فعلته .. ولكن ، بأغرب طريقة فذة خطرت لامرأة فى ظروف مشابهة : فقد وجدتها اكثر جدية فى مسلكها ، وأكثر أدبا فى قولها ، مما عهدتها . . واستبدلت ـ للفور ـ بالمرح الماجن الذى اعتادت ان تمزجه بتعاليمها ، لهجة متحفظة على الدوام ، لم تكن مألوفة ولا قاسية ، ولكنها كانت تشبه التمهيد لشرح ما !.. وبعد ان بحثت عبثا ، فى اطواء نفسى ، عن سبب لهذا التحول ، سألتها .. وكان هذا ما تنتظره ، فاذا بها تقترح ان نخرج للنزهة فى البستان الصغير فى اليوم التالى ، فذهبنا اليه منذ الصباح . **وكانت قد اتخذت من الاجراءات ما يكفل بقاءنا وحيدين طوال النهار الذى استغلته فى اعدادى للنعم التى شاءت أن تغدقها على .. لا بالمغازلات والاغواء ـ**

---

(١) فيبوس : من أسماء أبوللون اله التنبوءات والطب والشعر والموسيقى عند الرومان .. كما أنه كان اله النهار والشمس ، ومنهما اشتق اسم « فيبوس » . وهو ابن الاله «جوبيتر» رب الأرباب وأبوهم لدى الرومان .

كما تفعل أية امرأة أخرى ـ وانما بأحاديث مفعمـة بالعاطفة والحكمة، قصدت بها الى تعليمى اكثر مما قصدت الى اغوائى، وكانت تنفذ الى قلبى أكثر مما تنفـذ الى حسى ! ومع ما كانت عليه هذه الأحاديث من بهـاء ونفع ، وبالرغم من انهـا لم تكن سوى أحاديث فاترة حزينـة ، الا اننى لم اولهـا كل ما كانت تستحق من انتباه ، ولا نقشتها على ذاكرتى كما فعلت فى كافة الاوقات الاخرى .. بل ان استهلالها ـ ذلك المسلك التمهيدى ـ بلبل فـكرى ، فجعلنى أحلم واشرد ـ بالـرغم منى ـ وهى تتكلم .. وغدوت اقل اهتماما بما كانت تقوله ، منى بالبحث عما كانت تبغى الوصول اليه !.. وما ان فهمت ـ وهو ما لم يكن بالسهل على ـ طرافة الفكرة التى لم تجل أبدا بخاطرى ، طيلة الوقت الذى عشته معها ، حتى تملكتنى الفكرة تمـاما ، فلم أعد قادرا على التفكير فيما كانت تقوله لى «ماما» .. لم اعد افكر الا فيها هى وحدها ، دون ان انصت اليها !

ان الرغبة فى حمل الشباب على الاصغاء لما يراد قوله لهم ، باطلاعهم مقدما على غاية جد مشوقة لهم ، اسلوب معكوس ، وان كان جـد مألوف لدى المعلمين ، حتى لقـد عجزت ـ انا نفسى ـ عن تحاشيه فى كتابى «اميل» . فان الشاب اذ يؤخذ بالغاية التى يوعد بها ، يشغل بها وحدها ، ويتخطى فى تسرع أحاديثك التمهيدية ، ليصل مسرعا منذ البداية الى الغاية التى تسعى به اليها فى بطء بالغ ـ حسبما يرى هو ـ أما اذا اريد الاستحواذ على انتباهه ، فيجب الا يمكن من ان ينفذ الى الغاية مقدما ، وهذا ما أساءت «ماما» تقديره . فبطريقة فذة تتمشى مع عقلها المنسق المنتظم ، عمدت الى احتياط لا طائل منه قط ، اذ فرضت شروطا . **ولكنى لم أكد اتبين جزاء هذه الشروط ، حتى انصرفت عن سماعها ، وبادرت الى الموافقة على كل شىء .. بل اننى لأشك فى وجود رجل فى الدنيا يقوى ـ مهما تكن امانته وجلده ـ على المساومة فى مثل هذه الحال ، وفى وجود**

امرأة واحدة تقبل ان تغفر له ذلك اذا فعله ! . . وكنتيجة لطريقتها الفريدة ، وضعت «ماما» فى هذا الاتفاق أشد قيود أدبية ، ومنحتنى ثمانية ايام أفكر خلالها .. وهى مهلة أكدت لها – كذبا وزورا – اننى لم اكن بحاجة اليها . فالواقع انه مما زاد من غرابة الموضوع ، وبلغ بها ذروتها ، اننى كنت جد مغتبط بتقبل هذا المشروع ، بقدر ما اذهلتنى طرافته ، وبقدر ما شعرت بانقلاب فى افكارى ، كان يتطلب منى وقتا لتنظيمها!

ولقد يخال ان هذه الأيام الثمانية بدت لى كثمانية قرون ، ولكن الأمر كان على النقيض ، فلقد تمنيت لو انها امتدت فعلا الى هذا الأجل !.. ولست أدرى كيف اصف حالى ، فقد كانت لونا من الجزع الممتزج بنفاد الصبر ، اذ كنت خلالها جزعا مما كنت اتوق اليه ، الى درجة اننى فكرت جديا – فى بعض الاوقات – فى وسيلة مهذبة لتفادى الهناء الموعود !.. **وتصور طباعى المتهورة النزقة ، ودمى الفائر ، وقلبى المنتشى بالحب ، وصحتى الموفورة ، وسنى !.. وتذكر اننى فى هذه الحال ، وفى ظمأى الى النساء، لم اكن قدمسست بعد واحدة منهن!.. ومن هنا فان الخيال، والحاجة ، والغرور، والفضول، تجمعت كلها لتذكى فى نفسى رغبة نهمة متأججة فى ان أكون رجلا، وفى ان اثبت اننى رجل !** .. يضاف الى كل ذلك – وهذا أمر يجب ان لايغفل – ان تعلقى الحنون ، المحتدم ، بماما ، كان بعيدا عن التضاؤل ، بل انه راح يزداد اتقادا يوما بعد يوم ، حتى لم أعد أهنأ الا بقربها ، وحتى اننى لم أكن أفارقها الا لأفكر فيها ، وحتى ان قلبى كان مترعا ، لا بطيبتها ولطفها فحسب ، وانما بجنسها ، وشكلها ، وشخصها .. وبايجاز : بها ، بجميع الاعتبارات التى كانت تجعلها عزيزة على ! . . ولا يخطرن بالبال انها كانت قد اكتهلت ، او بدت لى مكتهلة لأننى كنت أصغرها بعشر أو اثنى عشرة سنة ، فالواقع انها لم تتعرض الا لتغيير بسيط ، بل انها – فى نظرى – لم تتغير

البتة خلال السنوات الخمس أو الست التى كنت أغيب فيها فى نوبات من النشوة ، من سحر النظرة الأولى ! .. كانت تبدو لى فاتنة دائما ، وكان كل امرىء يعتبرها كذلك ، فى تلك الآونة .. كل ما هنالك ان قوامها وحده ازداد بدانة ، بعض الشىء . وفيما عدا ذلك ، فانها احتفظت بنفس العين ، ونفس البشرة ، ونفس الصدر ، ونفس الملامح، ونفس الشعر الأشقر الجميل ، ونفس المرح .. وبكل شىء ، حتى صوتها ، ذلك الصوت الشاب ذى الجرس الفضى ، الذى كان له دائما تأثير كبير على نفسى ، حتى اننى لا أستطيع- الى اليوم - ان اسمع رنين صوت عذب لفتاة شابة ، دون ان اتأثر به !

ومن الطبيعى ان الأمر الذى كان لى ان اخشاه خلال انتظار الظفر بامرأة حبيبة كهذه ، هو التعجل وعدم المقدرة على ضبط شهواتى بدرجة كافية ، فأصبح خيالى مسيطرا على . ولسوف ترى ان مجرد التفكير فى بعض الأفضال الطفيفة التى كانت ترتقبنى بالقرب من الحبيبة - فى سن متقدمة - كانت تلهب دمى الى الدرجة التى يستحيل على عندها ان اجتاز دون عناء الفارق القصير الذى كان يفصل بينى وبينها . **فكيف كان يتسنى لى - وانا فى عنفوان الشباب - ان اشعر بشوق قليل الى المتعة الأولى ؟.. وكيف قدر لى ان ارقب ساعة القرب ، بألم اكثر منى بابتهاج ؟ .. كيف حدث اننى شعرت بنفور وخوف تقريبا ، بدلا من ان اشعر بالمباهج التى كانت خليقة بأن تسكرنى ؟** لا شك فى اننى لو كنت قد استطعت الفرار من هنائى - بطريقة مهذبة - لفعلت بكل قلبى .. ولقد وعدت بأن أروى عجائب فى تاريخ تعلقى بها ، وهذه - بلا شك - عجيبة لم تكن متوقعة اطلاقا !

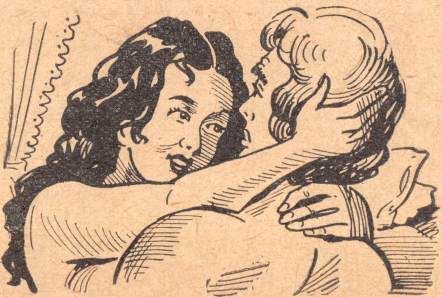
ولا شك ان القارىء يرى - فى استنكار - انها وقد استسلمت لرجل غيرى ، قد حطت من قدرها فى نظرى وهى تشركنى مع هذا الرجل ، وان الشعور بعدم التقدير لها خليق

بأن يكون قد هدأ من سورة تلك المشاعر التى ألهمتنيها . . ولكن القارىء يخطىء فى هذا الظن ، فان هذا الاشراك كان قاسى الايلام لى حقا . . وكان هذا راجعا الى رقة مشاعرى بطبيعتها، بقدر ما كان ناشئا عن اننى وجدت الأمر غير لائق بها ولا بى فى الواقع . **وبوسعى ان اقسم بأننى لم اكن مشغوفا بحبها يوما قدر ما شغفت عند ما كنت قليل الرغبة فى الظفر بها ، فلقد كنت اعرف عن قلبها الطاهر ، ومزاجها الجليدى ما يعصمنى من ان اظن لحظة ان للذة الحسية دخلا فى هذا الاقدام منها على ان تمنحنى نفسها !** . . وانما كنت مقتنعا ـ تمام الاقتناع ـ بأن مجرد الاهتمام بتجنيبى مخاطر لم يكن من سبيل سوى هذا لتفاديها، وبصونى من اجل نفسى وواجباتى فحسب، هو الذى جعلها تأخذ على عاتقها «واجبا» لم تكن تنظر اليه نظرة غيرها من النساء ، كما سأبين فيما بعد . ولقد اشفقت عليها ، كما اشفقت على نفسى ، ووددت لو اقول لها : « لا يا ماما ، لا ضرورة لهذا، سأردع نفسى بدون هذا » . . ولكنى لم أجسر، اولا : لأن هذا لم يكن بالشىء الذى يقال ، وثانيا : لأننى شعرت فى قرارتى بأن هذا غير صحيح ، وانه ليست ثمة سوى امرأة واحدة تملك ـ فى الواقع ـ ان تصوننى عن بقية النساء ، وان تعصمنى من الغوايات . وكنت ـ دون ان اشتهى الظفر بها ـ جد مسرور لأنها كانت تصدنى عن اشتهاء الظفر بالأخريات، الى درجة اننى رحت اعتبر كل ما يشغلنى عنها لونا من النحس والشقاء !

ولقد كانت ألفتنا الوثيقة ، ومعاشرتنا البريئة ، أبعد من ان توهن مشاعرى نحو «ماما» ، بل انها عززتها ، ولكنها ـ فى الوقت ذاته ـ اتجهت بها اتجاها جديدا، فجعلتها اكثر وجدا ، وربما اكثر هياما ، ولكنها كذلك اقل شهوة . **وبحكم مناداتى اياها بماما ، وبحكم معاملتها بألفة الابن ، اعتدت ان اعتبر نفسى بمثابة ابنها ! وأعتقد ان هذا كان السبب الحقيقى فى قلة**

تعجلى للظفر بها ، رغم انها كانت جد حبيبة لدى . وانى لأذكر بجلاء ان احاسيسى الأولى كانت اكثر شهوانية ، دون ان تكون نشيطة متحفزة . فكنت فى (أنيسى) نشوانا ، ولـكننى لم أعد كذلك فى شامبيرى . ومع اننى ظللت أحبهـا دائما بكل وجد ممكن ، الا اننى ازددت حبا لها لذاتها ، كما غدوت أقل حبا لها من اجل نفسى ، او اننى لم أعد ـ على الاقل ـ اسعى الى هنائى بقدر ما كنت أسعى الى استمتاعى بقربها . **كانت ـ بالنسبة لى ـ اكثر من اخت ، واكثر من أم ، واكثر من صديقـة ، بل واكثر من عشيقة ، ولهذا السبب بالذات ، لم تكن عشيقة !.. وبايجاز : كنت احبها الى درجة تجعلنى لا اشتهيها .. وهذا أوضح ما فى آرائى وافكارى !**

وحان اخيرا اليوم الذى كان مرهوبا ، أكثر منه مرغوبا !.. ووعدت بكل شىء ، فلم انكث بوعودى . ولقد عزز قلبى عهودى دون ان يطمع فى جـزاء . ومع ذلك فاننى ظفرت بالجـزاء . ورأيتنى للمرة الأولى فى احضان امرأة ، وامرأة كنت اعبدها ..



أفكنت سعيدا ؟.. لا !.. لقـد تذوقت اللذة ، ولكن شعورا بأسى طاغ سمم سحرها ، فكنت وكأننى ارتكبت جريمـة الزنا مع احدى المحرمات .. **ولقد بللت صدرها بدموعى مرتين أو**

ثلاثا ، وانا أضمها بين ذراعي فى وجـد . . أما هى ، فلم تكن حزينة ولا مرحة ، وانما كانت حنونا وساكنة . ولما كانت على قدر ضئيل من الحس الشهوانى ،ولم تكن تنشد اللذة الحسية قط ، فانها لم تشعر بالمتعة ، ولاعانت الندم اطلاقا !

وانى لأكرر ان كل زلاتها ترتبت على اخطائهـا ، وليس عن شهواتها قط .. كانت طيبة المنبت، وكان قلبها طاهرا،وكانت تحب الأمور الشريفة ، كما كانت كل ميولها مستقيمة صالحة، وذوقها رقيقا.. ولقد نشأت على لطف الشمائل، وهو ماكانت تحبه دائما ، وان لم تتبعه قط ، لأنها بدلا من ان تنصت الى قلبها ــ الذى كان يرشدها الى الصـواب ــ كانت تصغى الى عقلها الذى كان يخطىء فى ارشادها !.. وعندما كانت المبادىء الزائفة تضللها ، كانت المشاعر الصادقة تكذب هـذه المبادىء دائمـا . ولكن ماما كانت ــ لسـوء الحظ ــ تخدع نفسها بالفلسفة ، وقد أدت المبادىء الخلقية التى استمدتها منها، الى افساد المبادىء التى كان قلبها يمليها عليها !

وكان السيد «دى تافيل» ــ عشيقها الأول ــ هو استاذها فى الفلسفة ، وكانت المبـادىء التى لقنهـا اياها هى تلك التى وجدها ضرورية لاغوائها! فلقد وجدها وفيةلزوجها ولواجباتها، فاترة دائما ، مفكرة ، منيعة على الأحاسيس الشهوانية، فعمد الى مهاجمتها بالسفسطة والمغالطات . وانتهى الى اقناعها بأن واجباتها ــ التى كانت متشبثة بها ــ لغو من تعاليم الدين التى وضعت خصيصا لتسلية الاطفال ، وان الاتصال الجنسى ــ فى حـد ذاته ــ هو اقل التصرفات اهميـة ، وان الوفاء الزوجى محض التزام ظاهرى ، كل قيمته الخلقية مجرد رأى !.. وان راحة الازواج هى الأصل الوحيدلواجبات النساء، ومن ثم فان الخيانات المجهولة ــ التىلايكون لها اثر لدىمن ترتكب ضدهم، لأنهم لا يدرون بها ــ لا أثر لها على الضمير كذلك !.. **ومجمل القول انه أقنعها بأن الأمر لا قيمة له فى حد ذاته ، وانه لايكون**

ذا شأن الا اذا افتضح ، وان كل امرأة تبدو فاضلة انما تدين بمظهرها الفاضل لهذا السبب وحده. وهكذا وصل الوغد الى غايته ، فأفسد عقل طفلة ، ولكنه لم يقو على افساد قلبها !..
ولقد عوقب على ذلك بأعتى الوان الغيرة ، اذ اعتقد انها كانت تعامله كما علمها ان تعامل زوجها ! ولست ادرى ما اذا كان على خطأ فى ذلك ، فان الراهب «بيريه» خلفه فى علاقته بها . انما الذى ادريه ، هو ان الطبع البارد الذى اوتيته هذه المرأة ، والذى كان خليقا بأن يعصمها من هذا المسلك ، كان هو عين ما منعها ـ بعد ذلك ـ من ان تنبذه !.. فما قدر لها ان تدرك ان الناس تخلع اهمية على الشىء الذى لا قيمة له لديها ، وما مجدت قط ـ باسم الفضيلة ـ زهدا لا يكبدها سوى جهد بسيط !

على انها لم تسىء قط استغلال هذه المبادىء الزائفة من اجل نفسها، وانما استغلتها من اجل الغير، وكان ذلك من جراء نظرية تعادل تلك المبادىء زيفا ، وان تمشت مع ما فطر عليه قلب السيدة من طيبة . **فلقد كانت تعتقد دائما ان لا شىء يربط اى رجل بامرأة سوى ظفره بأربه منها. ومع انها لم تكن تحب اصدقاءها الا بدافع من المودة ، فان مودتها كانت من اللطف والرقة بحيث انها كانت تستخدم كل وسيلة ممكنة لتوثق ارتباط هؤلاء الأصدقاء بها** . . والغريب فى الأمر انها كانت توفق فى بلوغ غايتها باستمرار تقريبا. فقد كانت حبيبة حقا ، حتى ان المرء كلما عظمت الألفة التى يعيش عليها معها ، ازداد اكتشافا لأسباب جديدة تدفعه الى حبها . وهناك امر آخر جدير بالملاحظة ، هو انها بعد ضعفها الأول، لم تكن تخلع أفضالها الناعمة قط الا على البائسين. وكان اللامعون يفقدون ـ سدى ـ العناء الذى يتكبدونه للوصول اليها ، ولكن.. اذا ما بدأت تشعر بالاشفاق يوما على رجل ، فلا بد من ان يكون

هذا الرجل قليل الجدارة بالحب ، اذا هى لم تنتبه الى ان تحبه !.. وكانت اذا أقدمت على اختيار اشخاص يليقون بها، لاتصدر فى اختيارها عن الميول الخسيسة التى لم تكن قط تقارب فؤادها النبيل ، بل انها لم تكن تصدر الا عن خلقها المفرط الكرم ، المفرط الرحمة ، المفرط الحنان ، المفرط الحساسية .. هذا الخلق الذى لم تكن تحكمه دائما بحكمة وبصيرة كافيتين !

وإذا كانت بعض المبادىء الزائفة قد غررت بها ، فكم من مبادىء رائعة اعتنقتها ، فلم تتخل عنها قط !.. وبكم من الفضائل كفرت عن نواحى ضعفها، اذا جاز للمرء ان يطلق هذا الاسم على اخطاء لم يكن للادراك فيها نصيب يذكر ! .. بل ان هذا الرجل الذى غشها فى ناحية، أحسن تعليمها فى ألف ناحية اخرى . ثم ان عواطفها ــ التى لم تكن متأججة مندفعة ــ كانت تتيح لها ان تتبع دائما اضواء العقل ، فكانت تسلك جادة الصواب عندما لا تضللها السفسطة.. كانت دوافعها حميدة، حتى فى أغلاطها ، وكانت آراؤها الزائفة كفيلة بأن تدفعها الى الزلل ، ولكنها لم تكن تقوى على الزلل عن رغبة وطواعية .. كانت تكره الرياء والكذب ، وكانت منصفة ، عادلة ، شفوقة ، منكرة لذاتها ، وفية لوعدها ولأصدقائها ولواجباتها ــ التى كانت تعترف بأنها واجبات ــ عاجزة عن الانتقام والبغضاء ، دون ان تكون لديها اقل فكرة عن ان فى الصفح اية ميزة او فضيلة !.. واخيرا ، لو اننا عدنا الى تلك الخصال التى لم يكن لها فيها عذر يذكر ، نجد انها لم تكن تدرى كيف تقدر قيمة الأفضال الناعمة التى كانت تخلعها على من يقع عليهم اختيارها، ولا كانت تتخذ منها مادة للاتجار أو المساومة.. **كانت سخية فى اغداق هذه الافضال ، ولكنها ابدا لم تكن تبيعها، بالرغم من انها كانت فى شغل دائما بموارد العيش .. وانى لأجرؤ على**

القول بأنه اذا كان سقراط قد استطاع ان يحترم «اسباسيا» (١) ، فانه كان قمينا بأن يحترم مدام دى فاران !

وانى لأعرف مقدما اننى اذ أصفها بالشخصية الحكيمة ، والطبيعة الباردة ، سوف أتهم بالتناقض كالمعتاد ، وبحق . ولكن من الجائز ان الطبيعة قد اخطأت ، وان اجتماع هاتين الخلتين ما كان يجب ان يوجد . ولكنى لا اعرف سوى انه قد وجد فعلا !.. ان كل الذين عرفوا مدام دى فاران ــ ومنهم عدد كبير لايزال على قيد الحياة ــ يعلمون انها كانت كذلك . بل اننى لأجرؤ على ان اضيف انها لم تعرف سوى متعة واحدة من المتع الحقيقية فى الحياة ، وتلك هى : تيسير الاستمتاع بالحياة لأولئك الذين كانت تحبهم . ومن المباح لكل امرىء ان يناقش ما تقدم بحرية تامة ، وان يثبت عن علم ودراية انه غير صحيح . ان مهمتى هى ان اقول الحق ، ولكن ليس ان احمل الناس على تصديقه !

ولقد ألممت شيئا فشيئا بكل الذى قلته ، خلال الاحاديث التى أعقبت اتحادنا (٢) ، والتى كان لها وحدها الفضل فى جعل هذا الاتحاد عذبا . **ولقد كانت على حق اذ داخلها الأمل فى ان يكون صنيعها ذا نفع لى ، فقد أفدت منه فى تعلمى فوائد كثيرة : فلقد كانت «ماما» ــ حتى ذلك الوقت ــ تتحدث الى كما لو كنت طفلا ، ولكنها بدأت تعاملنى كرجل ، فحدثتنى عن نفسها** . وكان كل ماقالته لى مشوقا ومثيرا لاهتمامى ، فتأثرت به الى درجة اننى كنت ــ اذا ما استعدته لنفسى ــ اخرج من اعترافاتها بفوائد تفوق كل ما خرجت به من دروسها . ونحن عندما نشعر ان محدثنا انما يتحدث من فؤاده ، تتفتح قلوبنا

(١) أسباسيا : كانت عشيقة بريكليس السياسى الاثينى ، فى النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد وقد كان صالونها ملتقى اللامعين من مشاهير أثينا .

(٢) يقصد العلاقة الجنسية التى قامت بينه وبين مدام دى فاران .

لتلقى اعترافاته .. ولن يقدر لكل ما لدى أى مدرس من علم، ان يصل الى مرتبة الثرثرة العاطفية النـاعمة التى تفيض من امرأة ذكية ظفرت بولاء المرء وتعلقه !

ولقد هيأت لها ظروف الألفة الوثيقة التىعشت فيها معها، فرصة تكوين رأى عنى ينطوى على مزيد من التقدير عن ذى قبل .. كانت ترى اننى ـ على الرغم من خجلى وتقاعسى ـ أهل لأن أدرب على الحيـاة ، واننى لو ظهرت يوما فى مستوى معين ، لتسنى ان اصبح فى مركز يمكننى من ان اشق طريقى. **وبهذه الفكرة ، كرست نفسها لا لتشكيل وعيى فحسب، وانما لصوغ مظهرى ومسلكى كذلك ، حتى تجعلنى جـديرا بالحب وبالتقدير معا** . واذا صح ان النجاح فى الدنيا يقترن بالفضيلة ـ وهو ما لا اؤمن به من ناحيتى ـ فاننى مقتنع ، على الأقل، بأنه لم تكن ثمة وسيلة تؤدى الى مثل هذه الغاية سـوى تلك التى اتخذتها « ماما » ورغبت فى ان تلقننيها ! .. فلقد كانت مدام دى فاران تفهم الجنس البشرى ، وتفهم ـ الى درجـة عالية ـ فن التعامل مع الناس دون خداع او تهور، ودون غش او اساءة ، ولكنها كانت تلقن هذا الفن بشخصيتها اكثر منها بدروسها ، وكانت اكثر معرفة بممارسته منها بشرحه ،وكنت أنا ـ دون رجال العالم طرا ـ اقلهم قابلية لأن أتعلمه!.. ومن ثم فقد كانت محاولاتها ـ فى هـذا الاتجاه ـ جهودا مضيعة ، وكذلك كان حال كل ما تجشمته لتزودنى بأسـاتذة للمبارزة والرقص . ومع اننى كنت لدن العود ، حسن القوام ، الا اننى لم أتعلم قط كيف أرقص ، ولو لدقيقة واحدة ، فلقد اعتدت ـ بفضل البثور (الكاللو) ـ ان اسير على كعبى قدمى ، وهى عادة لم يستطع «روش» ان يشفينى منها . وبالرغم من خفة مظهرى، فاننى لم اكن قادرا يوما على اناقفز عبر حفرة عادية. وكانت حالى انكى فى مدرسة المبارزة . فقد ظللت ـ بعد ثلاثة أشهر من الدراسة ـ مضطرا الى اناقتصر على الصد والمراوغة،

بعيدا عن ان أقوى على الهجوم .. كما اننى لم أوت قط رسغا لينة أو ذراعا ثابتة ، بحيث تحتفظ بالشيش كلما حلا للاستاذ ان يطوح بها . **أضف الى ذلك اننى اوتيت نفورا قاتلا من هذه الرياضة ، ومن المدرس الذى كان يحاول ان يعلمنيها . فما آمنت قط بأن من المستساغ الفخر بفن قتل اى انسان !..**
ولكى يدخل المدرس علمه الواسع فى ذهنى، اعتاد ان لايشرحه الا بمقارنات مقتبسة عن الموسيقى، التى لم يكن يلم بشىء منها، فوجد أوجها لتشابه عجيب بين ابعاد الثلث والربع (١) ، وبين المسافات الموسيقية التى تحمل الاسم ذاته . وكان اذا أراد أن يقوم بحركة خادعة ، دعانى الى ان انتبه الى DIESE (٢)، لأن النغمات الحادة كانت تسمى قديما FEINTES (٣).. واذا اراد ان يطوح بشيشى من يدى ، قال ضاحكا ان هذه «وقفة» .. وقصارى القول ، اننى لم ار فى حياتى متعالما (٤) لايطاق ، اكثر من هذا المسكين ، بريشته وصدارته الجلدية ..

ومن ثم فان تقدمى فى تدريباتى كان بسيطا ، حتى اننى لم ألبث ان هجرتها لمجرد كراهيتى لها ، ولكنى احرزت تفوقا فى فن اكثر نفعا ، هو : القناعة بحظى ، وعدم الطمع فى نصيب اشد بريقا ، كنت قد بدأت أشعر اننى لم أخلق له ! .. واذ كنت منصرفا بكل نفسى الى الرغبة فى اتاحة حياة سعيدة لماما، فاننى كنت أحس دائما بمزيد من الغبطة فى قربها.. ولما كانت دروسى الموسيقية كثيرا ما تضطرنى الى البعد عنها لأهرع الى المدينة ، فانى بدأت ـ رغم شغفى بالموسيقى ـ اشعر بضيق من هذه الدروس !

ولست ادرى ما اذا كان ((كلود آنيه)) قد لاحظ توثق

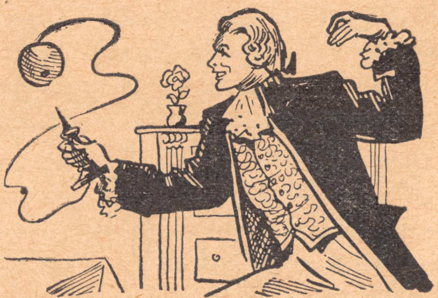
(١) من مصطلحات ابعاد الخطوات فى المبارزة ..
(٢) علامة من علامات الموسيقى ترفع العلامة التي تليها بنصف مقام
(٣) المعنى اللغوي يخدع أو يغرر .. وفي الموسيقى نغم حاد ..
(٤) المتعالم هو الذي يدعي العلم ..

علاقتنا ، وعندى مايحملنى على الاعتقاد بأن هذا لم يخف عليه، فلقد كان فتى شديد الذكاء، ولكنه كان شديد التكتم، لايتحدث قط بما يناقض تفكيره، بيد أنه لم يكن يبوح بهذا التفكير دائما. ومع انه لم يبد انفه بادرة عن علمه بالأمر ، الا انه أظهر هذا العلم ، بمسلكه .. وما كان هذا المسلك صادرا عن خسة نفس ، وانما عن اعتناق لمبادىء سيدته، مما لم يكن يملك معه ان يستهجن تصرفها وفقا لهذه المبادىء . ومع انه كان أصغر منها سنا ، الا انه كان من النضوج والوقار، بحيث انه نظر الينا كما لو كنا طفلين جديرين بالاشفاق والتسامح ، بينما رحنا ننظر اليه كرجل محترم، نكن له تقديرا ومراعاة .. وما ادركت مدى العلاقة التى كانت بينه وبينها ، الا بعد ان خانته . ولما كانت تعلم اننى لم اكن افكر الا بفكرها ، ولااشعر الا بشعورها، ولا اتنفس الا عن طريقها ، **فقد اطلعتنى على مدى حبها له ، حتى اكن له نفس المحبة ، وكانت اقل اسهابا فى بيان ودها ، منها فى بيان تقديرها له ، فقد كان هذا هو الشعور الذى أستطيع ان اشاركها اياه كل المشاركة . وكم من مرة هفت بقلبينا ـ أنا وهو ـ وجعلتنا نتعانق باكيين ، اذ راحت تقول لنا أننا لازمان معا لاسعاد حياتها !.. الا ليت اللائى يقرأن هذا لايبتسمن فى خبث !** . . فان طباع السيدة كانت تجعل هذه الضرورة امرا لا مرية فيه .. كانت ضرورة نابعة عن فؤادها فحسب !

وهكذا قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لايكون لها مثيل على الأرض !.. كانت جميع امانينا ، وميولنا ، وقلوبنا مشتركة ، وما كان أى منها يتجاوز نطاق هذه الحلقة الصغيرة . واصبح اعتياد العيش معاً ، والحياة فى معزل عن الدنيا ، من القوة بحيث ان كل شىء كان ينقلب فى انظارنا اذا غاب واحد من ثلاثتنا عن المائدة ، او شاركنا الوجبات رابع !.. وبالرغم من الروابط الخاصة التى كانت بيننا ، فان الخلوات بين اى اثنين

منا لم تكن فى حلاوة اجتماع ثلاثتنا . . وكان الذى حال دون أى توتر بيننا هو الثقة البالغة المتبادلة، والذىعصمنا من الملل هو اننا كنا جد مشغولين ، اذ كانت « ماما » لاتنفك تبتكر المشروعات ولا تكف عن العمل ، ولا تسمح لأى منا بأن يركن الى الخمول .. كما كان لدى كل منا من العمل الخاص مايكفى لملء أوقاتنا. **وفى رأيى ان البطالةليست اقل من الوحدةافسادا للجماعة!. .وليس ادعىلتضييق الأفق، ولا اكثر مدعاة للتفاهة، واللغو ، والأحقاد، والمنغصات، والاكاذيب، من ان تمكث جماعة ــ الى الابد ــ بين جدران غرفة واحدة ، متقابلين ، وليس لديهم من عمل سوى الثرثرة باستمرار ! ..** فانه اذا كان لدى كل امرىء مايشغله ، فهو لن يتكلم الا اذا كانلديه شيء يقال. اما اذا لم يكن لديه عمل ، فانه لايجد امامه سوى الكلام بلا انقطاع، وهذا ادعى الأمور للضجر وأخطرها!.. بل انى لأجرؤ على ان اذهب الى أبعد من هذا ، فأقول انه لابد ــ لجعل اية صحبة ملائمة حقا ــ من ان يقوم كل امرىء لا بعمل أيا كان ، فحسب ، وانما بعمل يتطلب قدرا من الاهتمام . فالحياكة مثلاليست عملا ، ومن ثم فان مهمة تسليةامرأة تقومبالحياكة، تتطلب عناء يعادلماتتطلبه تسلية امرأة تجلسمكتوفة اليدين. أما حين تطرز ، فان الأمر يختلف، اذ انالتطريز يشغلها بدرجة تكفى لملء فترات الصمت . والمزعج ، المضحك ، هو ان ترىفى مكان ما مثلا اثنى عشرأخرق ثقيل الدم، يقومون ، ويجلسون، ويغدون، ويروحون، ويدورون على أعقابهم، ويحركون التحف ــ التى على رف المدفأة ــ مائتى مرة ، ويعتصرون أمخاخهم ليبقوا على تيار الكلمات دافقا لاينضب . . ما ابدعها من مهمة ! .. مثل هؤلاء ــ أيا كانوا ــ يصبح بعضهم عبئا على بعض ، وعلى انفسهم ! ولقد اعتدت ــ حين كنت فى (موتيير)ــ ان اذهب لصنع الاشرطة المجدولة فى دور الجيران .. ولواننى

عدت الى ذلك المجتمع، لحملت فى جيبى دائما «البيبلوكيه»(١)، وللعبت بها طوال النهار ، لأشغل بها عن الكلام عندما لايكون لدى ما يقال . ولو ان كل امرىء فعل ذلك ، لأصبح الناس أقل شرا، ولأصبحت مجتمعاتهم أسلم، وأحب ، على ما أعتقد! وقصارى القول ، ان دع الماجنين يضحكون ، ولكننى أرى ان المذهب الخلقى الوحيد الذى فى متناول القرن الحاضر ، هو مذهب « البيبلوكيه » !



والى جانب هذا ، لم يكن لدينا وقت كاف للتحوط ضد السأم عندما نكون معا ، فان الزائرين المزعجين كانوا يسببون لنا من السأم ما يجعلنا لا نشعر بشىء منه اذا ما خلا بعضنا الى بعض ! .. ولم يكن الضيق ــ الذى اعتادوا ان يوحوا الى به من قبل ــ قد تضاءل . وكل ما كان هنالك من اختلاف ، هو اننى لم أعد أجد وقتا كافيا لأن أسلم نفسى اليه ! .. ولم تكن « ماما » المسكينة قد فقدت شيئا من شغفها القديم

(١) البيلبوكيه : لعبة تتألف من كرة مثقوبة ، تتصل بخيط دقيق بعصا صغيرة مدببة فى أحد طرفيها ، ومجوفة فى الآخر .. ويمسك المرء بالطرف المدبب ، ويطوح الكرة فى الهواء محاولا ادخالها فى الطرف المجوف . وقد شاع أخيرا نوع منها يتألف من كرة وكوب صغيرة من البلاستيك .

بالمشروعات والخطط ، بل ان الأمر كان على النقيض ، فبازدياد الحاح حاجاتها المعيشية ، اخذت تزداد اغراقا فى المشروعات لسد هذه الحاجات .. وبقدر ما قلت مواردها الراهنة ، ازدادت تدبيرا لها فى أوهامها بشأن المستقبل . ولم يزدها مرور السنين الا اغراقا فى هذا التهوس ، وبقدر ماكانت تفقد من ميل الى ملاذ الدنيا والشباب ، اخذت تعوضه بميل الى الاسرار والخطط . فلم يكن البيت ليخلو قط من المشعوذين ، والصناع ، والكيمياويين ، والمغامرين على اختلاف انواعهم ، الذين كانوا يبعثرون الثروات بالملايين ، وينتهون الى ان يصبحوا بحاجة الى دينار ! .. ولم يكن اى واحد منهم ليخرج من لدنها صفر اليدين ، وقد كان من بواعث ذهولى انها كانت قادرة — لوقت طويل — على مثل هذا الاسراف دون ان ترهق مواردها ، أو تستنفد صبر دائنيها !

وكان المشروع الذى شغلها اكثر من اى شىء آخر ، فى الوقت الذى أتحدث عنه ، والذى لم يكن أبعد المشروعات التى صاغتها عن المعقول ، هو انشاء حديقة ملكية للنباتات فى (شامبيرى) ، يعين لها مدير ! وفى وسع المرء ان يفهم مقدما من الذى كان موعودا بهذا المنصب . فان موقع هذه المدينة وسط جبال (الالب) كان جد مناسب للتجارب النباتية ، **ولما كانت «ماما» تحاول دائما ان تساعد كل مشروع بآخر ، فانها قرنت هذا المشروع بمشروع كلية للصيدلة ، الأمر الذى بدا جد مفيد — حقا — لمنطقة فقيرة فى هذا الباب الى درجة ان الصيادلة كانوا الأطباء الوحيدين فيها تقريبا !** .. وكانت اقامة الطبيب الأول « جروسي » فى (شامبيرى) ، بعد موت الملك فيكتور ، تبدو لها ملائمة جدا للفكرة ، او لعلها هى التى اوحت بها . ومهما يكن الأمر ، فانها اقبلت على تملق « جروسى » المذكور ، الذى لم يكن بالشخص السهل المراس ، بل كان أكثر من عرفت فى حياتى سخرية وقسوة ، وسيحكم القارىء على ذلك من حادثين

او ثلاثة اذكرها كنماذج !

فلقد كان « جروسى » يتشاور يوما مع أطباء آخرين ، استدعى أحدهم من (أنيسى) ليعالج مريضا . وجرؤ هذا الاخير ـ الذى لم يكن قد استكمل لباقته كطبيب ـ على ان يعارض رأى السيد « الطبيب الأول ، جروسى » ، فكان رد هذا الأخير عليه ، ان سأله عن موعد عودته من حيث أتى ، وعن الطريق التى اعتزم ان يسلكها ، والمركبة التى سوف يستقلها ! واذ أجاب الآخر عن كل هذه الأسئلة ، سأل « مستجوبه » بدوره عما اذا كان يستطيع ان يؤدى له اية خدمة ، فقال جروسى : **« لا ، لا خدمة هناك .. وانما أريد أن أقف فى نافذة على طريقك ، لأستمتع برؤية حمار يركب جوادا » !**

.. وكان « جروسى » بخيلا بقدر ما كان غنيا وصعب المراس . ولقد اراده أحد أصدقائه يوما على ان يقرضه نقودا ، بضمانات طيبة ، فقال له وهو يمسك بذراعه ، وقد كشر عن انيابه : **« يا صديقى .. اذا هبط القديس بطرس من السماء ليقترض منى عشر « بيستولات » (١) ، وقدم لى المهد المقدس ضمانا ، لما اقرضته ! »** .. وفى ذات يوم ، دعى للغداء لدى السيد الكونت بيكون ، حاكم (سافوا) ـ الذى كان شديد التدين ـ فوصل قبل الموعد ، وكان صاحب السعادة منصرفا الى تسبيحاته ، فعرض عليه ان يتسلى بالتسبيح . واذ لم يدر الطبيب بماذا يجيب ، ابتسم ابتسامة رهيبة ، وركع ، ولكنه لم يكد يتلو اثنتين من التسبيحات الملائكية ، حتى عجز عن الاحتمال ، فنهض على حين غرة ، وتناول عصاه ، وانصرف بدون أن ينبس ببنت شفة ! فهرع الكونت بيكون خلفه ، وهو يصيح به : « يا سيد جروسى ! يا سيد جروسى ! امكث ، فان

(١) عملة ذهبية قديمة ، كانت قيمتها تتغير بتغير العصر والبلد الذى يصكها .

على السفود حجلا بديعا » (١) . فالتفت اليه الآخر مجيبا :
« يا سيدى الكونت ، لو انك وهبتنى ملاكا مشويا لما بقيت !»
.. هذا هو السيد الطبيب الأول جروسى، الذى تولته «ماما» وانتهت الى ترويضه . ومع انه كان جم المشاغل الى اقصى حد ، فقد اعتاد ان يتردد كثيرا جدا على دارها ، وقد اصطفى « آنيه » فآثره بوده ، مبديا تقديره لعلمه ، متحدثا عنه باحترام . والامر الذى ما كان ليتوقعه أحد من دب شرس كهذا ، انه راح يعامل الوصيف باعتبار كبير، ليمحو آثار الماضى! ذلك لانه وان كان « آنيه » لم يعد فى مرتبة الخدم ، الا انه كان من المعروف انه كان من قبل خادما ، ولم يكن يعوزه شىء قدر مسلك الطبيب الأول ، واحترامه ، كيما يعامله الناس باسلوب ما كانوا ليأخذوه قط عن شخص آخر سوى جروسى!
.. وكان « كلود آنيه » ببزته السوداء ، وشعره المستعار الجيد التنسيق ، ومظهره الجاد الوقور ، ومسلكه الرصين الحذر ، والمامه الواسع بعلم النبات والطب ، وتأييد رئيس الكلية له ، خليق بأن يجعله يأمل ــ بحق ــ فى ان يشغل منصب مدير حديقة النباتات الملكية ، لو قدر للمشروع ان يتحقق ! والواقع ان جروسى حبذ المشروع ، واحتضنه ، ولم يعد ينتظر لعرضه على البلاط الملكى ، سوى اللحظة التى يسمح فيها استقرار السلم بالتفكير فى الأشياء المفيدة ، وتوفير بعض المال من أجلها

ولكن هذا المشروع ــ الذى كان من المحتمل ان يصرفنى تحقيقه الى التفرغ لعلم النبات ، اذ كان يخيل الى اننى خلقت له ــ اخفق بسبب حادث من هذه الحوادث التى تقلب خير الخطط المتناسقة . وكان مقدرا على ان أصبح تدريجا مثالا للانسان البائس . ومن الممكن القول ان العناية الالهية ــ التى

(١) السفود : المشواة . والحجل : نوع من الطيور .

كانت تبتلينى بتلك الاختبارات الضخمة ـ كانت تزيح بيدها كل ما كان يمنعنى من خوض تلك المحن . ففى احدى الجولات التى كان «آنيه» يقوم بها الى اعالى الجبال للبحث عن «الجنبة» ـ وهى نبات نادر لم يكن ينمو الا على جبال الألب ، وكان السيد جروسى بحاجة اليه ـ تعرض الفتى المسكين لحرارة أدت الى اصابته بنوبة من داء الجنب (التهاب غشاء «البلورا») ، لم تقو « الجنبة » على انقاذه منها ، رغم ما كان يقال من أنها علاج لهذا الداء بالذات . وبالرغم من كل مهارة جروسى ، الذى كان نطاسيا حاذقا حقا ، وبالرغم من العناية التى لا حد لها والتى بذلناها ـ سيدته الطيبة وأنا ـ له ، **فانه مات بين ايدينا ، فى اليوم الخامس ، بعد ان عانى آلاما فظيعة فى النزع الأخير ، لم يجد خلالها سلوى سوى دعواتى التى رحت ابذلها فى أسى وحماس بالغين ، والتى كانت خليقة بأن تسرى عنه لو أنه فهمها ! .. وهكذا فقدت اوفى صديق حظيت به فى حياتى .. رجلا جديرا بالتقدير ، نادرا ، تولت الطبيعة تربيته وتعليمه ، وكان ـ وهو فى منصبه كخادم ـ يغذى قلبه بكل فضائل العظماء ، ولعله لم يكن بحاجة ـ لكى يظهر الدنيا بأسرها على انه من هؤلاء ـ الا لعمر أطول ، ومركز أفضل !**

وفى اليوم التالى ، كنت اتحدث عنه الى « ماما » بأشد وأصدق الأسى ، عندما خطرت لى فجأة ـ وسط الكلام ـ أدنأ وأخبث فكرة : تلك هى اننى خليق بأن أرث ثيابه ، ولا سيما بزة سوداء انيقة كانت تستهوينى ! .. فكرت فى هذا ، فاذا بى أفصح عنه ، اذ ان التفكير والقول كانا مترادفين عندى حين أكون بالقرب من «ماما» . ولم يجعلها شىء اكثر شعورا بالخسارة التى منيت بها ، قدر هذه الكلمة المتهورة البغيضة ، فقد كان انكار الذات ونبل النفس خصلتين امتاز بهما الراحل . واشاحت عنى المرأة المسكينة ـ دون ان تجيب بكلمة ـ وانخرطت فى البكاء .. وما كان اعز دموعها واغلاها ! لقد افصحت هذه



الدموع عن معانيها ، وانسابت الى فؤادى ، فغسلت عنه آخر آثار الأحاسيس الخسيسة ، غير الكريمة .. فلم تدخله هذه الأحاسيس بعد ذلك !

ولقد أضرت هذه الخسارة بماما ، بقدر ما أحزنتها ، فلم تكف شئونها عن الانهيار منذ تلك اللحظة ، اذ كان « آنيه » فتى دقيقا ، منظما ، عنى بتنظيم دار سيدته . وكانت يقظته مهابة من الخدم ، فاذا الاسراف يتضاءل .. حتى « ماما » نفسها كانت تخشى لومه ، وتحد من نفقاتها . ولم تكن تكتفى بحبه ، بل كانت ترغب فى الاحتفاظ بتقديره ، وكانت تخشى اللوم العادل الذى كان يجرؤ أحيانا على ابدائه ، اذ كانت تسخو بمال غيرها لا بمالها فحسب ! .. ولقد كنت أرى رأيه فى هذا ، بل وأعربت عنه فعلا ، ولكننى لم أوت ما كان له من نفوذ عليها ، فلم يكن لأقوالى ما كان لأقواله من تأثير لديها . ولما لم يعد له وجود ، اضطررت الى ان اتخذ مكانه ، وهو ما كنت قليل المقدرة عليه والميل اليه ، فلم أحسن ملء المركز ، اذ اننى كنت قليل العناية ، شديد الخجل ، فتركت كل شىء يسير على هواه ، وأنا انحو على نفسى باللائمة ، وبجانب هذا ، فاننى لم احظ بسلطانه ، وان حظيت بنفس الثقة التى كان ينعم بها .

وكنت أرى الفوضى فأتحسر عليها ، واشكو منها ، ولكن أحدا لم يكن يصغى الى . فقد كنت اصغر سنا وأكثر مرحا من ان أبدو عاقلا حكيما . وعندما كنت أسعى للتدخل والرقابة ، كانت ((ماما)) تقابلني بصفعات بسيطة مدللة ، وتدعونى بمرشدها الصغير ، وتضطرنى الى ان اعود للدور الذى كان يلائمنى !

وكان الاقتناع العميق بالضائقةالتى كان اسرافها المطلق كفيلا بأن يغرقها فيها ـ ان عاجلا او آجلا ـ قد ترك اثرا فى نفسى .. وقد اشتد هذا الأثر كثيرا حين أصبحت ـ كمشرف على شئون الدار ـ قادرا على أن أتبين بنفسى الفارق بين دخلها ونفقاتها ، فقد كانت كفة الأخيرة أرجح ! ـ والى هذه الفترة أرجع تاريخ الميل الذى استشعرته منذ ذلك الحين الى التقتير ـ وانا لم اكن قط مسرفا فى نزق ، الا فى نوبات عابرة ، ولكنى حتى ذلك الحين لم اكن قد حملت هم ما اذا كانت ثمة نقود كثيرة او قليلة .. فبدأت أهتم بهذا ، وأعنى بكيس نقودى .. وهكذا تحولت الى البخل ، نتيجة باعث رائع جدا ، ذلك ان همى الاوحد انحصر ـ فى الحقيقة ـ فى : كيف اقتصد لماما شيئا يقيها محنة الانهيار الذى كنت أراه مقبلا ! ؟ وكنت أخشى ان يحجز دائنوها على معاشها ، أو ان ينقطع هذا المعاش نهائيا ، **فخيل الى ـ لضيق عقلى ـ ان مدخراتى الضئيلة ستكون ، اذ ذاك ، عظيمة النفع لها ! على انه لادخار شىء ما ، ولحفظه ـ قبل كل شىء ـ كان لا بد من مكان لاخفائه فيه عنها ، اذ لم يكن من المجدى لهذه الخطة ان تعرف ((ماما)) شيئا عن وجود مدخراتى القليلة ، عندما تكون فى اشد الحاجة الى المال!**

..ومن ثم رحت ابحث عن عدة مخابىء اودعتها بضع قطع من فئة « اللوى » ، معتزما ان اضاعف الرصيد بين وقت وآخر ، الى ان تحين اللحظة التى كنت اعتزم ان اطرحه فيها عند قدميها ! ولكنى كنت من الارتباك فى اختيار مخابئى بحيث ان

« ماما » كانت دائمـا تعثر عليها ، واذ ذاك ، كانت تشـعرنى بذلك ، بأن تأخذ النقود التى اودعتها ، وتضع بدلا منها مبلغا أكبر ، من عملات أخرى مخالفة ! .. وكنت اشـعر من ذلك بخجل بالغ ، فأضع كنزى الصغير فى صندوق النفقات العامة ، (فانها لم تـكن تغفل قط عن ان تنفقـه على ثيـاب أو اشياء أخرى لى ، كسيف ذى مقبض فضى ، او ساعة ، أو أى شىء من هذا القبيل !)

واذ ايقنت من اننى لن أفلح فى الادخار ، وأن ما أدخره لن يكون ـ بعد ذلك ـ ذا نفع يذكر لها ، شعرت أخيرا بأنه لم يعد ثمة ما يعمل ازاء النكبة التى كنت اخشاها ، اللهم الا ان احصل على منصب يمكننى من أن أعولها بنفسى ، بمجرد ان تكف عن امدادى بالمال ، وبمجرد ان تجد نفسها فى فاقة ! .. ووضعت خططى على اساس ميولى الخاصة ـ لسوء الحظ ـ فأصررت فى غباء على ان انشد نجاحا فى الموسيقى ، اذ احسست بأنغام وألحان تتصاعد فى رأسى ، فظننت اننى مسـتطيع ـ بمجرد ان أصبح فى مركز يمكننى من استغلالها ـ ان اغـدو شهيرا ، وان أصبح « أورفيه » (١) حديث ، لا تخفق انغامه فى اجتذاب فضة (بيرو) (٢) بأسرها ! .. ولما كنت قد بدأت اذ ذاك اقرأ

---

(١) « أورفيه » هو « أورفيوس » ، الشـاعر والموسيقى الاغريقى الذى ورد ذكره فى الأساطير على أنه ابن « أبوللو » ، ويعزى اليه أنه أيقظ الربة « هاديس » من الموت بموسيقاه العذبة وأغانيه الساحرة • وقد استجابت له الآلهة على شريطة أن يسير أمام « هاديس » دون أن يلتفت خلفه لينظر اليها ، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على وعده ، فعادت الى موتهـا • وقد نسبت اليه عقيدة دينية تصوفية ، من أهم معالمها الايمان بحياة جديدة بعد الموت •

(٢) (بيرو) احدى جمهوريات أمريكا الجنوبية ، وقد اشتهرت بأنها غنية بمناجم الفضة وبعض المعادن الأخرى •

« النوتة » باتقان كبير ، فان المسألة اصبحت متمثلة فى : كيف استطيع ان اتعلم التلحين ؟ .. وكانت الصعوبة هى ان اعثر على من يعلمنى ، لأننى لم أكن آمل ان اتمكن من ان اعلم نفسى بمساعدة كتاب «رامو» ـ الذى كنت اعتز به ـ فحسب .. ولم يكن فى (سافوا) ـ منذ رحيل لوميتر ـ امرؤ على دراية بأى شىء عن تناسق النغم !

وهنا يتراءى مظهر آخر من مظاهر التناقض التى تحفل بها حياتى ، والتى كثيرا ما أفضت بى الى ان أحيد عن غايتى ، حتى وانا اظن اننى اسير اليها صادقا : فان « فينتور » كان قد تحدث الى كثيرا عن الراهب « بلانشار » ، استاذه فى التلحين .. وكان رجلا قديرا ، عظيم الموهبة ، كان اذ ذاك استاذا للموسيقى فى كاتدرائية (بيزانسون) ، وهو يشغل اليوم عين المنصب فى كنيسة (فرساى) . وقلت لنفسى اننى خليق بالذهاب الى (بيزانسون) لأتلقى دراسة على الأب بلانشار ، وقد بدت لى هذه الفكرة معقولة ، حتى اننى سعيت الى ان أحمل « ماما » على ان تراها كذلك . فاذا بها تعمل على اعداد متاعى البسيط ، وقد فعلت ذلك بالاسراف الذى كانت تلجأ اليه فى كل شىء . **وهكذا .. بينما كنت أهدف دائما الى تفادى افلاسها ، والى ان اصلح فى المستقبل نتائج اسرافها ، اذا بى ابدأ ـ فى نفس اللحظة ـ بتكبيدها ثمانمائة فرنك ! .. فعجلت بخرابها لكى اهيىء نفسى لعلاج حالها !** ومهما تكن الحماقة التى انطوى عليها هذا التصرف ، فان الوهم كان بأكمله راجعا الى ، واليها هى الأخرى . فقد اقنع كل منا الآخر ، فكنت من ناحيتى مقتنعا بأننى أقوم بعمل نافع من أجلها ، وكانت هى مقتنعة بأننى أقوم بعمل نافع من أجل نفسى !

وكنت أعول على أننى سأجد فينتور باقيا فى (انيسى) ، فأحصل منه على خطاب الى الأب « بلانشار » . ولكنه لم يكن هناك ، وكان على أن اقنع ـ من الدراسة كلها ـ بقداس من

أربعة أجزاء ، من تلحينه ، كان قد تركه لى . وبهذه الشفاعة ذهبت الى (بيزانسون) ، مارا بجنيف ـ حيث زرت أهلى ـ و بـ (نيون) ، حيث زرت أبى الذى تلقانى كالمعتاد ، وتكفل بأن يرسل فى أثرى حقيبتى ، لكنها لم تصل الا بعدى ، لأننى كنت مسافرا على جواد .. ووصلت الى (بيزنسون) ، فأحسن الأب بلانشار استقبالى ، ووعدنى بأن يزودنى بدروسه ، وقدم الى خدماته . وفيما نحن على أهبة البدء ، اذا بى أعلم من أبى بأن حقيبتى قد ضبطت وصودرت فى (روس) ، وهى نقطة للجمارك الفرنسية على الحدود السويسرية . وفى غمرة انزعاجى لهذا النبأ ، أنتفعت بالأصدقاء الذين اكتسبتهم فى (بيزانسون) لمعرفة السبب الداعى لهذه المصادرة ، اذ لم اتصور أى مبرر لها ، بحكم اطمئنانى الى انبى لم اكن أمتلك شيئا من المهربات. وأخيرا عرفت السبب ، ولا بد لى من ذكره لأنه أمر عجيب !

ذلك أننى كنت قد التقيت فى (شامبيرى) بكهل من (ليون) يدعى « ديفيفييه » ، كان قد عمل فى ادارة الجوازات ، فى عهد الوصاية ، وقد وفد ليعمل فى المساحة ، لحاجته الى عمل . وكان قد عاش فى المجتمعات الراقية ، وأوتى مواهب وقدرا من المعرفة ، واللطف ، والأدب ، كما كان ملما بالموسيقى . ولما كنت أعمل فى حجرة واحدة معه ، فان كلا منا مال الى ايثار الآخر ، وسط الدببة المسعورة التى كانت تحيط بنا .. وكان له مراسلون فى باريس ، يوافونه بتلك التفاهات الرخيصة ، وتلك المطبوعات اليومية التى تنتشر دون أن يدرى أحد كيف تنتشر ، وتموت دون أن يدرى أحد كيف تموت ، ثم لا يعود أحد الى التفكير فيها بعد ان تغيب عن الذكر . ولما كنت اصطحبه معى أحيانا لتناول الغداء لدى ماما ، فانه كان يعاملنى بقدر كبير من الاحترام . ولكى يجعل نفسه حلو المعشر ، كان يحاول ان يحملنى على ان أحب هذه الصحف التافهة التى كنت أنفر منها دائما الى درجة اننى لم اقرأ من تلقاء نفسى شيئا منها فى

حياتى . ولسوء حظى ان احدى هذه الوريقات اللعينة،ظلت فى جيب صدر احدى السترات الجديدة التى لم أكن قد ارتديتها سوى مرتين أو ثلاثا لكى لا يتعرض لها رجال الجمارك . وكانت تلك الوريقة تضم تحريفا « يانسينيا » (١) غثا لمشهد جميل فى مسرحية راسين « ميثريدات » .. ولم اكن قد قرأت من هذا التحريف سوى عشرة أبيات شعرية ، ثم تركتها ،ونسيتها فى جيبى . وكان هذا ما أدى الى مصادرة امتعتى ، فان رجال الجمارك الذين أشرفوا على تفتيش حقيبتى بنوا على هذه الوريقة قضية كبيرة ، زاعمين انها اجتلبت من جنيف لتطبع وتوزع فى فرنسا ، وشنوا حملة من الطعن والقدح المبنيين على التقوى ، ضد « اعداء الله والكنيسة » . ومن المدح والثناء على أولئك الذين استطاعوا بيقظتهم وتقواهم ان يحولوا دون تنفيذ هذا المشروع الجهنمى ! .. ولا بد انهم وجدوا ان أقمصتى كانت هى الأخرى تنضح بالزندقة،اذ انهم ـ استنادا الى هذه الوريقة الرهيبة ـ صادروا كل شىء ، فلم اتلق ابدا أى نبأ أو بيان عن حقيبتى البائسة .! ولقد طلب الموظفون الذين كتبت اليهم أوسطهم فى الأمر ، معلومات وبيانات ، وشهادات ، ومذكرات ، بلغ من كثرتها اننى بعد ان تخبطت ألف مرة فى هذا التيه ، اضطررت الى التخلى عن كل شىء ! وانى لنادم حقا على عدم الاحتفاظ بالدعوى التى وضعها موظفو (روسو) ، فقد كانت خليقة بأن تبرز وان تكون موضع امتياز بين الوثائق التى ستصحب هذا المؤلف .

---

(١) اليانسينية مذهب دينى ابتدعه قس هولندى يدعى « كورنيليوس يانسين » فى القرن السابع عشر ، ونادى فيه بأن تعاليم القديس أوغسطين بشأن الغفران وحرية الارادة والقدر تتعارض مع آراء رجال الدين المحدثين ، لا سيما الجيزويت (اليسوعيين) . وقد اشتد الصراع بين أتباع « يانسين » والجيزويت فى فرنسا ، ومن هذا ندرك الاهمية التى أضفاها موظفو الجمارك على القصيدة التى وجدت لدى « روسو » .

وجعلتنى هذه الخسارة ابادر بالعودة الى (شامبيرى) دون أن أكون قد ابرمت شيئا مع الأب « بلانشار ». وبعد ان وزنت كل الأمور ، وتبينت ان النحس يلاحقنى فى كل مشروعاتى ، عقدت العزم على ان انصرف بكل جوارحى الى « ماما » وحدها، وان اشاركهـا حظها ، وان لا أعود الى الاهتمام غير المجدى بمستقبل لم اكن املك ازاءه شيئا . وقد تلقتنى « ماما » وكأننى جلبت اليها كنوزا ، وزودت صوان ملابسى الصغير شيئا فشيئا ، وسرعان ما تنوسى تقريبا سوء طالعى ، الذى كان فادحا سواء لى أو لها !

ومع ان هذا النحس قد هدأ من حدة مشروعاتى الموسيقية، الا أننى لم اتخل قط عن ان أدرس كتاب « رامو » باستمرار ، وانتهيت بفضل الجهد الشاق الى ان استوعبه ، والى ان أقوم ببضع محاولات صغيرة فى التلحين ، شجعنى نجاحها . وكان الكونت « دى بيلجارد » ــ ابن مركيز دانترمون ــ قد عاد من (درسدن) بعد موت الملك « اوجيست » . وكان قد أقام ردحا طويلا فى باريس ، وأحب الموسيقى حبا جما ، وشغف بمؤلفات « رامو » بوجه خاص. وكان أخوه الكونت (دى نانجى) يعزف على الكمان ، والسيدة الكونته ديلاتور ــ شقيقتهما ــ تجيد الغناء بعض الشىء . فأدى كل هذا الى أن أصبحت الموسيقى هى الهواية الشائعة فى (شامبيرى) ، وانشىء نوع من الفرق الموسيقية العامة . وقد أرادوا فى بادىء الأمر منحى ادارة هذه الفرقة ، ولكن سرعان ما تجلى انها فوق طاقتى ، فاتخذت تدبيرات أخرى . ولم اتخل عن تقديم بضع قطع صغيرة من تلحينى ، بينها أغنية أصابت رضاء كثيرا . ولم تكن هذه الأغنية قطعة بديعة التلحين ، ولكنها كانت مليئة بألوان جديدة من الغناء ، وبمؤثرات ما كان أحد يرتقبها منى . ولم يستطع هؤلاء السادة ان يصدقوا اننى ــ وقد كنت اسىء قراءة المقطوعات الموسيقية ــ كنت فى وضع يمكننى من تأليف الحان

مقبولة ، فلم يرتابوا قط فى اننى انتحلت لنفسى فخر عمل سواى ! .. ولكى يتحروا الأمر اقبل السيد دى نانجى ذات صباح ليبحث عنى ، ومعه احدى اغانى « كليرامبو » ، وقد عدل فيها – كما قال لى – لكى تلائم صوته ، غير انه كان من الضرورى وضع أنغام أخرى للترنيم الثانى (١) ، اذ ان التعديل جعل من غير الممكن عزف الانغام التى وضعها كليرامبو على الكمان الكبيرة . وأجبته بأن هذا عمل ضخم ، لا يمكن اداؤه فى التو ، فظن اننى ابحث عن مهرب ، وألح على فى ان أضع له – على الأقل – انغام رنيم القائى (٢) ففعلت. وقد اسأت فى ذلك بلا شك ، لأنه لابد لى ، لكى أجيد اداء اى امر ، ان أكون على سجيتى وحريتى .. بيد اننى وضعت ما طلب منى وفقا للقواعد على الأقل ، ولما كان السيد حاضرا ، فانه لم يستطع ان يرتاب فى اننى ملم بأصول التلحين . ومن ثم فاننى لم افقد تلاميذى ، ولكننى ازددت فتورا – بعض الشيء – نحو الموسيقى ، اذ رأيت القوم قد الفوا فرقة موسيقية واهملونى فى تأليفها !

* * *

• **وحوالى** ذلك الوقت ، عقد الصلح وساد السلام ، وعبر الجيش الفرنسى الجبال (٣) عائدا الى بلاده .. وجاء عدد من الضباط لزيارة « ماما » ،كان بينهم السيد الكونت « لوتريك » – قائد كتيبة (اورليان) ، والمندوب المفوض فى جنيف بعد ذلك ، ثم مارشال فرنسا (٤) فى النهاية – فقدمتنى « ماما » اليه . واذ سمعها تتحدث عنى ، أبدى اهتماما كبيرا بى ، ووعدنى بأمور كثيرة ، لم يتذكرها البتة الا فى العام الأخير من حياته ، عندما لم أكن بحاجة اليه !.. كما مر بشامبيرى – فى الوقت ذاته – مركيز دى سنيكتير الشاب ، الذى كان ابوه

اذذاك سفيرا لدى (تورين) ، فتناول الغداء فى دار السيدة « دى مانتون » ، وكنت أنا الآخر اتغدى هناك فى ذلك اليوم . وبعد الغداء اثار المركيز ذكر الموسيقى ، وكان واسع الدراية بها . وكانت اوبرا « جيفته » (JEPHTE) حديثة العهد اذذاك، فتكلم عنها ، وجىء اليه بها ، فاذا به يجعلنى ارتجف ، اذ اقترح ان نؤديها معا .. وما ان فتح الكتاب ، حتى وقع بصره على هذه المقطوعة الشهيرة ، التى يؤديها فريقان من المنشدين (الكورس) :

« ان الأرض ، والجحيم ، بل والسماء ذاتها
« لترتجف جميعا امام الرب » !

وسألنى : « كم دورا تريد ان تؤدى ؟ » . . فأجبت : « سآخذ لنفسى هذه الأدوار الستة » .. ولم اكن قد اعتدت بعد هذه النزوة الفرنسية،واذا كنت قد اديت الأدوار — مرتبكا فى بعض الأحيان — الا أننى لم ادر اطلاقا كيف يملك رجل واحد ان يؤدى ستة ادوار — بل دورين — فى وقت واحد ! وما كبدنى شىء من المشقة ،فىممارسة الموسيقى ، اكثر من القفز ببساطة من دور الى آخر ، موجها عينى الى فصل بأكمله فى آن واحد. ولا بد ان السيد دى سنيكتير انساق — من جراء الطريقة التى أديت بها هذا المشروع — الى الظن بأننى لم أكن على معرفة بالموسيقى. ولعله اراد ان يتحرى صحة ارتيابه ، فاقترح على ان اكتب «نوته» اغنيةكان يريدان يقدمها الى الآنسة«دىمانتون»، فلم املك ان ارفض .. وراح يترنم بالأغنية وانا اكتب ، دون ان أسأله ان يكثر من التكرار . ثم قرأها بعد ذلك ، فوجدها — كما كانت حقيقة — صحيحة التسجيل . وكان قد لاحظ ارتباكى ، فطاب له ان يطنب فى امتداح توفيقى البسيط . والواقع اننى كنت على معرفة طيبة جدا بالموسيقى ، ولم يكن ينقصنى سوى سرعة الاستيعاب ، من أول نظرة القيها ، وهو الأمر الذى لم املكه ، والذى لا سبيل الى اكتسابه فى الموسيقى

الا بالمران الدائب .. ومهما يكن الأمر ، فاننى تقبلت العناية الامينة التى بذلها ليمحو من اذهان الآخرين ، ومن ذهنى ، الحياء الذى عانيته . ولقد وجدتنى منساقا - عدة مرات بعد ذلك - الى ان اذكره بهذه القصة ، عندما كنت التقى به فى عدة دور بباريس ، بعد اثنى عشر أو خمسة عشر عاما ، لأريه اننى كنت احتفظ بالذكرى . ولكنه كان قد فقد بصره منذ ذلك الحين ، فخشيت أن أجدد شجونه اذ أذكره بالنفع الذى كان يجنيه من هذا البصر فيما مضى ، وأمسكت لسانى !

* * *

• **وأصل** الآن الى اللحظة التى بدأت تربط وجودى الماضى بوجودى الراهن ، فان بعض الصداقات التى امتدت منذ ذلك الوقت حتى وقتنا الحاضر ، أصبحت جد غالية لدى . وانها لتحملنى كثيرا على ان اتحسر على ماكنت أسعد به من خمول الذكر ، حين كان اولئك الذين يعلنون انهم اصدقائى ، أصدقاء بالفعل،يحبوننى لذاتى،بنية طيبة،لا عن زهو بأن يكونوامرتبطين برجل نابه الذكر ، أو عن رغبة خفية فى ان يجدوا مزيدا من الفرص للاساءة اليه !.. والى هذه الفترة أرجع معرفتى الأولى بصديقى القديم « جوفكور » الذى ظل دائما صديقا لى ، برغم جهود الآخرين لابعاده عنى .. ظل دائما ؟ .. لا ، مع الأسف! .. فلقد قدر لى ان أخسره . ولكنه لم يكف عن حبى الا حين كف عن الحياة ، ولم تنته صداقتنا الا بانتهاء عمره . ولقد كان السيد «دى جوفكور» من أرق وأحب الرجال الذين وجدوا على ظهر البسيطة ، وما كان من الممكن لأحد ان يراه دون ان يحبه ، ولا أن يعيش معه بدون ان يتعلق به فى ولاء .. أبدا لم **أر فى حياتى ملامح أكثر صراحة أو رقة..ولا وجها أكثر وقارا، أو أكثر اظهارا للحس المرهف والذكاء ، أو أكثر ايحاء بالثقة!.. ومهما يكن تحفظ المرء ، فقد كان من المستحيل عليه ان يتمالك**

نفسه ـ منذ أول نظرة ـ من ان يصبح على ألفة معه ، وكأنه عرفه منذ عشرين عاما !.. حتى أنا ـ الذى كان يجد مشقة فى ان يكون على سجيته مع الأغراب ـ اطمأننت اليه منذ اللحظة الأولى . كان سلوكه ، ولهجته ، وأقواله ، تتمشى مجتمعة مع ملامحه . وكان رنين صوته جليا ، مليئا ، واضح الجرس . كان صوتا عذبا ، جهوريا ، قويا رنانا ، يملأ الأذن ويرن فى الفؤاد . وما كان فى الوسع ان يوجد مرح اكثر اعتدالا ، واكثر لطفا من مرحه .. ولا كياسة اصدق وابسط من سذاجته ، ولا مواهب اكثر تأصلا ونموا وارهافا من مواهبه !.. أضف الى هذا قلبا ودودا ، مسرفا بعض الشىء فى حبه للناس جميعا ، وشخصية فعالة للخير دون ترو !.. وكان ميالا لخدمة الاصدقاء فى حمية، او لعله كان يسعى لاكتساب صداقة أولئك الذين يستطيع ان يخدمهم ، وهو يدرك انه انما يغدو أحذق أداء لشئونه النزيهة ، عندما يخدم بحرارة شئون الغير !

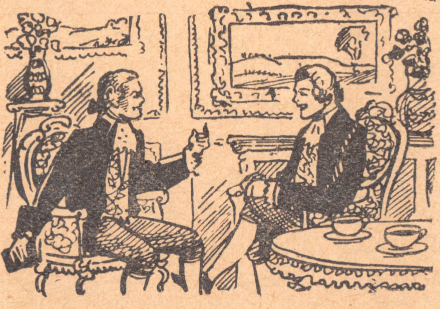
وكان « جوفكور » ابن ساعاتى بسيط ، وكان ـ هو الآخر ـ ساعاتيا ، ولكن شكله وكفاءته قاداه الى جو آخر لم يتلكأ فى أن ينفذ اليه، فقد تعرف الى السيد ديلاكلوسير ـ مندوب فرنسا المقيم فى جنيف ـ الذى أولاه وده ، فاحرز له صلات تعارف أخرى فى باريس ، أجدت عليه نفعا ، واستطاع بنفوذ أصحابها أن يظفر بحق امداد (فاليه) بالملح ، مما عاد عليه بدخل قدره عشرين ألف ليبرة . وقد انتهت به ثروته ـ وهى جد كافية ـ الى هذا الحد فى علاقته بالرجال . اما من ناحية النساء ، فقد كان يجد عناء . كان عليه ان يختار ، وان يفعل ما يشاء. وكان من أندر وأشرف ما امتاز به انه فى علاقاته بالأشخاص ـ من كافة الرتب والدرجات ـ كان محبوبا من الجميع ، مرجوا من الناس طرا ، دون ان يتعرض لحسد أو بغضاء أى شخص . وانى لأعتقد بأنه مات دون ان يرى فى حياته عدوا واحدا ! .. كم كان سعيدا !.. وكان يذهب فى كل عام الى حمامات (ايكس)،

حيث يجتمع خيرة الناس من البلدان المجاورة . واذ كان على ود مع علية القوم فى (سافوا) ، فقد جاء من (ايكس) الى (شامبيرى) لزيارة الكونت « دى بيلجارد » وابيه المركيز دانترمون .. وفى دارهما عرفته « ماما » وعرفتنى به . وقد تجددت هذه المعرفة ــ التى لم يبد اذذاك ان من المقدر لها ان تنتهى الى شىء ، والتى انقطعت عدة سنوات ، بعد ذلك ــ فى مناسبة سأرويها ، وأصبحت ودا وثيقا صادقا . **وهذا كاف لأن يبرر حديثى عن صديق كنت وثيق الارتباط به . وحتى اذا لم يكن ثمة مصلحة شخصية فى تذكره ، فانه كان رجلا حبيبا ، ولد سعيدا ، حتى اننى أعتقد دائما ان ذكراه جديرة بأن تبقى ، لتكون فخرا للجنس البشرى . ومن المحقق انه كانت لهذا الرجل الساحر أخطاؤه ، كغيره من البشر ، وكما سيتجلى فيما بعد . ولكن ، لعله كان يغدو أقل استثارا بالمحبة اذا لم تكن له اخطاء . فقد كان من الضرورى ــ لجعله جديرا بالاهتمام الى أقصى ما كان ممكنا ــ ان يوجد فى مسلكه ما يستحق الصفح والغفران !**

وهناك علاقة أخرى تمت الى ذلك العهد ، ولم تفتر بعد ، بل انها لا تزال توعز الى بالأمل فى الهناء الدنيوى ، الذى يتعذر موته فى قلب الانسان . فلقد شغف السيد « دى كونزييه » ــ وهو سيد من أبناء (سافو) ، كان اذذاك شابا لطيفا ــ بتعلم الموسيقى ، أو ــ بالاحرى ــ بالتعرف الى ذلك الذى يتولى تدريسها . ولقد اوتى السيد « دى كونزييه » ذكاء وميلا الى الصداقات الجميلة ، وكان يقرن هذا بلطف الخلق ، مما جعله لين الجانب الى حد كبير ، مثلما كنت انا الآخر ــ الى حد كبير كذلك ــ بالنسبة لمن أجدهم على هذه الشاكلة . وسرعان ما توثقت صلتنا(١) ، فان بذور الأدب والفلسفة التى كانت قد بدأت تختمر فى

(١) قدر لى ان أراه بعد ذلك ، وان اجده قد تغير تغيرا شاملا . فياللسيد شوازيل من ساحر قدير ! .. فما قدر لأحد من معارفى القدامى ان ينجو من

رأسي، والتي لم تكن ترتقب سوى شيء من الرعاية والتشجيع لتترعرع لتوها وجدت هذه الرعاية والتشجيع لدى السيد «دى كونزييه»، اذ كان على قدر من الميل الى الموسيقى، فكان فى هذا خير كبير لى، لأن ساعات الدرس راحت تنقضى فى كافة الأشياء عدا التدريب على الألحان . وكنا نتناول الفطور معا ، ونتجاذب الحديث ، ونقرأ بعض المطبوعات الحديثة ، ولا نفوه بكلمة واحدة فى الموسيقى.



وكانت الرسائل المتبادلة بين ((فولتير)) وولى عهد بروسيا قد أحدثت ضجة فى ذلك الحين ، فكنا كثيرا ما نتكلم عن هذين الرجلين الشهيرين ، اللذين ارتقى احدهما العرش بعد ذلك بقليل ، فى حين كان الآخر موضع تشهير ـ بقدر ما هو الآن موضع تمجيد ـ مما كان يجعلنا نرثى فى اخلاص لسوء الطالع الذى بدا انه كان يلاحقه ، والذى كثيرا ما يكون نصيب ذوى المواهب العظيمة • وكان الأمير البروسى قد حظى بقسط من السعادة فى شبابه ، إما فولتير فكان يلوح وكأنه خلق لكى لا يسعد البتة . وكان الاهتمام الذى تولانا نحو كل منهما قد امتد

مقدرته على التبديل !

هذه الاضافة وجدت فى الأصول الأولى المكتوبة بخط روسو ، ولكن لا أثر لها فى طبعة (جنيف) •

الى كل ماكان يتعلق به ، فلم يكن يفوتنا شيء مما كتبه « فولتير » . وقد ألهمتنى المتعة التى حظيت بها من هذه المطالعات ، بالرغبة فى أن اتعلم الكتابة البليغة ، وان احاول أن اقلد ما لهذا المؤلف من أسلوب بديع ، كنت مفتونا به . ولقد ظهر بعد ذلك بقليل كتابه « الرسائل الفلسفية » ، ومع انه لم يكن افضل مؤلفاته ، الا انه كان أعظم ما اجتذبنى الى الدرس ، ومنذ ولد فى هذا الميل ، لم يقدر له ان يخبو او يفتر !

على ان الوقت لم يكن قد حان بعد كي اتفرغ للأدب تفرغا تاما ، اذ كانت لا تزال لدى بقية من النزق ، والرغبة فى الغدو والرواح ، التى كانت قد هدأت وان لم تكن قد خمدت ، والتى وجدت ما يغذيها فى سياق العيش فى بيت مدام دى فاران .. فقد كانت الحياة هناك اكثر صخبا من ان تلائم مزاجي الانعزالى ، اذ ان سيل الاغراب الذين كانوا يتدفقون عليها من كافة الارجاء ، واقتناعى بأنهم لم يكونوا يسعون الا الى التغرير بها — كل بطريقته — جعلا حياتى فى البيت عذابا منتظما !.. فمنذ ان خلفت « كلودآنيه » فى الظفر بثقة مولاته ، رحت اتعقب عن كثب تطور شئونها ، وأرى تدهورها الذى كان يزعجنى . **ولقد اطلعتها ، وتوسلت اليها ، وضغطت عليها ، ورحت اناشدها مائة مرة ، ولكن دون ما جدوى على الاطلاق ! .. لقد ارتميت على قدميها ، وعرضت عليها — بأقوى ما وسعنى — النكبة التى كانت تتهددها ، ورحت انصحها فى الحاح بأن تحد من نفقاتها ، وان تبدأ بتطبيق ذلك على أنا ، وان تعانى قليلا من الحرمان وهى بعد لا تزال شابة ، بدلا من ان تضاعف ديونها ودائنيها باستمرار ، مما يعرضها لمضايقاتهم وللفاقة ايام شيخوختها .. ومس صدق تحمسى عواطفها ، فجارتنى فى شعورى ، ووعدتنى بأجمل مافى الدنيا من وعود . ولكن كل شيء كان يغدو منسيا ، بمجرد ان يصل أحد الأفاقين !** وبعد ألف دليل على عدم جدوى ارشاداتى ، ما الذى تراه قد بقى لى — كي افعله — سوى ان

افض بصرى عن الشر الذى لم اكن املك دفعه ؟ .. لقد رحت أنأى عن البيت الذى عجزت عن حراسة بابه ، واخذت أقوم برحلات قصيرة الى (نيون) و (جنيف) و (ليون) ، شغلت بالى عن همى الكظيم ، بينما كانت — فى الوقت ذاته — تزيد من عبئه ، نظرا لنفقاتى ! .. وبوسعى ان اقسم بأننى كنت خليقا بأن اتحمل بأغتباط كل تضييق ، لو ان « ماما » كانت تنتفع حقا من ذلك الاقتصاد .. ولكنى كنت موقنا من ان ما كنت احرم نفسى منه ، كان ينتقل الى الافاقين ، ومن ثم فاننى كنت اسىء استغلال سخائها لكى اقاسمهم ما كانت تغدقه عليهم .. وكالكلب العائد من المذبح ، كنت استولى على قضمة من القطعة التى لم استطع ان انقذها من الكلاب الأخرى !

ولم تكن تعوزنى الحجج لتبرير كل هذه الرحلات ، وكانت «ماما» وحدها تغذينى بهذه الحجج ، اذ كان لديها الكثير من الاتصالات ، والمباحثات ، والشئون ، والمهام التى تحتاج الى شخص موثوق به . ولم يكن عليها سوى ان توفدنى، كما اننى لم أكن أرجو سوى ان اذهب .. ولم تخفق هذه الحال فى تهيئة حياة مليئة بالترحال . ولقد هيأت لى هذه الرحلات فرص عقد صلات تعارف طيبة ، كانت — فيما بعد — مستحبة ونافعة . ومن هذه الصلات التى عقدتها فى (ليون) معرفتى بالسيد « بريشون » — وهى المعرفة التى ألوم نفسى لأننى لم اعمل على تنميتها بدرجة كافية، رغم ما كان السيد قد ابداه لى من طيبة وكرم — ثم تعرفى الى « باريسو » الطيب ، الذى سأتحدث عنه فى حينه .. وفى (جرينوبل) تعرفت الى السيدة « دى ديبان » ، والسيدة حرم رئيس « الباردونانش » (١) ، وكانت امرأة جمة الذكاء ، على استعداد لأن تؤثرنى بودها لو اننى اوتيت مزيدا من الفرص لزيارتها .. وفى (جنيف) تعرفت

BARDONANCHE

الى السيد « ديلا كلوسير » ـ مندوب فرنسا المقيم ـ الذى حدثنى فى احيان كثيرة عن أمى ، التى كانت لاتزال تحتل مكانة فى فؤاده ، برغم الموت والزمن . . كما تعرفت الى السيدين «باربيو» ، وكان الأب منهما ـ وقد اعتاد ان ينادينى بابنه الأصغر ـ حلو المعشر ، ومن اجدر من عرفتهم بالاحترام .

وقد قدر لهذين المواطنين ان ينحازا الى فريقين متعارضين ـ أثناء اضطرابات الجمهورية ـ فكان الابن فى صفوف «البورجوازيين» ، بينما كان الأب فى صفوف الطبقة الحاكمة . وعندما حمل كل من الفريقين السلاح ضد الآخر ـ فى سنة ١٧٣٧ ـ كنت فى (جنيف) ، فقدر لى ان أرى الأب والابن يخرجان مسلحين من بيت واحد ، احدهما ليذهب الى دار محافظة المدينة ، والآخر ليذهب الى مركز قيادته ، وهما موقنان من انهما لن يلبثا ان يجدا نفسيهما ـ بعد ساعتين ـ وجها لوجه ، معرضين لأن يقتل كل منهما الآخر ! . . ولقد ترك هذا المنظر الرهيب طابعا عميقا فى نفسى ، حتى اننى أقسمت أن لا اشترك قط فى أية حرب أهلية ، وان لا أذود بالسلاح عن الحرية ـ فى داخل البلاد ـ سواء بنفسى أو بتحبيذى ، اذا ما قدر لى ان امارس حقوقى كمواطن . وانى لأشهد بأننى وفيت بهذا العهد فى مناسبة عسيرة ، ولسوف يتبين ـ أو هكذا أظن ، على الاقل ـ ان هذا الاعتدال كان ذا فوائد جمة

على انى لم اكن قد بلغت ـ بعد ـ هذا الفوران الأول للوطنية ، الذى اثارته جنيف ـ بتسلحها ـ فى فؤادى . وللمرء ان يحكم على مدى بعدى من ذلك على ضوء واقعة خطيرة أثرت على ، وقد نسيت ان اذكرها فى مكانها ، ويجب ان لا اغفلها : ذلك ان خالى برنار كان قد انتقل منذ سنوات عديدة الى (كارولينا) (١)

(١) الظاهر أن « روسو » يقصد (كارولينا الجنوبية) ، وهى احدى ولايات امريكا الشمالية القائمة على الساحل الجنوبى للمحيط الاطلسى . وتعتبر (تشارلستون) من اكبر مدنها .

لانشاء مدينة (تشارلستون) ، التى وضع تصميمها . وما لبث ان مات بعد ذلك بقليل . كذلك مات ابن خالى المسكين ، فى خدمة ملك بروسيا . وهكذا فقدت عمتى ابنها وزوجها فى آن واحد تقريبا ، فأدى هذان المصابان الى اذكاء ودها لأقرب قريب بقى لها ، وهو أنا .. فكنت اذا ما ذهبت الى (جنيف) انزل لديها ، وكنت أتسلى بأن أنبش الكتب والأوراق التى تركها خالى ، وأقلب صفحاتها . وقد وجدت كثيرا من الأشياء العجيبة ، من بينها اوراق ماكان أحد ليحدس وجودها يقينا. وكانت عمتي – التى لم تعلق اهمية تذكر على تلك الاوراق – على استعداد لأن تدعنى آخذها جميعا، لو اننى شئت ذلك . على اننى قنعت بكتابين او ثلاثة، تحمل تعليقات وشرحا بخط جدى برنار القس ، ومنها مؤلفات «روهو» اليتيمة (١) ، وقد طبعت فى مجلد من حجم « ربع القطع » (٢)، وملئت هوامشها بملاحظات رائعة ، حببت الى العلوم الرياضية. ولقد بقى هذا الكتاب بين كتب مدام دى فاران ، وانى لأشعر بالحزن دائما لاننى لم احتفظ به . وقد أضفت الى هذه الكتب خمسا أو ستا من المذكرات المخطوطة ، **وواحدة مطبوعة هى المذكرة الشهيرة التى كتبها ((ميشيلى دوكريه)) ، وكان رجلا عظيم العبقرية ، عالما متنورا ، ولكنه كثير الشطط فى آرائه ، فلقى معاملة سيئة من حكام (جنيف) . وقد مات مؤخرا فى قلعة (اريبرج) ، حيث ظل سجينا اعواما طويلة، لأنه – على ماقيل– اشترك فى مؤامرة (بيرن) !**

وكانت هذه المذكرة نقدا رصينا عادلا لتلك الخطة الكبيرة ، والسخيفة ، التى وضعت للتحصينات، والتى حقق جزء منها فى (جنيف) ، وقد كانت اضحوكة كبرى لدى الخبراء الذين لم

(١) أى التى لم تنشر الا بعد موت مؤلفها .

(٢) يكاد يعادل ضعف حجم « كتابي » و « مطبوعات كتابي » أو يزيد قليلا في العرض .

يدركوا ما كان للمجلس (١) من غاية سرية من وراء تنفيذ هذا المشروع الهائل . ولما كان السيد « ميشيلى » قد أقصى عن « هيئة التحصينات » لأنه عاب المشروع، فقد اعتقد ان بوسعه كعضو من « المائتين » (٢) — وكمواطن كذلك — ان يعلن رأيه بمزيد من الاسهاب ، وهذا ما فعله فى مذكرته هذه، التى اقدم — فى غير حكمة — على طبعها ، ولكنه لم ينشرها ، لأنه لم يطبع منها سوى عدد محدود من النسخ ، ارسله الى «المائتين» .. ولكن هذه النسخ صودرت جميعا فى البريد ، بأمر من المجلس الاستشارى الصغير (٣) . ولقد وجدت هذه المذكرة بين اوراق خالى ، مع الرد الذى عهد اليه بوضعه ، فأخذت كلا منهما . وكنت قد قمت بهذه الرحلة عقب انفصالى عن « المساحة » بقليل ، ولما ازل على بعض الارتباط بالمستشار «كوتشيللى» ، الذى كان رئيسا لها . وقد حدث — بعد وقت قصير — ان رجانى مدير الجمارك ان أقوم بدور الاشبين لطفله . وكانت السيدة « دى كوتشيللى » هى الاشبينة ، فأدار هذا التكريم رأسى ، وحاولت — وأنا مزهو بأن اغدو فى مكانة جد قريبة من مكانة السيد المستشار — ان اقوم بعمل ذى قيمة ، لأبدو جديرا بمثل هذا الشرف العظيم . . وانسياقا وراء هذه الفكرة ، لم أر افضل من ان اطلعه على مذكرتى المطبوعة التى ألفها السيد «ميشيلى» ، والتى كانت — فى الحقيقة — تحفة نادرة، كى ابرهن له على اننى انتمى الى علية القوم فى(جنيف)، ممن كانوا يعرفون اسرار الدولة !.. على اننى — بدافع من شيء من الحذر ، لم اكن ادرى مأتاه — لم أطلعه قط على رد خالى عن المذكرة ، ولعل ذلك كان راجعا الى ان الرد كان بخط

(١) المجلس الذى كان يضم عددا من المستشارين ، ويتولى حكم جنيف .
(٢) مجلس المائتين .. يظهر أنه كان مجلسا نيابيا يضم ذوى المواهب فى جنيف ، بمثابة مجلس للنواب .
(٣) مجلس الشيوخ .

اليد ، وانه لم يكن ليليق بمقام المستشار سوى كل مطبوع!.. بيد انه شعر بقيمة كبرى للوثيقة التى كنت من الغباء بحيث ائتمنته عليها ، فلم يقدر لى قط ان استرجعها أو ان أراها ثانية .. حتى اذا ايقنت من عدم جدوى جهودى ، رأيت ان استغل الأمر ، وان أحول السرقة الى هدية !.. ولست ارتاب اطلاقا فى انه قد أحسن استغلال هذه التحفة فى بلاط (تورين) — فقد كانت طريفة اكثر مما كانت نافعة — **وانه عنى ، بطريقة أو بأخرى ، بالحصول على مبلغ كبير من المال كان من الطبيعى ان يزعم انه انفقه فى الحصول عليها!.. ولما كان من اقل احداث المستقبل احتمالا وامكانا — لحسن الحظ — ان يقدم ملك سردينيا يوما على حصار (جنيف) ، وان لم يكن هذا الأمر مستحيلا ، فقد ظللت دائما ألوم غرورى الأحمق الذى جعلنى اكشف مواطن الضعف فى استحكامات المدينة ، لألد أعدائها !**

* * *

• **وقضيت** عامين او ثلاثة على هذه الحال ، بين الموسيقى ، والحكام ، والمشروعات ، والرحلات .. أتنقل دائما من أمر الى آخر ، وانشد دائما الاستقرار دون ان ادرى فيم أستقر ، ولكنى كنت اتجه تدريجا الى الدراسة ، وألتقى برجال الأدب ، وأسمع الأحاديث الأدبية ، واجرؤ — فى بعض الأحيان — على ان أخوضها أنا الآخر ، مقتبسا أساليب الكتب بدلا من ان أستوعب محتوياتها ! وكنت اقوم بين آن وآخر ، اثناء رحلاتى الى (جنيف) ، بزيارات عابرة لصديقى القديم السيد سيمون ، الذى أذكى كثيرا تحمسى الوليد للادب بتزويدى بأحدث الأنباء عن «دولته» ، وهى انباء كان يأخذها عن « بايـيه » أو عن «كولوميه» . كذلك كثيرا ما كنت التقى فى (شامبيرى) بواحد من (اليعاقبة) كان استاذا لعلوم الطبيعة ، وراهبا صالحا . ولقد نسيت اسمه ، ولكنه كثيرا ما كان يقوم بتجارب صغيرة اثارت

اهتمامى للغاية، فوددت ان احذو حذوه فأصنع المداد العاطفى (١) . وللوصول الى هـذه الغاية ، ملأت زجاجة الى ما فوق منتصفها بالجير الحى ، وبمادة مركبة من الزرنيخ والـكبريت والماء ، ثم احكمت سدادها . وبدأ التفاعل فى الحال – تقريبا – وبعنف شديد ، فأسرعت الى الزجاجة لأزيل سدادتها ، **ولكنى لم أصل فى الوقت المناسب ، فاذا بهـا تقفز فى وجهى وكأنهـا قنبلة .. وابتلعت الزرنيخ والحديد والجير، فكدت أموت ! وقد**



مكثت اكثر من ستة أسابيع وانا أعمى ، وادركت من ذلك اننى يجب ان لا اقحم نفسى فى تجارب العلوم الطبيعية ، دون المام بالعناصر المستخدمة !

وقـد ألحقت هـذه المغامرة ضررا بصحتى ، التى كانت فى انحدار محسوس منذ فترة من الزمن . ولست ادرى من اين جاءنى هذا الانهيار ، فقد كنت حسن البنيان ، ولم اكن اقدم على أى افراط، من أى نوع، ومع ذلك فاننى كنت انهار بجلاء!

---

(١) نوع من المداد يعرف عادة باسم « المداد السرى » ، ولعل « روسو » أسماه المداد العاطفى ، لأنه كان يستخدم فى المراسلات الغرامية ، فما أن يجف حتى تبدو الورقة وكأنها خالية من الكتابة ، الى أن تعرض لحرارة اللهب فيبرز ما تحتويه !

ولقد كنت جيد التركيب، عريض الصدر ، مما كان يتيح لرئتى فراغا كافيا كى تتحركا بسهولة .. ولكنى كنت – رغم ذلك – قصير الانفاس ، وكنت أشعر بضيق ، وأرسل الزفرات دون ارادة منى . ولقد أصبت باضطراب فى القلب ، وأخذت ابصق دما ، واستولت على الحمى البطيئة التى لم تفارقنى تماما على الاطلاق .. فكيف يقع المرء فى مثل هذه الحال وهو فى زهرة العمر ، دون ان يكون ثمة أذى داخلى على الاطلاق ، ودون ان يكون قد فعل ما يقضى على صحته ؟

ويقال احيانا ان السيف يبلى القراب . وهذه هى قصتى ، فان شهواتى قد احيتنى ، وشهواتى قد أماتتنى!.. وقد يقال: اية شهوات؟.. كانت توافه .. كانت اكثر امور الدنيا انطباعا بالطابع الصبيانى،ولكنها كانت تثيرنى كما كان خليقا ان يثيرنى الاستيلاء على هيلين(١)، او على عرش الكون !.. وكانت النساء فى مقدمة هذه المثيرات ! فكانت حواسى تحتفظ بهدوئها ، اذا ما ظفرت بواحدة ، ولكن قلبى لم يكن يعرف الهدوء قط ! كانت مستلزمات الهوى تنهشنى وانا فى غمرة اللذة . وكنت قد اوتيت اما حنونا ، وصديقة حبيبة ، **غير انه كان لابد لى من عشيقة . وكنت اتمثل العشيقة المنشودة فى مكان ((ماما)) ، واصورها لنفسى فى ألف صورة ووضع، لكى أموه على نفسى!.. ولو اننى تذكرت – وانا اعانقها – اننى انما كنت أضم ((ماما)) بين ذراعى ، لما فترت حرارة عناقى ، ولكن كافة شهواتى كانت خليقة بأن تخبو ، وكنت أبكى وجدا ، ولا استمتع بلذة !.. لذة ؟ .. أفخلق هذا الحظ ليكون من نصيب الانسان ؟ .. آه ، لو انه قدر لى يوما – بل مرة واحدة فى حياتى – ان اتذوق**

(١) هيلين الطروادية : كانت أجمل نساء الاغريق ، وقد تزوجت من « منيلاوس » ، ملك اسبرطة .. ولكن باريس – أمير طراودة – اختطفها ، فشن أمراء اليونان حربا على طروادة دامت عشر سنوات ، وانتهت برد هيلين الى زوجها .

كل لذاذات الحب فى أوج تدفقها ، فانى اعتقد ان كيانى الهش لم يكن ليقوى على الاحتمال .. كنت قمينا بأن أموت فى مكانى !

وهكذا كنت اكتوى بالحب ، دون ما هدف . ولعل هذه الحال هى اشد الحالات ارهاقا ! .. وكنت قلقا معذبا لسوء حال شئون «ماما» المسكينة ، ولتصرفاتها غير الحكيمة ، التى كان مآلها ان تقود الى خرابها تماما ، فى وقت قصير . وكان خيالى القاسى - الذى يسبق المصائب دائما - يصور لى هذه المصيبة بالذات ، دون انقطاع ، وبكل مداها ، وبكافة نتائجها ! .. فرأيت نفسى ، مقدما ، مضطرا الى ان افترق - بحكم الفاقة - عن تلك التى كرست لها حياتى ، والتى لم يكن بوسعى ان استمتع بهذه الحياة ، بدونها ! .. وهكذا كنت دواما مضطرب النفس .. كانت الشهوات والمخاوف تنهشنى بالتناوب !

وكانت الموسيقى - بالنسبة لى - شهوة اخرى ، أقل عتوا ولكنها لم تكن اقل ارهاقا ، بفضل التحمس الذى ارتميت به فى غمرتها ، وبفضل الدراسة الدائبة لكتب «رامو» المبهمة ، وبفضل اصرارى العنيد على الرغبة فى ان احشو بها ذاكرتى التى كانت ترفضها دائما ، وبفضل الجرى المستمر (١) ، وبفضل تلك المجموعات الهائلة التى كنت اراكمها ، وكثيرا ما كنت أقضى ليالى بأسرها فى نسخها ..

ولكن ، لماذا أقتصر على الشهوات الدائمة ، فى حين ان كل النزوات التى كانت تمر بخاطرى دون انقطاع : الاهواء العابرة التى لا تمكث سوى يوم واحد ، كرحلة ، أو حفلة موسيقية ، أو عشاء ، أو نزهة اود ان أقوم بها ، او قصة أريد ان أقرأها ، او مسرحية فكهة احب ان اشهدها .. كل هذه الاشياء التى كانت ابعد ما فى الدنيا عن مسراتى وعن اعمالى ، أصبحت لدى بدورها بمثابة شهوات عديدة عنيفة ، كانت فى جيشانها المستهجن تسبب لى اصدق الوان العذاب ! .. بل ان قراءة

(١) يقصد التنقل والترحال باستمرار .

مصائب « كليفلاند » الخيالية ـ وهى القراءة التى كنت أقبل عليها فى نهم ، والتى كثيرا ما كنت اعجز عن الاسترسال فيها ـ كانت تثير أشجانى ، فيما اعتقد ، اكثر مما كانت تثيرها مصائبى !

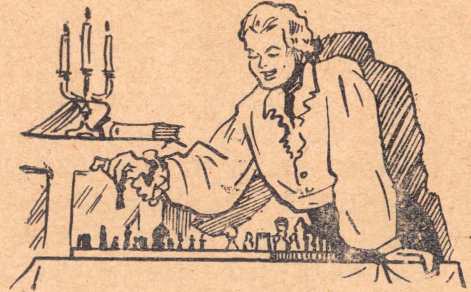
وكان ثمة شخص من ابناء (جنيف) يدعى السيد «باجيريه» ، عمل فترة فى خدمة بطرس الأكبر فى البلاط الروسى . وقد كان من اعظم الأوغاد ، ومن اشد الحمقى الذين رأيتهم فى حياتى .. **وكان دائما يفكر فى مشروعات تماثله حماقة ، فقد كان ينثر الملايين كالمطر ، ولم تكن الأصفار تكبده شيئا (١) .. واذ جاء هذا الرجل الى (شامبيرى) من اجل بعض قضايا كانت معروضة على مجلس الشيوخ ، فقد استولى على ارادة «ماما» ، كما كان متوقعا . وفى مقابل كنوزه من الأصفار ـ التى كان يغدقها بسخاء ـ اخذ يبتز منها تلك الدنانير البائسة ، قطعة بعد قطعة !** .. ولم أحبه اطلاقا ، وقد أدرك هو ذلك ـ فما كان الامر يوما بالمهمة العسيرة (٢) ـ فلم يدع نوعا من الخسة لم يستخدمه كى يتقرب الى .. وآلى على نفسه ان يغرينى بتعلم الشطرنج ، رغم انه كان لا يحذقه !.. ولقد حاولت ذلك ، بالرغم من نفسى تقريبا . وبعد ان تعلمت الحركات فى غير ما اكتراث بما اذا كانت صوابا أو خطأ ، اذا بتقدمى يتزايد سريعا ، حتى أننى استطعت قبل نهاية الجلسة الأولى أن أرد اليه الهزيمة التى كان قد اذاقنيها فى البداية ! .. ولم اقنع بذلك ، فقد شغفت بالشطرنج ، وابتعت طاقما ، كما اشتريت «الكالابروا» (٣) ،

(١) يقصد أن الرجل كان يدعي الثراء وهو لا يملك شيئا .

(٢) يريد « روسو » بذلك أن عرفان عواطفه وما يجول بنفسه ، لم يكن بالمهمة العسيرة على أي شخص .

(٣) « الكالابروا » رسالة في الشطرنج ، وضعها لاعب ايطالى ماهر كان يدعي « جيواكينو جريكو » ، عاش في عهد لويس الرابع عشر .

واحتبست نفسى فى غرفتى ، ورحت اقضى الأيام والليالى فى السعى لتعلم كل الحركات الافتتاحية عن ظهر قلب ، وحشو رأسى بها طوعا أو كراهية ، وانا ألعب وحيدا ، دون ما هوادة



ولا نهاية ! .. وبعد شهرين او ثلاثة من هـذا العمل الشاق ، والجهود التى تفوق الخيال ، ذهبت الى المقهى وانا واهن ، شاحب ، متلبد الذهن تقريبا . وقمت بتجربة ، فلعبت مرة اخرى مع السيد « باجيريه » .. وهزمنى مرة ، فاثنتين ، فعشرين مرة ، فقد اختلطت كثير من الترتيبات المختلفة فى رأسى ، كما كان خيالى بالغ الوهن ، حتى اننى لم أعد ارى أمامى سوى سحابة غائمة ! .. وفى كل مرة حاولت فيها ان اتدرب لحفظ الحركات ، بمعونة كتاب « فيليدور » او كتاب « ستاما » ، كان يحدث لى عين الشىء .. وبعد ان انهك قواى ، أجد نفسى اشد ضعفا من ذى قبل . وسواء كنت قد هجرت الشطرنج ، او اننى وجدت فى لعبه متنفسا لى ، فاننى لم أحرز أبدا أى تقدم منذ تلك الجلسة الاولى ، حتى انى لأجد نفسى دائما حيث انتهيت اذ ذاك ، ولو اننى تدربت آلاف القرون لما انتهيت الا الى اعطاء « باجيريه » الدور ، فحسب ! .. وقد تقول : هكذا يستغل الوقت على احسن

وجه ! .. والحق ان الوقت الذى انفقته فى ذلك لم يكن قليلا، وما كففت عن المحاولة الاولى الا عندما لم تعد لدى طاقة على الاستمرار.. **وعندما ظهرت خارج غرفتى ، كنت أبدو كشخص خارج من قبر . ولو اننى استمررت على النهج ذاته ، لما ظللت « خارجا من القبر » طويلا ! (١)** . وان المرء ليقر بأن من العسير – لا سيما فى تحمس الشباب – ان يدع مثل هذا الرأس جسد صاحبه فى صحة !

ولقد أثر تداعى صحتى على طبعى ، كما هدأ من حمية خيالى . فما ان شعرت بضعفى حتى ازددت هدوءا ، وفقدت بعض شغفي بالأسفار . واذ ازددت استقرارا ، تعرضت لا للملل ، وانما للأسى والسوداء ، **فاذا التهوس يحل محل الشهوات والعواطف المشبوبة ، واذا ذبولى ينقلب حزنا واكتئابا، وأصبحت أبكى واتنهد دون ما سبب ، وشعرت بأن الحياة تفلت منى دون ان اكون قد تذوقتها ، وأخذت اتحسر على الحال التى سأترك « ماما » البائسة فيها ، وعلى الحال التى كنت اراها موشكة على التردى فيها .. وبوسعى ان اقول ان فراقها وتركها فى مسغبة كان مصدر أساى الوحيد ! ..** وأخيرا ، سقطت مريضا حقا ، فراحت تعنى بى كما لم تعن أم بطفلها ، وقد كان فى هذا خير لها هى الاخرى ، اذ حولها عن المشروعات ، وصرفها عن اصحاب المشروعات .. ماكان اعذب الموت لو انه جاء اذ ذاك ! .. واذا لم اكن قد استمتعت بكثير من نعم الحياة ، فاننى لم اشعر الا بقليل من محنها . وكانت روحى الوادعة خليقة بأن ترحل دون الشعور القاسى بظلم الناس .. الشعور الذى يسمم الحياة والموت ! .. وكنت أجد العزاء فى أننى كنت أحيا فى النصف الأفضل من نفسى (٢) ، وهذا لا يكاد يعتبر موتا ! ولولا القلق الذى كنت استشعره

(١) يقصد أنه كان خليقا بأن يلازم القبر .. أى يموت .

(١) نصفه الأفضل هى مدام دى فاران !

ازاء حظها ، لقضيت نحبى وكأننى استسلم للنعاس .. بل ان هواجسى كانت ذات غاية رقيقة لطيفة ، خففت من مرارتها.. ولقد قلت لها يوما : « ان كل كيانى بين يديك ، فاسعديه ! » .. وحدث فى مرتين او ثلاث ـ عند ما كنت فى أسوأ حال ـ ان نهضت فى الليل ، وجررت نفسى الى غرفتها ، لكى اقدم لها نصائح بصدد تصرفاتها .. نصائح أجرؤ على القول بأنها كانت عادلة وحكيمة ، ولكن اهتمامى بمصير « ماما » كان يغلب فى هذه النصائح على كل شيء آخر .. **وكأنما كانت الدموع غذائى ودوائى ، فقد كنت استمد قوة من تلك الدموع التى كنت اذرفها فى قربها ، وانا معها ، جالسا على سريرها ، ممسكا بيديها بين يدى . وكانت الساعات تنصرم ونحن مستغرقان فى هذه الأحاديث الليلية ، ثم اعود الى غرفتى وأنا أحسن حالا مما كنت حين بارحتها ، وقد اغتبطت واطمأننت للوعود التى عاهدتنى عليها ، والآمال التى بثتها فى نفسى.. واذ ذاك ، كنت أنام بقلب مطمئن ، وبثقة فى العناية الالهية** . اننى لأدعو الله ـ بعد ان تعرضت لكثير من الاسباب التى تدعو الى كراهية الحياة وبعد كثير من العواصف التى هزت حياتى وجعلتها مجرد عبء ـ ان يكون الموت الذى قدر له ان يختم هذه الحياة ، اقل قسوة مما كان فى تلك اللحظة !

وبفضل العناية ، والسهر ، والضنى الذى يفوق التصور ، استطاعت « ماما » ان تنقذنى ، ومن المحقق انها الشخص الوحيد الذى كان بوسعه انقاذى. فقد كان ايمانى ضعيفا بدواء الأطباء ، ولكننى اوتيت ايمانا عارما بدواء الأصدقاء الصادقين. والاشياء التى يتوقف عليها هناؤنا ، تفضل كثيرا كافة الأشياء الأخرى ! . . واذا كانت فى الحياة عاطفة مستعذبة ، فانما هى تلك التى استشعرناها اذ عاد كل منا الى الآخر . ولم يزدد شغفنا المتبادل ـ فما كان من الممكن ان يزداد ـ ولكنه اتخذ مزيدا من الألفة ، لا ادرى كيف اشرحه .. وغدا ، فى بساطته

الضافية ، أشد تأثيرا ! .. وهكذا اصبحت بكل كيانى صنع يديها . اصبحت ابنها تماما ، بل واكثر مما لو انها كانت أمى حقا ! .. ودون ما تفكير أو قصد ، لم نعد نفترق ، بل بدأنا ندمج كيانينا فى وجود مشترك ، وداخلنا شعور مشترك بأن كلا منا لم يكن لازما للآخر فحسب ، وانما كان فيه الكفاية والغناء له عن سواه . . **فعودنا نفسينا على ان لانفكر فى أى شىء غريب عنا ، وعلى ان نقصر سعادتنا وكل شهواتنا قصرا تاما على ذلك « الاقتناء » المتبادل (١) ، الذى أحسبه كان فريدا فى نوعه بين البشر ، والذى لم يكن ـ كما قلت ـ صادرا عن هوى فحسب ، وانما كان اقتناء اكثر واقعية من المألوف .. كان ـ دون ما استناد الى الأحاسيس أو الجنس أو السن او المظهر ـ يرتبط بكل مقومات شخصية الفرد !**

ترى كيف قدر لهذه المحنة ان لاتجتلب السعادة الى حياتنا ، حتى آخر أيام « ماما » وايامى ؟ .. لم يكن هذا ذنبى ، ولدى من الدليل ما يعزينى ! .. كذلك لم يكن ذنبها هى ، او لم يكن بارادتها ، على الاقل ! .. فلقد كتب للطبيعة التى لا تلين ، ان تفرض سلطانها (٢) سريعا . على ان هذه النكسة المشئومة لم تكن مفاجئة ، بل كانت ثمة مهلة ، والحمد للسماء ! .. كانت ثمة فترة قصيرة ، وغالية ، لم تنته نتيجة ذنب منى ، ولست ألوم نفسى أو اتهمها باساءة استغلالها !

ذلك اننى ـ وان كنت قد شفيت من مرضى الخطير ـ الا اننى لم استعد قط قواى . فما عادت لصدرى عافيته ، وانما لازمتنى دائما بقية من الحمى ، جعلتنى فى ذبول وكلل . فلم

(١) يقصد بالاقتناء المتبادل ، العلاقة الجنسية الكاملة بينه وبين مدام دى فاران .

(٢) يرمى « روسو » بهذا الى أن حكم الطبيعة ـ ممثلا فى الضعف الذى أصاب صحته ـ هو الذى فرض عليه وعلى مدام دى فاران أن لا يستمرا فى سعادتهما الى نهاية عمريهما .

أعد اصبو الى شيء سوى ان انفق ايامى الى جوار تلك التى كانت عزيزة لدى ، وان اعضدها فى نواياها الطيبة ، وان امكنها من ان تحس بما للحياة الهانئة من سحر حقيقى ، وان اجعل حياتها على هذه الشاكلة ، فيما يتوقف على . بيد اننى رأيت — بل شعرت — أن العزلة المستمرة التى كانت تجمعنا فى بيت معتم كئيب ، لن تلبث ان تتسم هى الأخرى بطابع حزين . ولاح لنا علاج ذلك ، وكأنه قفز من تلقاء نفسه ، حين أوصتنى « ماما » باللبن ، ورغبت فى ان اذهب الى الريف لأتناوله هناك . ووافقتها ، على شريطة ان تذهب معى . وكان هذا كافيا لأن تعقد عزمها ، ولم يبق سوى ان نختار المكان . ولم يكن البستان القائم فى الضاحية ، من الريف تماما .. اذ انه — لوقوعه بين منازل وبساتين اخرى — لم يؤت فتنة المكان الريفى الملائم للاستجمام .. فضلا عن اننا — عقب موت « آنيه » — تخلينا عن البستان رغبة فى الاقتصاد ، اذ لم يعد يراودنا الشوق الى نباتاته النادرة ، كما ان ثمة اعتبارات اخرى حملتنا على ان لا نأسف على فقد هذا المعزل !

وانتهزت — اذ ذاك — فرصة الشعور بالملل الذى لمسته عندها نحو المدينة ، فاقترحت عليها ان تهجرها نهائيا ، وان نستقر معا فى عزلة مستحبة » فى دار صغيرة على بعد كاف لأن يصد المتطفلين ! ولقد كانت على استعداد لأن تفعل ، وكان هذا الاقتراح الذى ألهمنى اياه ملاكها الحارس وملاكى ، كفيلا بأن يضمن لنا — حقا — اياما سعيدة هادئة ، حتى اللحظة التى يفرق فيها الموت بيننا . ولكن هذا لم يكن الحظ الذى قدر لنا ، فقد كتب على « ماما » ان تبتلى بكل بلايا الفاقة وسوء الحال — بعد ان قضت عمرها فى الرخاء — حتى تغادر الدنيا وهى غير آسفة عليها .. اما أنا ، فقد كتب على ان أعانى التعاسات — من كل نوع — كى أصبح يوما مثالا للمرء الذى لا يحدوه سوى حب الصالح العام والعدالة ، بحيث يجرؤ —

وهو غير مسلح بغير براءته وحدها ــ على ان يقول الحقيقة للناس جهارا ، دون مؤازرة الانصار ، ودون ان يؤلف حزبا لحمايته !

ولقد عمل هاجس تعس على استبقاء «ماما» ، فلم تجرؤ على أن تهجر بيتها الحقير ، خوفا من ان تغضب مالكه . وقالت لى : « ان فكرة العزلة التى تقترحها بديعة ، وانها لتروق لى ، ولكن لابد من تدبير أسباب العيش ، حتى فى العزلة . وانى لاتعرض ــ بمبارحة سجنى ــ لأن افقد مصدر عيشى ، فاذا لم يعد لدينا خبز فى الغابات ، اصبح من المحتوم علينا ان نعود الى المدينة بحثا عنه . ولكى نقلل من حاجتنا الى العودة ، يجب ان لانهجر المدينة نهائيا .. فلندفع هذا الايجار البسيط للكونت دى سان لوران ، حتى يدع لى معاشى (١) ، ولنبحث عن مأوى منعزل بعيد عن المدينة بدرجة تمكننا من العيش فى دعة ، وقريب منها بحيث نستطيع ان نعود اليها فى الحال ، اذا مادعت الضرورة »

.. وهذا ما جرى ، فبعد بحث قصير ، استقر بنا المقام فى (شارميت) ، وهى ضيعة كان يمتلكها السيد دى كونزيه ، على مشارف (شامبيرى) ، ولكنها منعزلة وغير مطروقة ، حتى لكأنها تقع على مائة فرسخ منها .. فبين تلين مرتفعين ، يمتد ــ شمالا وجنوبا ــ واد صغير ، يجرى فى أسفله جدول ، تحف به الصخور والاشجار . وعلى احد الجانبين ــ بطول هذا الوادى ــ بضعة بيوت متناثرة ، تناسب كل المناسبة اى امرىء يهفو الى مأوى خلوى منعزل . وبعد ان تفرجنا على بيتين او ثلاثة ــ من هذه البيوت ــ اخترنا فى النهاية أبدعها ، وكان ملكا لسيد فى خدمة الحكومة يدعى السيد « نواريه » . وكان البيت جد ملائم للسكنى ، تقوم أمامه حديقة مرتفعة عن

---

(١) ذكر « روسو » من قبل أن « سان لوران » كان مشرفا على الشئون المالية لبلاط ملك سردينيا ، وأن مدام دى فاران لم تطمئن الى استمرار معاشها الا بعد أن استأجرت منه ذلك البيت الحقير ، فاكتسبت بذلك وده .

سطح الارض ، تعلوها كرمة ، ويمتد تحتها بستان ، وفى مواجهتها غابة من اشجار البلوط ، ونبع قريب . وعلى مرتفع من الجبل ، مروج لرعى الأنعام . ومجمل القول ، توفرت فيه كل مستلزمات الاسرة الريفية الصغيرة التى كنا نعتزم ايواءها هناك . وبقدر ما استطيع ان اتذكر الازمان والتواريخ ، تسلمنا البيت حوالى نهاية صيف سنة ١٧٣٦ . ولقد طربت فى اول ليلة فضيناها هناك ، فقلت لصاحبتى العزيزة وانا أعانقها واغرقها بدموع الحب والابتهاج : **« أواه ، ياماما ! .. ان هذا المقر لهو وكر الهناء والبراءة .. فاذا لم نجدهما هنا ــ وكل منا مع الآخر ــ فليس لنا ان نرجو العثور عليهما فى اى مكان ! »** (١)

---

(١) فى أوائل القرن التاسع عشر ، آل هذا البيت ــ الذى أقام فيه روسو ومدام دى فاران ــ الى كاتب كانت له مؤلفات أدبية وعلمية ، وقد أصدر فى سنة ١٨١٧ كتيبا عن (شارميت) ، سجل فيه كل صغيرة وكبيرة من أوصاف هذا البيت الذى اعتاد السياح أن يترددوا عليه . وقد ثبتت الى جدار المنزل ــ بقرب مدخله ــ لوحة حجرية أمر بوضعها « هيرلو سيشيل » فى سنة ١٧٩٢ ــ عندما كان حاكما للمنطقة ــ وقد نقشت عليها أبيات شعرية تذكرى ، هذا معناها :

« أيها المأوى الذى شغله جان جاك .. انك لتذكرنى بعبقريته ، وبحبه للعزلة ، وبتحمسه وحميته .. وبمصائبه وطيشه .. لقد جرؤ على أن يكرس حياته للمجد والحقيقة .. وكان دائما مضطهدا ، اما بنفسه واما بالحاسدين » !

الكراسة السادسة

سنة ١٧٣٦

« هاك كل ما كنت اتمنى : قطعة أرض غير شاسعة ،
« وحديقة ، ونبع ماء فياض بقرب الدار ،
« والى جانب هذا .. غابة صغيرة .. »

ولم استطع قط أن أضيف الى هذا :

« لقد حبتنى الآلهة .. بأكثر مما اشتهيت » (١)

.. ولكن لا بأس ، فما كنت بحاجة الى اكثر من ذلك ، بل اننى لم اكن بحاجة الى ان امتلك هذه الأشياء ، وانما كان يكفينى ان استمتع بها ! .. ولقد قلت ـ وشعرت ـ منذ أجل طويل ، ان المالك والمنتفع كثيرا ما يكونان شخصين جد مختلفين ، حتى اذا أقصينا الازواج والعشاق عن المقارنة !

هنا يبدأ هناء حياتى القصير ، وهنا أقبلت اللحظات الوادعة ـ وان كانت وجيزة ـ التى أباحت لى الحق فى ان اقول : « أننى عشت » ! .. أيتها اللحظات الغالية ، التى آسى عليها كل الأسى ! .. الا ابدأى من جديد ـ من أجلى ـ سريانك الحبيب ، وتتابعى فى ذاكرتى اكثر بطئا مما كنت فى فراك فى الواقع ، اذا كان هذا ممكنا ! .. كيف لى بأن أطيل ـ كما اشاء ـ هذا الحديث المؤثر ، الساذج ، فأردد نفس الأقوال دائما ، دون أن أبعث فى نفوس قرائى ـ بتكرارها ـ سأما ، اللهم الا اذا سئمت أنا نفسى العود الى ترديدها دون انقطاع ! .. كذلك ، ليت كل هذا يتألف من وقائع ، ومن اعمال ، ومن اقوال استطيع أن أصفها وأن اردها الى الحياة بطريقة ما ، ولكن . . كيف لى ان أقول ما لم يقال ، ولم يفعل ، ولم يطف بخاطر ، ولكنه استمرىء ، بل استشعر ـ ولست املك ان ابين اى سبب آخر لهنائى سوى هذا الشعور البسيط ؟

(١) هذه الابيات من أشعار «هوراس» ، وقد أوردها « روسو » باللاتينية ، وعلق عليها بالسطر الذى قطع به تتابعها .

.. كنت استيقظ مع الشمس ، وانا سعيد .. فاتمشى ، وانا سعيد .. وأرى « ماما » ، وأنا سعيد .. وأفارقها ، وانا سعيد .. وأهيم فى الغابات والربى ، وارتاد الوديان ، وأقرأ ، وأقعد عن العمل ، وأفلح الحديقة ، وأجنى الزهور ، وأساعد فى اعمال البيت .. والهناء يتبعنى فى كل مكان .. لم يكن ينحصر فى شىء معين ، وانما كان يشيع فى كل كيانى ، ولم يكن يفارقنى لحظة واحدة !

ما من شىء جرى لى اثناء تلك الفترة الحبيبة ، ولا من شىء فعلته أو قلته أو فكرت فيه ابانها ، الا بقى فلم يتسرب من ذاكرتى . ان الأوقات التى سبقته ، والأوقات التى لحقته ، لاتوافى ذهنى الا بين آن وآخر ، فأذكرها دون تمييز ، وفى تخبط .. ولكنى اذكر هذه الفترة بأسرها ، وكأنها لا تزال باقية ! ان خيالى الذى كان يتطلع دائما الى الأمام – فى شبابى – والذى أصبح اليوم يلتفت الى الوراء ، يعوضنى بهاتين الذكريين الفاتنتين عن الرجاء الذى فقدته الى الأبد ! فاننى لم أعد أرى فى المستقبل ما يستهوينى ، بل أن رجعات الماضى وحدها هى التى تستطيع ان تهفو بعواطفى .. وهذه الذكريات تمتاز – فى الفترة التى اتحدث عنها – بانها بالغة الحيوية والصدق ، حتى انها كثيرا ما تجعلنى أحيا سعيدا ، رغم بؤسى وسوء حظى !

وانى لأقدم من هذه الذكريات مثالا واحدا يمكن من الحكم على وضوحها وصدقها : ففى أول يوم ذهبنا فيه كى نبيت فى (شارميت) ، كانت « ماما » فى محفة محمولة على الأكتاف ، بينما تبعتها على قدمى . وكان الطريق صاعدا ، وهى ثقيلة الوزن – بعض الشىء – فخشيت ان تضاعف من انهاك قوى الحمالين ، ورغبت فى ان تهبط فى منتصف الطريق تقريبا ، لتقطع ما تبقى منه على قدميها . وفيما كانت تسير ، رأيت شيئا أزرق فى الحسك (١) ، فقالت لى : « ها هو ذا القضاب (٢)

(١) الاعشاب الشوكية التى تحف بالطريق (٢) نوع من النبات البرى



لايزال مزهرا ! . **ولم أكن قد رأيت القضاب قط ، ومع ذلك فاننى لم أنحن لفحصه ، وكنت قصير النظر بدرجة لا تمكننى من أن أتبين النباتات التى على الأرض ، اذا كنت أقف منتصب القامة . واكتفيت بأن ألقيت نظرة على ذلك النبات ، وانا أمر به** .. ولقدمرت ثلاثون سنة تقريبا، قبل انأرى أى قضاب ـ مرة أخرى ـ أو ألقى اليه بالا . وفى سنة١٧٦٤، كنت فى(كريسييه) مع صديقى السيد « دى بييرو » ، فتسلقنا جبلا صغيرا تقوم على قمته استراحة (صالون) بديعة ، تسمى بحق « بيلفى » ـ المنظر الجميل ـ وكنت قد بدأت اذذاك أهوى دراسة الاعشاب ، بعض الشيء . وفيما كنا نصعد ، ونحن نتأمل الأدغال ، اذا بى أطلق صيحة جذلانة : « آه !.. هاهو ذا القضاب ! » .. وكان ذلك حقا . ولاحظ « دى بييرو » فرحى، ولكنه جهل سببه . ولسوف يعرفه ، اذ اننى أرجو ان يقرأ يوما ما كتبت هنا . وبوسع القارىء ان يحكم ـ من الأثر الذى أحدثته فى نفسى مناسبة تافهة كهذه ـ على مدى التأثير الذى يحدثه كل ما يمت الى تلك الفترة !

* * *

• **على أن** جو الريف لم يرد الى صحتى السابقة اطلاقا . فلقد كنت ذابلا، وقد ازدادت حالى سوءا، ولم أعد أطيق اللبن، فلم يكن ثمة بد من التحول عنه . وكان الماء هو العلاج الشائع ـ اذذاك ـ لكل داء ، فأقبلت على الماء فى غير ما حكمة ، حتى انه كاد يشفينى ، لا من عللى ، وانما من حياتى ! (١) .. ففى كل صباح، كنت أذهب ـ عندما استيقظ ـ الى النبع ، حاملا وعاء كبيرا. وهناك ،كنت اشرب على التعاقب ـ وانا اتمشى ـ ما يعادل ملء زجاجتين . وتحولت نهائيا عن تناول النبيذ فى وجباتى . وكان الماء الذى اعتدت شربه عسر الهضم قليلا ، شأن معظم مياه الجبال. . وموجز القول اننى ظللت على نهجى، حتى اننى ـ فى أقل من شهرين ـ اتلفت تماما معدتى التى كنت احتفظ بها حتى ذلك الوقت فى خير حال ! واذ لم تعد تهضم ، أدركت اننى لا ينبغى ان ارجو لها شفاء .. وفى ذلك الحين بالذات ،وقع لى حادث كان فريدا فى نوعه وفى عواقبه التى لن تنتهى الا بانتهاء حياتى !

ففى ذات صباح لم اكن فيه أسوأ حالا من المعتاد ، كنت ارفع مائدة صغيرة على قوائمها ، واذا بى اشعر باضطراب حاد ـ لايكاد يبدو له سبب ـ فى جميع جسمى . ولست اجد له تشبيها افضل من انه كان مثل نوع من عاصفة هبت فى دمى ، وانتشرت لتوها فى كل اعضاء جسمى ! **واخذت عروقى تنبض بقوة هائلة ، حتى اننى لم اشعر بنبضها فحسب ، وانما سمعته ، لا سيما نبض الشرايين السباتية . وقد صحب ذلك ضوضاء هائلة فى اذنى ، وكانت هذه الضوضاء مؤلفة من ثلاثة أو أربعة أنواع : طنين قوى مكتوم ، وخرير واضح كأنه ينبعث**

(٣) هذا هو نص تعبير « روسو » . ومن الطريف ان كلمة « يشفى » ـ فى العربية ـ تعنى « يبرىء » ، كما تعنى « يهلك » . وهو عين ما اراده « روسو » !

من ماء جار ، وصفير حاد جدا ، ثم النبضات التي ذكرتها ، والتي كان بوسعي أن أعد دقاتها دون ان اجس نبضي أو أمس جسمي بيدي! وكان هذا الصخب الداخلي من الضخامة بحيث انه حرمني من ارهاف السمع الذي كان لدي قبل ذلك ، وجعلني ثقيل السمع ـ لا أصم تماما ـ كما هو شأني منذ ذلك الحين !

وفي الوسع تقدير دهشتي وانزعاجي ، فقد خيل الي انني أموت ، ولزمت سريري ، واستدعى الطبيب فرويت له حالي وانا ارتجف ، اذ كنت اعتبرها بلا علاج ! واعتقد انه شاركني هذا الرأي ، ولكنه قام بما تحتمه عليه مهنته ، وراح يسرد على تعليلات طويلة لم افقه منها شيئا البتة ، ثم عمد ـ تمشيا مع نظريته الرفيعة الشأن ـ الى اجراء « تجارب على كائنات حية » (١) ، وهو العلاج التجريبي الذي طاب له ان يجربه معي ، وكان جد أليم ، ومثير ، وقليل المفعول ، حتى انني سرعان ما تحولت عنه .. وبعد بضعة أسابيع ، رأيت انني لم أتحسن ، ولا ازددت سوءا ، فغادرت فراشي ، واستأنفت حياتي العادية ، مع استمرار نبض عروقي وطنين اذني ، اللذين لم يفارقاني دقيقة واحدة ، منذ ذلك الحين .. أي منذ ثلاثين عاما !

وكنت حتى ذاك الوقت كثير النوم ، فاذا الحرمان التام من النوم ـ الذي رافق كل هذه الاعراض ، والذي ظل يلازمها باستمرار حتى الآن ـ **انتهى الى اقناعي بأنه لم يبق أمامي أجل طويل في الحياة . وقد هدأ هذا الاقتناع من اهتمامي بالشفاء ، فترة من الزمن . واذ رأيت ان ليس بوسعي ان اطيل من حياتي ، فقد اعتزمت ان افيد بأكبر شطر ممكن مما تبقى لي من العمر .** وهذا ما تسنى لي بفضل صنيع فذ أسدته لي الطبيعة ، اذ أعفتني ـ في مثل هذه الحال المشئومة ـ من الآلام التي يبدو انها كانت قمينة بأن تنتابني . كنت اتضايق

---

(١) IN ANIMA VILI اصطلاح يطلق على التجارب العلمية التي تجرى عادة على الحيوانات .

من هذه الضوضاء فى اذنى ، ولكنى لم أكن أعانى منها ، كما أنها لم تكن مصحوبة بأية مضايقات مستمرة أخرى ، اللهم الا الأرق فى أثناء الليل ، وبضيق دائم فى التنفس ،لم يكن ليرقى الى درجة الربو ، ولا كان يبدو محسوسا الا عندما أحاول الجرى ، أو أرهق نفسى فى العمل اكثر مما ينبغى قليلا .

هذا الحادث ــ الذى كان خليقا بأن يقتل بدنى ــ لم يقتل سوى شهواتى،وانى لأبارك السماء فى كل يوم لهذا الأثر السعيد الذى احدثه فى نفسى . وأستطيع ان اقول اننى لم أبدأ العيش الا حين اعتبرت نفسى رجلا ميتا ! . وبينما رحت اقدرالاشياء ــ التى كنت مزمعا ان اتخلى عنها ــ بقيمتها الحقيقية ، شرعت اشغل بالى بأمور أسمى وانبل ، وكأنما كنت اريد ان استبق الزمن الى تلك الأمور التى كان ينبغى ان أبادر الى ادائها ، والتى كنت قد اهملتها ــ حتى ذاك الحين ــ اهمالا شنيعا . كنت كثيرا ما أمسخ الدين وفقا لهواى ، ولكننى لم أكن قط بلا دين على الاطلاق . ولم يكن يكبدنى شيئا ان اعود الى هذا الموضوع الكئيب بالنسبة لكثير من الناس، ولكنه لطيف بالنسبة لامرىء ينشد فيه مادة للأمل والعزاء .. **وكانت ((ماما)) ــ فى هذا الصدد ــ أكثر نفعا لى من كل رجال الدين قاطبة!.. فلم تغفل ــ وهى التى اعتادت ان تضع لكل شىء نهجا خاصا ــ عن ان تطبق هذا على الدين كذاك. وكان منهجها يتألف من أفكار جد متباينة ومفككة : بعضها معقول للغاية ، والأخرى طائشة جدا .. ومن مشاعر مرتبطة بشخصيتها ، ومن أفكار قديمة نبعت من تربيتها** . فالقاعدة ان المؤمنين يتمثلون الله على ضوء انفسهم ، فالطيبون يتمثلونه طيبا ، والخبيثون يتمثلونه خبيثا . . والمؤمنون الحقودون والمتشائمون ، لا يرون سوى الجحيم ، لأنهم يبتغون النقمة للدنيا بأسرها .. اما النفوس المحبة والوادعه ، فانها لاتخشى الجحيم اطلاقا ! . . ومن المدهشات التى لم يقدر لى ان اتغلب عليها قط ، ان رأيت « فينيلون »

الطيب (١) يتحدث عن ذلك فى مؤلفه « تيليماك » ، وكأنه كان يؤمن به حق الايمان ! . . على أننى ارجو ان يكون قد لجأ – اذ ذاك – الى الكذب . . اذ انه لا بد للمرء ، بالرغم من كل اعتبار ، من ان يكذب أحيانا ، اذا ما كان أسقفا ! – وهذه حقيقة يعرفها الجميع ! – اما « ماما » ، فلم تكذب على . **كانت هذه النفس المنزهة عن الغرض ، لا تقوى على ان تتصور الها منتقما دائم السخط ، وما كانت لترى فى الله سوى الرحمة والشفقة ، فى حين ان الاتقياء لا يرون فيه سوى القصاص والعقاب . وكثيرا ما كانت تقول لى انه ليس من العدالة فى شىء ان ينشد الله القصاص منا ، لأنه لم يمنحنا ما يلزم لكى نكون كما يبغى ، ومن ثم فان القصاص يكون بمثابة مطالبتنا بأكثر مما منحنا !** . . والغريب فى الأمر ، انها – رغم عدم ايمانها بالجحيم – لم تتخل قط عن ايمانها بالمطهر (٢)، وقد تأتى هذا عن انها لم تكن تدرى ماتفعله بالنفوس الشريرة ، فما كانت تملك ان تدمغها بالشر ، ولا كانت تملك ان تسلكها فى الصالحين ريثما تغدو صالحة فعلا . . ولا بد فى الواقع من الاعتراف – سواء فى هذه الدنيا أو فى الآخرة – بأن الأشرار مصدر حيرة دائما !

وهناك أمر غريب آخر ، فمن الواضح ان نظرية الخطيئة الكبرى والتكفير ، تنهار بفضل هذا النهج ، حتى ان اساس المسيحية الشائعة ليهتز ، وحتى ان الكاثوليكية لاتعود قادرة على أن تظل قائمة . ومع ذلك فقد كانت « ماما » كاثوليكية صالحة ، او كانت تجهر بذلك ، ومن المؤكد انها كانت تصدر فى جهرها عن ايمان جد صحيح . **وكان يبدو لها ان الناس اعتادوا ان يفسروا الكتاب المقدس فى حرفية وتزمت أكثر مما ينبغى . .**

(١) Fénelon, Télémaque.

(٢) المطهر فى المعتقدات الدينية ، هو الطريق الذى يفضى من النار الى الجنة ، ويقضى فيه البشر – عقب الموت مباشرة – مدة للتكفير عن خطاياهم ، قبل أن يصبحوا أهلا لدخول الجنة !

وكان يلوح لها ان كل ما يقرأ عن العذاب الأبدى يجب ان يؤخذ على انه وعيد أو مجاز وكناية .. وكان موت المسيح يتراءى لها مثالا للخير القدسى ، يرشد النـاس الى ان يحبوا الله وان يتحابوا فيما بينهم على غراره ! .. وموجز القول ، انها كانت وفية للديانة التى اعتنقتها ، وقد تقبلت فى اخلاص كل مقررات العقيدة.. غير انه كان يبدو منها ــ اذا ما نوقشت فى كل مادة على حدة ــ ان عقيدتها تختلف تماما عن الكنيسة التى كانت تقر لها بالولاء دائما .. ولقد أوتيت ــ فوق ذلك ــ سذاجة قلب ، وصراحة أكثر تأثيرا من أى رياء . وكثيرا ما كانت هـذه الصراحة تحـير الناس ، حتى الراهب الذى اعتـاد ان يتلقى اعترافاتها ، والذى لم تكن تخفى عنه شيئا ، فقد اعتادت ان تقول له : « اننى كاثوليكية صالحة ، وأود أن أكون دائما كذلك .. وانى لأعتنق ــ بكل طاقة نفسى ــ مقررات امنا الكنيسة المقدسة ، على اننى لا اتحكم فى ايمانى ، وان كنت اتحكم فى ارادتى ، فأسيطر عليها دون ماتحفظ . وانى لراغبة فى أن اؤمن كل الايمان . فبماذا تطالبنى فوق هذا ؟ »

وانى لأعتقد بأنها كانت خليقة بأن تتبع القانون الخلقى المسيحى ــ ولو لم يكن يوجد ثمة قانون خلقى مسيحى ــ لان مبادئه تتمشى تماما مع اخلاقها . وكانت تفعل كل ما يأمر به ، لكنها كانت قمينة بأن تفعله ولو لم تؤمر به !.. وكانت تحب ان تبدى طاعتها فى الأمور غير المهمة : فمثلا لو كان أكل اللحوم مباحا ــ بل لو انه كان مفروضا ــ فى أيام الصوم ، لصامت عنه فيما بينها وبين الله ، دون اية حاجة لمراعاة الاعتبارات التى تمليها الحكمة . ولكن هذه القواعد الخلقية كانت تتبع دائما مبادىء السيد «دى تافيـل » (١) ، او بالأحرى كانت « ماما » تدعى انهـا لاترى

(١) سبق لروسو ان ذكر ان المسيو دى «تافيل» قد افسد معتقدات مدام دى فاران ، فى سبيل بلوغ مأربه منها فأرسى فى نفسها الاعتقـاد بأن ارضاء شهوات النفس لا يتعارض مع ارضاء الله والضمير !

تناقضا بينها ، **فكانت على استعداد لأن تضاجع عشرين رجلا — فى كل يوم — وهى مطمئنة الضمير ، دون ان يكون لها هم سوى ارضاء الشهوة . وانى لأعرف ان كثيرات من المتدينات لسن اكثر منها ترددا فى هذه الناحية ، ولكن الفارق بينها وبينهن هو انهن ينسقن الى الغواية بفضل شهواتهن ، فى حين انها تنساق بفضل فلسفتها السفسطائية !** .. ولقد كانت فى أثناء اكثر الاحاديث العاطفية تأثيرا — بل واجرؤ على ان اقول : اكثر الاحاديث التهذيبية عبرة — تنساق الى هذا الموضوع ، فلا تتغير هيأتها ، ولا تتغير لهجتها ، ولا يخطر ببالها انها تناقض نفسها . بل انها كانت تقطع تلك الأحاديث — اذا دعت الحاجة — لتتكلم فى هذا الموضوع ، ثم تعود الى حديثها الأول بنفس الهدوء السابق .. وهكذا كانت صادقة فى اقتناعها ، الى درجة ان الأمر كله لم يكن يعدو ان يكون — فى نظرها — مبدأ اجتماعيا يستطيع كل من اوتى ادراكا ان يؤوله أو يطبقه أو ينبذه ، وفقا لنظرته الى الموضوع ، دون اقل تعرض للاساءة الى الله !

ومع اننى — بالتأكيد — لم أكن ارى رأيها فى هذا الموضوع ، الا اننى اعترف بأننى لم أجرؤ على معارضتها ، خجلا منى من ان ابدى من قلة اللطف والأدب ما كانت تتطلبه المعارضة . ولقد كان بوسعى ان أضع قاعدة للآخرين ، وان أحاول ان استثنى نفسى منها (١) . ولكن طباع «ماما» لم تكن فيها الوقاية الكافية لها من ان تسىء استغلال مبادئها ، كما اننى كنت أعرف انها امرأة لا تميل الى التقلب والتلون ، وان استباحة الاستثناء

---

(١) كان روسو لا يقر مدام دى فاران فى فلسفتها السفسطائية التى لقنها اياها المسيو دى تافيل . ولكن هذه الفلسفة بالذات ، هى التى يسرت له ان يصبح عشيقا لمدام دى فاران ، فلو انه هدم هذه الفلسفة — ليمنع قيام مثل هذه العلاقة بين السيدة وغيره من الرجال — لتحتم عليه ان يبحث عن سبيل ليستثنى نفسه ، حتى لا يحرم من حبها !

لنفسي كان معناه ان ادع لها فرصة اباحته لكل من يروق لها ! .. على انني اورد هذا التناقض هنا ـ بين ما أورد من تناقضات ـ بمحض المصادفة ، رغم انه كان دائما قليل الأثر في سلوكها ، بل انه لم يكن ذا أثر البتة ، في ذلك الحين .. غير انني وعدت بأن أعرض مبادئها في صدق واخلاص ، واني لراغب في ان أفي بوعدي

ولأرجع ثانية الى الحديث عن نفسي .. **فما ان وجدت لدى « ماما » كل المبادىء التى كنت بحاجة اليها لأعزز نفسي ضد مخاوف الموت وما وراءه ، حتى أقبلت باطمئنان على هذا المصدر للثقة ، وأصبحت اكثر تعلقا بها منى فى أى وقت آخر ، وكأنما كنت أود ان أنقل اليها الحياة التى كنت أحس بأنها توشك ان تهجرني !.. وترتبت على مضاعفة تعلقي بها ، وعلى الاقتناع بأنه لم يبق أمامى فى الحياة سوى اجل قصير ، وعلى رضائي العميق بما كتب لى فى المستقبل .. ترتبت على كل هذا ، حالة دائمة من الطمأنينة ـ بل ومن اللذة ـ خمدت فيها كافة الانفعالات التى تنأى بالهواجس والآمال عنا ، ولكنها ـ فى الوقت ذاته ـ تركتني أنعم فى سكينة ، ودون ما هم ، بما تبقى فى عمرى من أيام !** .. وكان ثمة عامل ساهم فى جعل هذه الحال اكثر عذوبة ، ذلك هو السعى الى تنمية ميل «ماما» الى الريف ، بكل وسائل اللهو والتسلية التى كان بوسعى توفيرها . وفيما كنت احملها على ان تحب حديقتها ، وساحة دواجنها ، وحماماتها ، وبقراتها ، اكتسبت انا الآخر ميلا نحو هذه جميعا ، واذا بهذه الشواغل البسيطة ـ التى كانت تملأ نهارى دون ان تعكر صفائى ـ تجدينى تحسنا فى صحتى يفوق ما أجدانيه اللبن وسائر الأدوية الاخرى التى استخدمت للمحافظة على كيانى البائس ، الى اقصى ما كان ممكنا !

ووجدنا فى قطف الثمار وجنى الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام ، فأخذنا نزداد شغفا بالحياة الريفية ، وسط الناس

الطيبين الذين كانوا يحيطون بنا . **وشهدنا اقتراب الشتاء بأسف بالغ ، فعدنا الى المدينة وكأننا كنا نذهب الى منفى .. لا سيما انا ، اذ كنت فى ريب من اننى سأشهد الربيع مرة اخرى ، فاعتقدت اننى ودعت (شارميت) الى الأبد . ولم ابرحها دون ان اقبل الأرض والاشجار ، ودون ان ارتد اليها عدة مرات كلما ابتعدت عنها !** ولما كنت قد تخليت ـ منذ زمن طويل ـ عن تلميذاتى ، وفقدت شغفى بملاهى المدينة ومجتمعاتها ، فاننى لم أعد أغادر البيت ، ولم اعد ارى أحدا سوى «ماما» والسيد سالومون ، الذى أصبح ـ منذ قليل ـ طبيبها وطبيبى .. وكان رجلا أمينا ، ذكيا ، « كارتى » (١) متحمس ، يحسن الحديث عن نظام العالم ، وقد عادت على احاديثه العذبة ، المفيدة ، بخير يفوق ما عادت على به كل وصفاته الطبية . وما كنت لأطيق يوما ذلك الغباء وذاك التخبط الأحمق الذى تحفل به الأحاديث العادية ، ولكن الاحاديث النافعة الدسمة تبعث دائما فى نفسى سرورا عارما ، وما اعتدت ان ارفضها قط !.. وقد تولانى ميل شديد الى احاديث السيد سالومون ، فقد لاح لى اننى كنت اكتسب معه ـ سلفا ـ تلك المعلومات الرفيعة التى كان مقدرا لروحى ان تكتسبها حين تتخلص من القيود التى كانت تثقلها . وقد امتد الميل الذى استشعرته نحوه الى الموضوعات التى كان يعالجها ، فشرعت ابحث عن الكتب التى تستطيع ان تساعدنى على ان أحسن فهمه . وكانت الكتب التى تمزج التقوى بالعلوم هى اكثرها ملاءمة لى ، لا سيما كتب «الخطابة» وكتب «بور ـ رويال» (٢) ، التى أخذت أطالعها ، أو بالأحرى ، التهمها . ووقع بين يدى منها كتاب للأب «لامى» عنوانه « احاديث عن العلوم » . وكان

---

(١) أى من اتباع تعاليم « ديكارت »

(٢) من كتب المدرسة اليانسينية . وقد سبق ان اوردنا نبذة عنها فى تعليق سابق

عبارة عن مقدمة للتعريف بالكتب التى تعالج العلوم . وقد قرأته واعدت قراءته مائة مرة ، وعقدت العزم على ان اجعله مرشدى . وألفيتنى فى النهاية أنجذب ، بالرغم من حالتى الصحية ، أو بالأحرى بفضلها ، الى الدراسة دون أن املك مقاومة . وبينما كنت انظر الى كل يوم وكأنه آخر أيامى ، رحت ادرس فى تحمس عارم ، وكأننى سأعيش دوما !.. ولقد قيل لى ان هذا كان ضارا بى ، ولكنى اعتقد ــ من ناحيتى ــ ان هذا قد أفادنى ، لا ذهنيا فحسب ، وانما جسديا كذلك.. **اذ ان هذا الشغل ، الذى شغفت به ، صار مستعذبا لدى ، حتى اننى لم اعد أفكر فى عللى ، ومن ثم أصبحت أقل تأثرا بها . ومن الصحيح يقينا ، ان شيئا لم يوفر لى شفاء حقيقيا ، ولكنى ــ اذ لم أعد أشعر بألم حاد ــ تعودت الوهن ، وعدم النوم ، وأن افكر بدلا من ان اعمل ، و ــ أخيرا ــ أن انظر الى التداعى التدرجى البطىء ، الذى ألم بكيانى ، وكأنه تطور لا مناص منه ، ولا يملك ان يوقفه سوى الموت !**

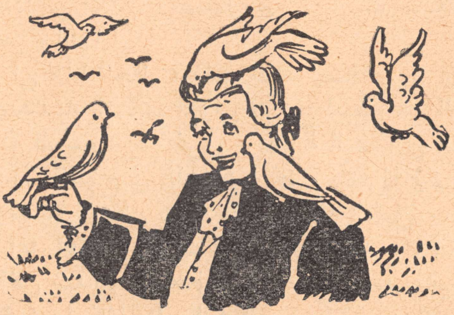
ولم تصرفنى هذه الفكرة عن كل هموم الحياة التى لا جدوى منها فحسب ، وانما اعفتنى أيضا من مضايقات الأدوية التى كنت ــ حتى ذلك الوقت ــ اضطر الى تقبلها مرغما . فان سالومون لم يلبث ان اقتنع بأن هذه العقاقير لم تكن تملك لى انقاذا ، فأعفانى من غضاضتها ، وقنع بأن يهدىء من شجن « ماما » المسكينة ببعض الوصفات غير الضارة ، التى تغر المريض وتحفظ على الطبيب سمعته ! وتحولت عن نظام التغذية الضيق النطاق ، فعدت الى تناول النبيذ وكل مستلزمات حياة الانسان الموفور الصحة ، بقدر ما كانت قواى تسمح . وكنت أقبل على كل شىء فى اعتدال ، ولكنى لم احرم نفسى من شىء البتة !.. بل اننى عدت الى الخروج ، واستأنفت زيارة معارفى ، سيما السيد دى «كونزييه» ، الذى كانت صحبته تروق لى كثيرا . **وقصارى القول ان ارتقاب الموت لم يعق ميلى للدرس ، بل بدا**

انه اذكاه ، سواء كان ذلك راجعا الى اننى رأيت انمن الجميل ان ادرس حتى ساعتى الأخيرة ، او كان راجعا الى ان بقية من الأمل فى الحياة كانت تكمن متوارية فى قرارة قلبى !.. ورحت اسرع فى جمع بعض المعرفة للعالم الآخر ، وكأنما كنت اعتقد اننى لن امتلك فيه من المعرفة سوىالقدر الذى سأحمله اليه. وأصبحت ولوعا بحانوت كتبى يدعى السيد «بوشار» ، اعتاد ان يتردد عليه عدد من رجال الأدب .. وعندما اصبح الربيع ــ الذى كنت اظننى لن اشهده ثانية ــ على الابواب ، جمعت لنفسى عددا من الكتب لأحملها معى الى (شارميت) ، اذا كانلى حظ الرجوع اليها !

واتيح لى هذا الحظ ، فاستغللته لصالحى.. **وان الاغتباط الذى شهدت به البراعم الاولى للربيع ليجل عن الوصف !.. كانت رؤية الربيع مرة اخرى ، بمثابة البعث فى الفردوس .. فما ان بدأت الثلوج فى الذوبان ، حتى هجرنا وكرنا ، ووصلنا الى (شارميت) لنحظى هناك بأولى انغام البلبل . ومنذ ذلك الحين لم اعد افكر فى الموت ! ومن العجيب حقا اننى لم أصب قط بأمراض شديدة الوطأة فى الريف . ولقد عانيت كثيرا من الآلام هناك ، ولكننى لم ألزم السرير أبدا . وكثيرا ما كنت اقول، عندما اشعر بأننىاسوأ حالا من المعتاد: ((عندما تروننى موشكا على الموت ، احملونى الى ظل بلوطة ، وأعدكم بأن اعود اليكم معافى !))**

ومع اننى كنت لا ازال ضعيفا ، الا اننى عاودت اعمالى الريفية ، ولكن بقدر يتناسب مع قواى . وقد عانيت أسى حقيقيا لعدم استطاعتى ان اعنى بالحديقة وحدى.. بيد اننى كنت اذا هويت ست مرات بالمعول ، شعرت بأننى أفقد انفاسى ، وتصبب العرق منى ، وشعرت بعجز عن الاستمرار .. واذا انحنيت ، كان خفقان قلبى يتضاعف ، والدم يندفع الى رأسى بقوة بالغة تضطرني الى الاعتدال سريعا . واذ

اضطررت الى ان اقتصر على اعمال أقل ارهاقا ، فقد تكفلت ـ بين ما اضطلعت به من مهام ـ بأعشاش الحمام ، فشغفت بها جدا ، حتى اننى كثيرا ما كنت اقضى عدة ساعات هناك دون ان اشعر بالملل لحظة .. والحمامة جد هيابة ، وصعبة الترويض ، الا اننى توصلت الى ان ابث فى حماماتى الثقة ، حتى انها راحت تتبعنى فى كل مكان ، وتدعنى أمسكها متى شئت! .. ولم اكن أظهر فى الحديقة أو فى ساحة الدار ، دون ان تحط اثنتان او ثلاث على ذراعى ورأسى فى الحال ! .. وبالرغم من



الغبطة التى كنت استشعرها ، فان هذا الموكب لم يلبث ان غدا متعبا الى درجة اضطررت معها الى ان انبذ هذه الألفة . ولقد اعتدت دائما ان اجد متعة فذة فى استئناس الحيوان ، لا سيما ما يكون منه خجولا وبريا نفورا . وكان يبدو لى من المطرب ان اوحى للحيوان بالثقة ، وما خدعته قط ، اذ كنت أود ان يحبنى بانطلاق ودون قيد !

ولقد ذكرت اننى احضرت معى كتبا .. وقد انتفعت بها ، ولكن بطريقة أقل تمكينا لى من التعلم ، وأدعى الى الحيرة وبلبلة الفكر . فان الفكرة الخاطئة التى كانت لدى عن الأمور ، أغرتنى بأنه لابد لقراءة كتاب قراءة مثمرة ، من ان يحرز المرء

كافة المعلومات الاولية التى يرتبط بها موضوع هذا الكتاب ، دون ان يخطر ببالى ان المؤلف نفسه كثيرا ما لا يكون محيطا بهذه المعلومات .. وانه انما يأخذها عن كتب أخرى ، بقدر ما تدعو الحاجة. **وبهذه الفكرة الدالة على غباء ، رحت أتوقف عن القراءة فى كل لحظة ، مضطراً الى ان ألهث باستمرار من كتاب الى آخر .. وكنت احيانا اضطر الى ان استنفد مكتبات بأسرها ، قبل ان اصل الى الصفحة العاشرة من الكتاب الذى ارجو ان أدرسه !** . . ومع ذلك فاننى اتبعت هذا الأسلوب المجرد من الادراك ، فى اسراف ، حتى اننى بددت وقتا لا حد له ، وأرهقت رأسى الى درجة اننى لم اعد أقوى على رؤية او استيعاب شيء ما .. وفطنت — لحسن الحظ — الى اننى كنت اسلك طريقا خاطئا ، يقودنى الى تيه هائل ، فعدلت عنه قبل ان اضل تماما !

ومهما تكن قلة ما لدى الانسان من ميل حقيقى للعلوم ، فان اول شيء يشعر به حين يقبل على دراسة العلوم ، هو ترابطها الذى يجعلها تتقارب ، وتتعاون ، ويلقى كل منها الضوء على الآخر ، بحيث لا يكون ثمة غنى لواحد منها عن الآخر . ومع ان الذكاء البشرى لا يقوى على ان يسعها جميعا ، بل لابد له دائما من ان يتخذ واحدا منها كأساس ، الا ان المرء كثيرا ما يجد نفسه فى الظلام — لا سيما فى العلم الذى اختاره — اذا هو لم يلم بفكرة عن العلوم الباقية . . ولقد شعرت بأن هذا الذى آليته على نفسي، كان — فى حد ذاته — شيئا طيبا ونافعا ، وانه ليس من حاجة الا الى تبديل الاسلوب . فأقبلت على «دائرة المعارف» اولا ، وقسمتها وفقا لفروعها، ثم رأيت ان لا بد لى من ان افعل العكس تماما ، فأدرس هذه الفروع منفصلة ، وأمضى فى كل منها على حدة ، الى النقطة التى يلتقى عندها بسواه ، فتتحد جميعا . وبهذا عدت الى التقسيم المألوف ، ولكنى عدت اليه وقد أصبحت رجلا يعرف ما ينبغى ان يفعل.

وفى هذا عوضنى التأمل عن المعرفة ، وساعد التفكير الطبيعى للغاية ، على ارشادى للصواب . . **وسواء كان مقدرا لى ان أعيش أو أن أموت ، فقد رأيت أننى لم أوت وقتا أضيعه . وعدم الالمام بشىء – فى سن تقرب من الخامسة والعشرين – مع الرغبة فى التعلم ، يتطلب الانهماك فى الافادة من الوقت . ومع اننى لم اكن ادرى عند اية نقطة قد يحلو للحظ او للموت ان يوقف تحمسى ، الا اننى كنت راغبا مهما تكن الظروف – فى أن ألم بفكرة عن كل شىء، لكى اتبين اتجاه كفاءاتى الطبيعية، اكثر منى لكى أحكم بنفسى على قيمة الجدارة القائمة على التثقف !**

ووجدت فى تنفيذ هذا المشروع فائدة أخرى لم اكن قد فكرت فيها، وهى توفير اطول وقت ممكن، لاستغلاله فى ذلك. ولا بد اننى لم أخلق للدرس ، لأن العكوف عليه طويلا يضجرنى الى درجة انه من المستحيل على ان اضطر نفسى الى الانشغال بموضوع واحد لنصف ساعة بأكمله، سيما حين أكون منصرفا الى متابعة سير تفكير شخص غيرى (١) ، فى حين اننى اقوى احيانا على ان استغرق فى تفكيرى الخاص أمدا أطول ، بل وبتوفيق كبير !.. اما حين اتتبع تفكير مؤلف ما ، لبضع صفحات اضطر الى مطالعتها بامعان واستيعاب ، فان عقلى يشرد ويتوه بين السحاب ! . . فاذا اصررت ، فاننى ارهق نفسى عبثا ، وأصاب بدوار ، ولا أعود أرى شيئا .. أما اذا تعاقبت موضوعات متباينة – ولو كان تعاقبها متواصلا دون امهال – فان الواحد منها يسرى عنى عناء الذى سبقه ، ومن ثم فانى امضى فيها بيسر ، دون ان اشعر بحاجة الى أية مهلة للراحة أو التخفف . ولقد عمدت الى الافادة من هذه الملاحظة فى الخطة التى انتهجتها للدرس ، فرحت امزج الموضوعات

---

(١) كما يحدث حين يقرأ المرء كتابا للدرس ، اذ يحاول ان يتفهم سير تفكير المؤلف ، وان يستوعب اراءه .

بشكل كان يجعلنى أشغل بها طيلة اليوم دون ان أسأم البتة!..
ومن الصحيح ان المهام الريفية والمنزلية كانت تحدث تغييرا نافعا ، ولكننى ـ فى غمرة التحمس المطرد ـ لم ألبث ان وجدت الوسيلة لتوفير وقت للدرس ـ الى جانب اداء هذه المهام ـ ولأن أشغل بأمرين فى آن واحد ، دون ان يخطر لى ان هذا يقلل من اتقانى لكل منهما !

على اننى أعمد الى شىء من التحفظ ، بشأن هذه التفصيلات الدقيقة التى تفتننى ، والتى أثقل بها احيانا على قارئى .. وهو تحفظ لا يحدسه القارىء اطلاقا ، اذا انا لم أعن بتنبيهه اليه.
فهنا ـ على سبيل المثال ـ اذكر فى استعذاب كافة المحاولات المتباينة التى قمت بها لتقسيم وقتى على نمط أتاح لى ان اجد فيه اكثر قدر ممكن من المتعة ومن الفائدة ، فى آن واحد .
وبوسعى ان اقول ان تلك الفترة ، التى قضيتها فى عزلة ، وفى مرض مستمر ، كانت أقل فترات عمرى تعرضا للخمول والضيق . وقد انقضى شهران او ثلاثة على هذا النسق ، فى تعرف اتجاه عقلى ، وفى الاستمتاع ـ فى اجمل فصول السنة ، وفى البقعة التى احالها هذا الفصل فاتنة ـ بسحر الحياة الذى احسست بقيمته تماما : كسحر الزمالة العذبة ، غير المقيدة ـ اذا صح ان نطلق هذا الاسم على معاشرة قامت على اتحاد كامل ـ أو سحر معرفة رائعة كنت اعتزم ان اكتسبها ، ولكننى كنت أنتشى بها وكأننى حصلتها فعلا .. أو لعل نشوتها كانت أشد لأن لذة الدرس والتعلم كانت ذات دخل كبير فى سعادتى!

ومن الواجب التجاوز عن هذه المحاولات ، التى كانت بالنسبة لى مبعث لذة وابتهاج ، ولكنها كانت أبسط من ان تشرح .
فأنا اكرر ان السعادة الحقة لا توصف ، وانما هى تحس . .
وكلما عز وصفها ، كان الشعور بها أفضل واجمل ، اذ انها ليست نتيجة مجموعة من الوقائع ، وانما هى **حالة دائمة .
اننى كثيرا ما اكرر نفسى ، ولكننى خليق بأن ازداد تكرارا ، لو**

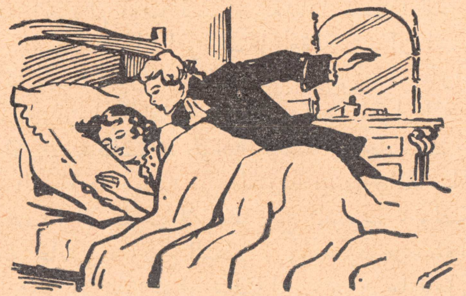
اننى رويت الشيء الواحد بعدد المرات التى يخطر فيها ببالى ! وعندما اتخذت حياتى — التى كانت كثيرة التغير — مجرى اكثر انتظاما ، فهاكم اقرب وصف ممكن لتوزيع اوقاتى :

كنت استيقظ قبل مشرق الشمس فى كل صباح ، فأمرق خلال بستان مجاور ، الى طريق جد بديعة ، فوق حقول الكروم التى كانت تمتد بطول سفح الجبل حتى (شامبيرى) . وهناك — وأنا اتمشى — كنت أتلو صلاتى ، التى لم تكن تتألف من مجرد تحريك شفتى بتمتمة فارغة ، وانما كانت تتمثل فى سمو صادق بالقلب الى خالق هذه الطبيعة البديعة ، التى كانت آيات جمالها تنبسط امام عينى .. فما أحببت قط أداء الصلاة فى الحجرة ، فقد كانت الجدران وكل تلك الأشياء التى من صنع الانسان ، تبدو لى دائما وكأنها تحول بينى وبين الله..

وانى لأحب ان افكر فيه واتأمل آياته ، بينما يكون فؤادى متطلعا اليه . وبوسعى ان اقول ان صلاتى كانت خالصة ، وكانت جديرة — لهذا السبب — بأن تستجاب . ولم اكن اسأل لنفسى — ولتلك التى كانت دعواتى لاتفرق بينى وبينها اطلاقا — سوى حياة بريئة ، مطمئنة ، خالية من الرذيلة (١) ، ومن الألم ، ومن الفاقة المدقعة ، ومن موت الاستقامة .. وما اليها ، فى المستقبل . وفيما عدا ذلك ، كانت هذه العبادة تنصرف فى معظمها الى الاعجاب والتأمل ، اكثر مما تنصرف الى الدعاء والسؤال .. اذ اننى ادرك ان خير وسيلة للحصول من مانح النعم الحقيقية على تلك النعم اللازمة لنا ، هى فى العمل على ان نستحقها ، اكثر مما هى فى طلبها منه!.. وكنت أعود من نزهتى بعد دورة طويلة ، وانا منصرف البال الى تأمل المناظر الريفية المحيطة بى، فى سرور واستمتاع، فهى الوحيدة التى لا تملها العين والقلب ابدا . وكنت أرقب من بعد ما اذا

(١) من الغريب ان يصر « روسو » على ان العلاقة المشينة—مهما تكن مبرراتها — بينه وبين مدام دى فاران ، لم تكن من الرذيلة فى شىء !

كان النهار قد بدأ عند «ماما»، فاذا ما ابصرت نافذتها مفتوحة، ارتجفت غبطة ، وهرعت نحو الدار . اما اذا كانت النافذة مغلقة ، فقد كنت أدلف الى الحديقة وانتظر حتى تستيقظ ، وانا اتسلى باسترجاع مادرست فى المساء السابق ، أو بالعمل فى الحديقة . واذ يفتح مصراعا النافذة ، ابادر لأقبل «ماما» فى فراشها ، وهى لاتزال نصف نائمة ، فى كثير من الأحيان ..



وكان هذا التقبيل طاهرا اكثر منه عاطفيا ، يستمد من براءته - بالذات - سحرا لم يقترن قط بملاذ الحس !

وكنا نفطر عادة على قهوة باللبن . وكانت هذه اكثر فترات النهار هدوءا وسكينة لنا ، فكنا نسترسل فى الحديث على سجيتنا . ولقد خلفت لى هذه الجلسات - التى كانت طويلة فى العادة - ميلا قويا الى الافطار ، وانى لأوثر الطريقة الانجليزية او السويسرية التى تعتبر الافطار وجبة كاملة تضم الأسرة بأكملها ، على الطريقة الفرنسية التى يفطر بمقتضاها كل امرىء فى حجرته بمفرده ، او لا يفطر اطلاقا ، فى الغالب !

وبعد ساعة او اثنتين - تمضيان فى الحديث - كنت اخلو الى كتبى حتى موعد الغداء . وكنت ابدأ بكتاب من كتب الفلسفة ، مثل كتاب «المنطق» لبور-رويال ، و «المقالة» للوك ،

وكتب مالبرانش، وليبنيتز وديكارت، الخ . وسرعان ما كنت الاحظ أن بين هؤلاء المؤلفين تناقضا دائما ، فخطرت لى فكرة خيالية أوحت بالتقريب بينهم ، مما اتعبنى كثيرا وجعلنى ابدد كثيرا من الوقت.. وكنت أربك ذهنى دون ان احرز تقدما ما ! .. واذ طرحت عنى — فى النهاية — هذا الاسلوب كذلك ، انتهجت اسلوبا يفضله بدرجة لا حد لها ، واليه اعزو كل التقدم الذى استطعت ان احرزه ، بالرغم من نقص استعدادى .. فمن المؤكد اننى لم اوت قط استعدادا كبيرا للدرس . ولقد آليت على نفسى — وانا أقرأ لكل مؤلف — ان استوعب كل أفكاره واتتبعها دون ان اخلطها بآرائى ، او بآراء اى مؤلف آخر ، ودون ان اجادلها . بل اننى كنت اقول لنفسى : «لنبدأ باختزان الآراء بدقة — صحيحة كانت أو خاطئة — ريثما يتوفر لعقلى من الغذاء ما يمكنه من المقارنة بينها والمفاضلة » . وانى لأعلم ان هذا الأسلوب لا يخلو من العيوب ، ولكنه أفلح فى تمكينى من غايتى ، وهى التعلم . وبعد بضع سنوات قضيتها فى عدم التفكير الا على غرار سواى ، دون ما تأمل بل وبدون تمحيص ، ألفيت نفسى مالكا لمدخر من العلم كاف لارضائى ، ولتمكينى من ان افكر دون معونة الغير ! .. **وعندما كانت الرحلات والشواغل تحرمنى فرصة اللجوء الى كتبى — فى ذلك الحين — كنت اتسلى باسترجاع ما قرأت والمقارنة بين بعضه وبعض ، فأزن كل شىء بميزان، واصدر — فى بعض الاحيان — أحكاما على اساتذتى . ومع اننى بدأت اشحذ مقدرتى على النقد فى سن متأخرة، الا اننى لم اجد انها قد تبددت. وعندما نشرت آرائى الخاصة ، لم أتهم أبدا بأننى عبد لأساتذتى ، ولا بأننى « احلف بكلمات استاذ ما » ! (١)**

وانتقلت من هذه الدراسات الى مبادىء الهندسة ، التى لم

(١) مثل لاتينى شاع عن تلاميذ فيثاغورس ، الذين كانوا يرددون آراء استاذهم فى ايمان اعمى !

أجاوزها كثيرا قط ، اذ أصررت على ان اقهر ضعف ذاكرتى ، بفضل الرجوع مائة مرة ومرة الى حيث بدأت ، والشروع باستمرار فى تتبع خطواتى السابقة . ولم استسغ تعاليم « يوكليد » (١) ، الذى كان يعنى بتسلسل البراهين ، اكثر من عنايته بترابط الافكار . وفضلت هندسة الأب «لامى» ، الذى أصبح - منذ ذلك الحين - من أحب المؤلفين الى ، والذى أعدت قراءة مؤلفاته فى استمراء.. وجاء الجبر بعد ذلك، فكان الأب «لامى» هو الذى اتخذته مرشدا . حتى اذا تقدمت فى دراستى ، اقبلت على « علم الحساب » للأب «رينو» ، ثم على كتابه « تحاليل تستند الى براهين » ، الذى لم أفعل اكثر من ان مررت به مر الكرام . ولم أمض قط الى الحد الذى افهم عنده تطبيق الجبر على الهندسة، فما أحببت قط هذه الطريقة التى تجعلك تمضى فى العملية الرياضية دون ان تدرى ما الذى تفعله . وكان حل اية مسألةهندسية بالمعادلات الجبرية يبدو لى مثل عزف لحن بالاكتفاء بادارة يد ! (٢)

.. وعندما وجدت بالحساب -لأول مرة - انمربعالمعادلة الجبرية ذات الحدين، يتألف من مربع كل حد من حديها، ومن ضعف حاصل ضرب كل منهما فى الآخر (٣) ،لم أشأ أن أصدق ذلك - رغم صحة عملية الضرب التى اجريتها - الا بعد ان سجلت العملية بالأرقام . وليس معنى هذا اننى لم أوت ميلا عظيما الى الجبر ، لأنه لايعالج سوى كميات مجردة (مبهمة) ، ولكننى كنت - عند تطبيقه على المساحات والابعاد- أحب ان

---

(١) عالم يونانى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، ووضع اصولا للعلوم الرياضية فى١٣ كتابا،خص الهندسة منها بتسعة كتب

(٢) يشبه « روسو » حل المسائل الهندسية بالمعادلات الجبرية ، بادارة يد آلة موسيقية ذات زنبرك ، فاذا بها تردد النغم دون ان يدرى من ادارها شيئا من طريقة عملها !

(٣) $(ا + ب)^{٢} = ا^{٢} + ٢اب + ب^{٢}$

ارى العملية ممثلة بسطور وخطوط ، وبدون ذلك لم أكن افهم منها شيئا !

* * *

• **وجاءت** اللغة اللاتينية ، بعد ذلك . وكانت هذه أشق دراساتى ، فلم أحرز فيها أبدا أى تقدم كبير . واتبعت فى البداية أسلوب « بور ـ رويال » اللاتينى ، ولكن دون ما ثمرة . فان هذه الأشعار الاستروقوطية (١) كانت تقبض قلبى ، ولا تستطيع ان تلج اذنى !.. ووجدتنى أضل وسط اكداس القواعد ، وما ان أستوعب قاعدة حتى اكون قد نسيت التى سبقتها !.. فليست دراسة الكلمات بالتى تليق بانسان بلا ذاكرة ، وما أصررت على هذه الدراسة الا لكى أغصب ذاكرتى على ان تقوى ، فحسب !.. وكان لابد من ان اهجرها فى النهاية ، على اننى استوعبت التركيب بالدرجة التى تكفى لأن استطيع ان اقرأ أسلوب كاتب سلس ، بمساعدة قاموس . وقد اتبعت هذا النهج ، فوجدتنى أتقدم . واقبلت على الترجمة ، لا كتابة ، وانما فى الذاكرة ، واقتصرت على ذلك . **وبفضل الزمن والمران ، أصبحت اقرأ بطلاقة كافية مؤلفات الكتاب اللاتينيين ، ولكنى لم أستطع قط ان اتكلم أو اكتب هذه اللغة .. وهذا ما حيرنى كثيرا ، حين ألفيتنى ـ دون ان ادرى كيف ـ مدرجا فى عداد أهل الادب .** ومن العيوب الأخرى التى ترتبت على هذه الطريقة من طرق التعلم ، اننى لم أتعلم قط علم العروض ، وكنت اقل الماما بقواعد نظم الشعر . ومع اننى ـ فى رغبتى ان اتذوق وقع اللغة شعرا ونثرا ـ بذلت جهودا كثيرة للاحاطة بها ، الا اننى اوقن بأن تحقيق هذا ـ دون معونة استاذ ـ أمر يقرب من المستحيل ، واذ استوعبت تركيب اسهل الاشعار جميعا ، وهو السداسى الوزن ، تلمست صبرا كافيا لأن أزن كل شعر

(١) كانت قبائل « الاستروقوط » البربرية هى المصدر الاول للغة اللاتينية

« فيرجيل » ، مبينا القاعدة والكم ، فاذا ما ارتبت فيما اذا كان احد المقاطع طويلا أو قصيرا ، رجعت الى كتاب « فيرجيل » لأسترشد به . ومن الواضح ان هذا جعلنى ارتكب أخطاء كثيرة بسبب التغير الذى تسمح به قواعد النظم .. على انه اذا كان لتعلم المرء بنفسه فائدة ، فان له – كذلك – عيوبا عظيمة ، فى مقدمتها العناء الذى يفوق التصور . وانى لأدرى بهذا من أى شخص ، أيا كان !

وكنت أفارق كتبى قبيل الظهر ، فاذا لم يكن الغداء معدا ، فاننى كنت اسعى الى زيارة صديقاتى الحمائم ، أو للعمل فى الحديقة ، فى انتظار موعد الغداء . وعندما اسمع النداء ، اهرع – وانا جد مغتبط – وقد أوتيت شهية عظيمة . فمن الجدير بالملاحظة ان شهيتى لاتتخلى عنى ، مهما اكن مريضا . وكنا نتغدى فى انشراح ، ونحن نتبادل الحديث فى شئوننا حتى تفرغ « ماما » من الأكل . وكنا – اذا ما تحسن الجو – نذهب ، مرتين او ثلاثا فى الاسبوع ، الى ما وراء الدار ، لنتناول القهوة فى مقصورة عليلة الجو ، ظليلة ، زينتها بحشيشة الدينار (١) ، وكنا نشعر بارتياح شديد اليها فى القيظ . وهناك ، كنا نقضى وقتا ليس بالطويل ، فى تفقد خضرنا وزهورنا ، وفى أحاديث تتعلق بطريقة معيشتنا ، كانت تجعلنا أقدر تذوقا لجمالها . وكانت لى اسرة اخرى ، فى أقصى الحديقة ، تتألف من نحل . ولم يكن يفوتنى قط أن أزورها ، وكثيرا ما كانت « ماما » تصحبنى . وكنت اهتم كثيرا بعملها ، وأنعم للغاية برؤيتها فى عودتها من جنى الزهور ، وقد أثقلت سيقانها الدقيقة بأحمالها ، بحيث كان يتعذر عليها المشى احيانا . ولقد حملنى الفضول – فى الأيام الأولى – على ان احاول التثبت مما كنت ارى ، فلدغنى النحل مرتين أو ثلاثة ، ولكنا لم نلبث أن وثقنا تعارفنا ، حتى انه كان يدعنى وشأنى ، مهما اقترب منه .. وكان يتجمع

---

(١) نوع من النباتات

حولى ـ مهما تكن الخلايا مليئة ، تأهبا للافراز ـ فيحط على يدى ووجهى دون ان يلدغنى قط!.. ان كل الحيوانات توجس عادة من الانسان ـ وهى ليست مخطئة فى ذلك ـ ولكنها ما ان تطمئن مرة الى انه لايريد بها أذى ، حتى تصبح ثقتها به عظيمة الى درجة انه لايسىء الى هذه الثقة الا اذا كان همجيا بربريا !

وكنت أعود الى كتبى ، بيد ان أعمالى ـ فيما بعد الظهر ـ كانت اقل جدارة بأن تحمل اسم « العمل والدراسة » ، منها باسم «الراحة والتسلية» . فما كنت لأطيق قط العمل المكتبى بعد غدائى ، لأن كل عمل ، فى الأيام الحارة ، يكبدنى عناء ، بوجه عام . على اننى كنت أشغل نفسى بالقراءة دون الاستذكار ، وبغير ارهاق ، بل وبغير ضابط أو قاعدة . وكان الشىء الذى اعتدت ان اواظب عليه بدقة ، هو التاريخ والجغرافيا . ولما كان هذان لا يتطلبان أى جهد عقلى ، فاننى كنت امضى فيهما قدما بقدر ما كانت تسمح ذاكرتى القاصرة . وحاولت ان ادرس مؤلف الأب « بيتو » ، **وانغمست فى غياهب علم التاريخ ، ولكنى كنت لا اميل الى الأجزاء الدقيقة منه ، التى لا قاع لها ولا شاطىء (١) ، وكنت أفضل عليها الابعاد الدقيقة التوقيت ، ومسرى الاجرام السماوية . بل اننى كنت خليقا بأن اغرم بعلم الفلك ، لو اننى اوتيت ادوات له ، ولكنى كنت مضطرا الى ان اقنع ببعض مبادئه التى تؤخذ عن الكتب ، وببعض مشاهدات غير دقيقة ـ خلال منظار مقرب ـ كانت كافية لمعرفة المواقع العامة للأجرام فحسب ، اذ ان نظرى القصير لم يكن يسمح لى بتمييز أى شىء بالعين المجردة ، فما بالك بالكواكب ؟ ..**

. واذكر ـ فى هذا الصدد ـ حادثا كثيرا ما يحملنى تذكره على الضحك : فقد ابتعت خريطة فلكية لأدرس عليها الطوالع ، وثبتها الى اطار ، وكنت فى الليالى الصافية اذهب الى الحديقة

(١) يقصد انها من العمق بحيث انه كان يتخبط فيها دون ان يهتدى الى غاية او يفقه منها شيئا

فأضع اطارى على اربع قوائم فى ارتفاع قامتى تقريبا ، بحيث تكون الخريطة مقلوبة . ولكى اضيئها دون ان تطفىء الريح شمعتى، كنت أضع هذه فى دلو على الأرض ، بين القوائم الأربع، ثم انظر – بالتناوب – الى الخريطة بعينى ، والى الكواكب بمنظارى، واروح اضنى نفسى بالتعرف على النجوم واستنتاج الطوالع . واظننى قد قلت ان حديقة السيد « نواريه » كانت مرتفعة عن مستوى الارض ، بحيث كان كل ما يجرى يشاهد من الطريق . وحدث – ذات مساء – ان كان بعض الفلاحين مارين فى ساعة متأخرة، فرأونى فى هيأة مضحكة، وقد انهمكت فى عملى . وكان الضوء الواهن المنعكس على خريطتى – والذى لم يكونوا يرون مصدره، لأنه كان محجوبا عن انظارهم بحواف الدلو – كما كانت هذه القوائم الأربع، والصفحة الورقية الكبيرة المكسوة بالأشكال والارقام ، والاطار ، وحركة منظارى ، الذى كانوا يرونه وهو يروح ويجىء . . كل هذه أوحت بفكرة السحر ، مما افزعهم !.. ولم يكن لباسى صالحا لأن يطمئنهم، فقد كنت أرتدى قبعة ذات حافة عريضة ، تعلو قلنسوتى (طاقيتى) ، وقد اجبرتنى «ماما» على ارتدائها ، مما هيأ لأنظار اولئك الفلاحين صورة ساحر حقيقى ! **ولما كان الوقت يناهز منتصف الليل ، فانهم لم يرتابوا اطلاقا فى انهم أمام اجتماع للسحرة ! ولما كان فضولهم أقل من ان يزين لهم مشاهدة ما كان يجرى ، فانهم فروا وهم فى فزع شديد ، وايقظوا جيرانهم ليرووا لهم ما رأوا !.. وانتشرت القصة بسرعة، حتى ان كل امرىء فى الجيرة كان يعرف – فى اليوم التالى – ان اجتماع السحرة عقد فى دار السيد ((نواريه))** . ولست ادرى ما كانت تؤدى اليه هذه الشائعة فى النهاية ، لو لم يعمد أحد الفلاحين الذين شهدوا حركاتى السحرية، الى ان يرفع شكاته – فى اليوم ذاته – الى اثنين من «الجيزويت»، اعتادا ان يترددا علينا ، فسفها الشكوى دون أن يعرفا جلية الأمر . ثم ذكرا لنا

القصة ، فأدليت اليهما بالسبب ، وضحكنا لذلك كثيرا . على انه تقرر - خشية تكرار ذلك الحادث - ان اقوم بمشاهداتى الفلكية فى المستقبل دون استعانة بضوء ، مكتفيا بالرجوع الى الخريطة داخل الدار. والذين قرأوا كتابى: « رسائل الجبل »، عن اعمالى السحرية فى (البندقية) ، رأوا - كما ارجو - ان السحر كان صنعتى ردحا طويلا !

هكذا كانت حياتى فى (شارميت) عندما لم اكن مشغولا بأية مهمة ريفية ، فقد كانت هذه تظفر بالأفضلية دائما ، كما اننى كنت - فى الاعمال التى لاتتجاوز طاقتى - أعمل كأى فلاح!.. على انه من الصحيح ان ضعفى البالغ لم يدع لى - اذ ذاك - من مقدرة فى هذا المجال ، اللهم الا النية الطيبة .. هذا فضلا عن أننى كنت أبغى أن اقوم بعملين فى آن واحد ، ولهذا السبب لم أتقن أيا منهما . اذ كنت قد وضعت نصب عينى ان اهيىء لنفسى - بالقوة - ذاكرة طيبة ، فدأبت على محاولة ان أحفظ كثيرا من المعرفة عن ظهر قلب . ومن اجل هذا كنت احمل معى دائما كتابا ادرسه واستذكره واردده على نفسى وانا منهمك فى العمل ، متحملا فى ذلك عناء لايصدقه العقل ! ولست ادرى كيف ان اصرارى على هذه المحاولات غير المجدية وهذه المجهودات المستمرة لم ينته الى ان أغدو - فى النهاية - غبيا!..

كان لابد من ان ادرس ديوان الشاعر «فيرجيل» EGLOGUES وان اكرر الدرس عشرين مرة ، ومع ذلك فاننى لم أفقه منه كلمة واحدة ! **ولقد فقدت ، او فككت ، عددا كبيرا من الكتب باعتيادى حملها معى فى كل مكان ، سواء كان ذلك فى اعشاش الحمام ، او فى الحديقة ، أو فى البستان ، أو فى مزرعة الكروم. وكنت اثناء انشغالى بشىء ، اضع الكتاب فى اسفل احدى الأشجار ، او على السياج العشبى ، ثم كنت أنسى ان آخذه ثانية .. وكثيرا ماكنت أجده - بعد خمسة عشر يوما - تالفا ، أو يكون قرضه النمل والقواقع . وأصبحت هذه اللهفة الى**

التعلم تهوسا دفعنى الى ما يقرب من العته والحماقة ، حتى انني ـ لانشغال بالى ـ كنت لا انفك اتمتم واغمغم !

ولقد احالتنى مؤلفات « بور ـ رويال » وكتاب « الخطابة » ـ اللذان كنت اقرأهما بكثرة بالغة ـ الى شخص نصف « يانسينى » . وبالرغم من قوة ايمانى، فان «لاهوت» هذا المذهب القاسى كان يزعجنى احيانا . . وأخذت رهبة الجحيم ـ الذى لم اكن حتى ذلك الوقت اخافه كثيرا ـ تقض طمأنينتى شيئا فشيئا . . ولو لم ترفه «ماما» عن نفسى ، لقلب هذا المذهب الرهيب كل كيانى !. . وقد بذل الراهب الذى اعتدت ان افضى اليه باعترافاتى ـ والذى كان يتلقى اعترافاتها هى الاخرى ـ قصارى وسعه فى ان يجعلنى فى حال ذهنية طيبة. وكان هذا الراهب من «الجيزويت» ، ويدعى الأب «هيميه» . وقد كان شيخا طيبا ، حكيما ، سأظل دائما أوقر ذكراه . ومع انه كان « جيزويتيا » ، الا انه كان فى سذاجة الطفل ، وكانت اخلاقه وادعة اكثر منها متراخية ، وهذا عين ما كنت فى حاجة اليه ، لأعيد الى نفسى توازنها بعد الانطباعات الكئيبة التى احدثتها « اليانسينية » . وكان هذا الرجل الطيب وزميله ـ الاب كوبييه ـ يفدان كثيرا لزيارتنا فى (شارميت) ، رغم ان الطريق كانت شديدة الوعورة ، وأطول مما ينبغى بالنسبة لمن هم فى سنهما . ولقد كانت زياراتهما ذات اثر طيب عظيم على نفسى، أسأل الله ان يسبغ على روحيهما جزاء مثله !. . اذ كانا طاعنين فى السن ـ فى ذلك الوقت ـ بحيث اننى لا أظنهما على قيد الحياة اليوم . وكنت ـ أنا الآخر ـ أذهب لزيارتهما فى (شامبيرى) ، فألفت دارهما تدريجا، وأصبحت مكتبتهما رهن ارادتى . وان ذكرى هذه الفترة السعيدة لترتبط ارتباطا وثيقا بذكرى «الجيزويتيين» ، حتى اننى أحب كلا منهما من اجل الآخر . ومع ان مذهبهما كان يبدو لى ـ دائما ـ خطرا ، الا اننى لم أستطع ان أجد قط ميلا الى ان اوليهما كراهية

صادقة !

ولكم أود ان اعرف ما اذا كان يطوف بقلوب الغير من الافكار الصبيانية ما يطوف بقلبى احيانا . ففى غمرة دراساتى ، وفى سياق حياة بريئة الى أقصى ما يستطاع ، وبالرغم من كل ما قيل لى ، فان الخوف من الجحيم لايزال يزعجنى أحيانا . وكنت اسائل نفسي : « فى أى حال أنا ؟.. وهل أدان لو اننى مت فى هذه اللحظة؟ » . وعلى هدى أساتذتى «اليانسنيين» ، لم يكن ثمة ريب فى الامر . ولكننى كنت ارى الحكم يختلف على هدى ضميرى ! . . واذ كنت دائما فى خوف ، اتخبط فى



هذا التذبذب القاسى، فقد أخذت ألجأ ـ وانا أبحث عن مخرج ـ الى وسائل من أدعى الأمور للضحك ، وكنت من اجلها على استعداد لأن أحبس أى انسان أراه يأتيها !.. ففى ذات يوم ، اخذت ـ بطريقة آلية ، وانا افكر فى هذا الموضوع المقبض ـ أرمى جذوع الأشجار بالأحجار ، بما كان لى من مقدرة على الرماية .. اعنى دون أن أصيب أيا منها تقريبا !.. وفيما كنت فى غمرة هذا العمل الطريف ، خطر لى ان اتخذ منه لونا من الشعوذة كى أطامن قلقى . فقلت لنفسى : « سأرمى هذا الحجر نحو الشجرة المواجهة لى ، فاذا أصبت ، كانت الاصابة

بشيرا بالنجاة ، واذا اخفقت ، فقد حاقت بى اللعنة » ! . . وفيما كنت اقول هذا ، طوحت بالحجر ، بيد مرتجفة ، وبخفقان عنيف فى القلب .. ولكن بتوفيق بالغ ، حتى ان الحجر أصاب الشجرة فى منتصفها تماما ، وهو أمر — ان شئتم الحق — لم يكن بالعسير ، اذ انني كنت قد عنيت باختيار شجرة غليظة الجذع جدا ، وقريبة جدا . ومنذ ذلك الوقت لم يعد يخالجنى شك فى خلاصى ! .. ولست ادرى — وانا اذكر هذا الحادث — أأضحك أم أتحسر على نفسى ! ان لكم — ايها الكبار ، الذين تضحكون ولا شك — ان تطربوا ، ولكن . . لا تسخروا من ضعفى أو عبثى ، فانى اقسم لكم اننى أشعر به تمام الشعور !

على ان هذه الاضطرابات ، وهذه الدموع التى قد لا يمكن فصلها عن التقوى والايمان ، لم تكن حالا دائمة . فقد كنت — بوجه عام — موفور الهدوء ، وكان الأثر الذى خلفته فكرة الموت المبكر فى نفسى ، أقل انتماء الى الحزن ، منه الى الضعف والاستكانة الوادعة ، التى كان لها سحرها الخاص .. **ولقد عثرت بين أوراق قديمة على قطعة رثاء كنت قد وجهتها الى نفسى ، أهنئها فيها على موتى فى سن يشعر عندها المرء بقدر كاف من الشجاعة على مواجهة الموت ، دون أن أكون قد عانيت عللا قاسية — بدنية كانت أو عقلية — خلال حياتى ! .. ولكم كنت مصيبا ! .. كان ثمة هاجس يخيفنى من الحياة خشية العذاب ! .. لكأنما كنت أرى مقدما المصير الذى كان فى انتظارى فى أواخر ايامى !** .. ابدا ما كنت قريبا من الحكمة بقدر ما كنت فى تلك الفترة السعيدة ! .. ففى بعدى عن الحسرة البالغة على الماضى ، وفى تحررى من هواجس المستقبل ، كان الشعور الغالب على نفسى باستمرار هو شعور الاستمتاع بالحاضر . ان الأتقياء يؤتون — عادة — قدرا ضئيلا من شهوة متأججة ، تجعلهم يتذوقون فى استمراء تلك الملاذ البريئة المباحة لهم . ولكن الدنيويين يرون فى ذلك جرما من جانب الأتقياء . ولست

أدرى لذلك سببا .. لا ، بل أحسبنى اعرف تماما .. فهم يحسدون الاتقياء على بهجة الملاذ الساذجة التى فقدوا هم طعمها ! .. ولقد كان هذا الميل لدى ، فوجدت من بواعث الغبطة أن أرضيه وانا مطمئن الضمير .. **وكان قلبى لايزال غضا ، فأسلم نفسه اليه تماما، وفى فرح الطفل ، او بالاحرى — اذا كان لى ان اجرؤ على القول — فى شبق الملاك !.. فقد كان لهذه المتع الوادعة ، ما لمباهج الفردوس من سحر جليل ! ..**
كان تناول الغداء على الحشائش فى (مونتانيول) ، وتناول العشاء تحت الخمائل ، وجنى الفواكه ، واقتطاف العنب ، والأمسيات التى كانت تقضى فى انتزاع الياف القنب مع رجالنا .. كل هذه كانت اعيادا حافلة وجدت «ماما» فيها عين ما كنت انا أجد من سرور

وكانت النزهات التى نقوم بها وحيدين ، ذات فتنة أشد واكثر ، لأن القلب كان ينطلق متحررا . ولقد قمنا — فيما قمنا به منها — بنزهة تعتبر من المعالم فى ذاكرتى : كان ذلك فى يوم عيد للقديس لويس ، الذى سميت « ماما » باسمه ، وانطلقنا معا — وحيدين — فى البكور ، بعد قداس جاء أحد الرهبان «الكرمليين» ليلقيه علينا — فىمطلع النهار — فى كنيسة صغيرة ملحقة بالدار . وكنت قد اقترحت ان نتمشى فى جانب الوادى المقابل للجانب الذى كنا فيه ، ولم نكن قد زرناه قط . فأرسلنا زادنا مقدما ، اذ كانت النزهة تستغرق اليوم بطوله . ولم تكن «ماما» ثقيلة فى سيرها ، رغم انها كانت بدينة، ممتلئة الجسم ، فأخذنا نتنقل من هضبة الى هضبة ، ومن غابة الى غابة ، فى الشمس حينا وفى الظل أحيانا ، ونحن نستريح من آن الى آخر ، وقد غفلنا تماما عن سير الزمن . وكنا نتحدث عن نفسينا ، وعن رابطتنا الوثيقة ، وعن عذوبة نصيبنا فى الحياة ، رافعين — من اجل دوامه — دعوات لم تستجب ! ..

وكان كل شىء يبدو وكأنه يدبر فى الخفاء لجعل هذا النهار هنيئا . وكان ثمة مطر قد تساقط منذ فترة قريبة ، فلا أثر لغبار .. كما كانت ثمة جداول جارية ، ونسيم يداعب اوراق الشجر . وكان الهواء نقيا ، والأفق خلوا من السحب ، والسماء - كقلبينا - يسودها الصفاء ! . . وتناولنا غداءنا فى دار احد الفلاحين ، وقد تقاسمناه مع اسرته التى باركتنا وشكرتنا من صميم الافئدة . ما أطيب اولئك الفقراء من اهل (سافوا) !

وبعد الغداء ، لذنا بالظل تحت الأشجار الوارفة ، حيث رحت اتسلى بجمع بعض العيدان الخشبية الجافة لنعد قهوتنا ، بينما كانت «ماما» تتلهى بتفقد الأعشاب بين الادغال .. ورأت الزهور التى كنت قد جمعتها اثناء الطريق ، فأخذت تلفت نظرى الى ألف غريبة وعجيبة فى تكوينها ، مما لذ لى كثيرا ، ومما كان خليقا بأن يجعلنى أميل الى علم النبات ، لولا ان أوان هذا الميل لم يكن قد حان ، فقد كنت منصرفا عنه الى كثير من الدراسات الأخرى . وخطرت لى فكرة حولتنى عن الزهور والنباتات : فان الجو الروحى الذى ألفيتنى فيه ، وكل ما قلنا وفعلنا فى ذلك اليوم ، وكل الأشياء التى خلبت لبى ، ذكرتنى بذلك الحلم الذى رأيته وأنا فى كامل اليقظة فى (أنيسى) قبل سبع أو ثمانى سنوات ، والذى رويته فى مكانه (١) . **وكان الشبه من القوة بحيث اننى حين تذكرت الحلم ، اهتزت مشاعرى تأثرا وانساب دمعى .. وفى نوبة من الانفعال العاطفى ، عانقت تلك الحبيبة الغالية ، وقلت لها فى وجد : « ماما ، ماما .. لقد كنت موعودا بهذا اليوم منذ أجل طويل ، ولست أرى ما يفوقه !.. ان سعادتى - بفضلك - فى اوجها ، فليتها لاتتناقص بعد ذلك !.. ليتها تدوم طالما ظللت أنعم باستمرائها !.. ليتها لاتنقضى الا مع انقضاء أجلى ! »**

---

(١) فى الكراسة الثالثة

وهكذا أخذت تنساب أيامى السعيدة . . بل الأيام التى كانت اكثر من سعيدة، حتى انني ـ لعجزى عن ان أتبين ما قد يقوى على تعكيرها ـ كنت اتصور انها لن تنتهى ، فى الواقع ، الا مع نهايتى !.. وليس معنى هذا ان نبع وساوسى كان قد نضب تماما ، وانما كان معناه اننى رأيت هذه الوساوس تتخذ طريقا آخر مكنني من ان أوجه احزانى وآلامى الى اهداف نافعة ، جلبت عليها دواء ناجعا !.. ولقد كانت « ماما » تحب الريف بطبيعتها ، فوجد هذا الميل منى ما يذكيه. وما لبثت ان انتقلت اليها ـ تدريجا ـ عدوى الشغف بالأعمال الريفية . . وكانت تحب تقويم الأرض (١) ، كما كانت لديها ـ فوق هذا ـ معرفة ومعلومات كانت تستغلها فى هذا الصدد باستمتاع . ولم تقنع بالأرض التى كانت تابعة للبيت الذى استولت عليه ، بل انها كانت تستأجر تارة حقلا ، وتارة مرجا . وانتهت الى ان ركزت روح ابتكار المشروع لديها فى الأمور الزراعية ، بدلا من ان تبقى عاطلة فى الدار . وبدأت تعمل لكى تصير ـ فى القريب العاجل ـ مزارعة كبيرة !

ولم اكن احب كثيرا ان أراها تتوسع فى ذلك ، فرحت أعارضها فيه قصارى ما استطعت ، وانا واثق تمام الثقة من انها كانت دائما تغتر فتخطىء ، وان روحها المتحررة السخية كانت تحملها دائما على ان تنفق أكثر مما يعود عليها من انتاج. على اننى وجدت عزاء فى التفكير فى ان هذا الانتاج لن يكون معدوما ـ على الاقل ـ وانه قد يساعدها على العيش . . وبالنسبة الى كافة المشروعات التى قدر لها ان ترسمها ، بدا لى هذا المشروع أقل ايقاعا للخراب بها . ومع اننى لم أر ـ مثلها ـ فيه موردا للربح ، الا اننى رأيت فيه شاغلا يقيها باستمرار حيل المحتالين الخبيثة !

---

(١) تقدير قيمتها وميزاتها

وبهـذه الفكرة ، أصبحت ارغب كل الرغبـة فى ان أسترد قوتى وصحتى معا ، حتى يتسنى لى ان أسهر على أعمالها ، وأن أغدو رئيسا لعمالها ، أو العامل الأول فى خدمتهـا . ومن الطبيعى ان المران والرياضة اللذين حملتنى هذه الرغبـة على القيام بهما ، اصبحا ينتزعانى فى كثير من الأحيـان من كتبى ، ويشغلانى عن حالى الصحية، مما كان خليقا بأن يسير بها نحو التحسن !

من سنة ١٧٣٧ الى سنة ١٧٤١

• **عاد** «باريو» من ايطاليا فى الشتاء التالى ، وقد جلب لى معه بعض الـكتب ، منها كتابا الأب بانشييرى : « بونتمبى » و «كارتلا بير ميوزيكا » ، اللذان حببـا الى دراسـة تاريخ الموسيقى ، والابحـاث النظرية فى هذا الفن الجميـل ، وبقى «باريو» معنا فترة من الزمن . ولما كنت قد بلغت سن الرشد قبل ذلك ببضعة أشهر، فقد اتفقنا على ان أذهب الى (جنيف) فى الربيع التالى ، لأطالب بثروة أمى ، أو لأطالب ــ على الأقل ــ بذلك النصيب الذى خصنى منها ، ريثما نستبين ما ألم بأخى. ونفذت هذه الخطة كما اتفقنا ، فذهبت الى جنيف حيث لحق بى أبى ، وكان قد ألف منذ فترة طويلة أن يزور المدينـة دون أن يحتك به أحد ، بالرغم من ان الحكم الذى صدر عليـه كان لايزال قائما . ولكن أبى كان موضع التقدير لبسالته ، والاحترام لأمانته ، فتظاهر أولو الأمر بأنهم نسوا قضيته الصغيرة . وكان الحكام فى شغل شاغل بالمشروع العظيم الذى بزغ فجره بعـد ذلك بقليل ، ولذلك أبوا ان يثيروا ثائرة الطبقات الوسطى قبل الأوان ، بأن يذكروهم بتحزبهم السابق فى لحظة غير مواتية

وخشيت أن تقوم فى وجهى الصعوبات بسبب ارتدادى عن مذهبى ، الا أن شيئا من هذا لم يحـدث ، فقوانين جنيف فى هذا الشأن ليست فى صرامة قوانين (برن) ، حيث يفقـد من

يرتد عن دينه لا منزلته فحسب بل أملاكه أيضا . ولم يكن ثمة نزاع فى حقى ، الا ان الميراث نفسه ، لسبب لا أدركه ، تضاءل الى مبلغ تافه . ومع أن أخى كان — فى غالب الظن — قد لقى ربه ، الا أنه لم يكن ثمة دليل قانونى على هذا . لم يكن عندى من الأسانيد ما يكفى لأن أطالب بنصيبه ، فتركته عن طيب خاطر لأبى يستعين به على حياته ، وقد كان له حق المنفعة طالما هو على قيد الحياة . وما أن تمت الاجراءات القانونية وتسلمت مالى حتى انفقت شيئا منه فى شراء بعض الكتب ، **وهرعت الى «ماما» أضع الباقى تحت قدميها ، وكان قلبى يطفح بشرا أثناء الرحلة . وفى اللحظة التى وضعت فيها هذا المال فى يدها ، كنت أسعد ألف مرة من اللحظة التى تسلمته فيها !.. وتقبلت هى المال قبول النفس السامية الرفيعة ، التى لا تجد من العسير عليها ان تأتى مثل هذا الفعل ، فلا يدهشها ان يعاملها الغير نفس المعاملة .. وقد أنفقت المال كله تقريبا على شخصى ، بنفس تلك البساطة التى اتسمت بها . ولو كان هذا المال قد جاء من مصدر آخر لأنفقته على نفس هذه الصورة !**

ولم أكن ، فى ذلك الوقت ، قد استعدت صحتى تماما ، بل — على العكس — كنت أذوى وأذبل بشكل واضح !.. كنت فى شحوب الموتى وهزال الهيكل العظمى ، وكانت ضربات عروقى فظيعة لا تحتمل ، وازدادت نبضات قلبى ، وكنت أعانى على الدوام من عسر التنفس .. وازددت ضعفا آخر الأمر حتى كنت لا أكاد أستطيع الحراك . . كنت لا أستطيع أن أغذ السير الا واشعر بالاختناق ، ولا أنحنى دون ان يصيبنى الدوار ، وتعذر على رفع أصغر الأثقال ، فأكرهت على البقاء ساكنا جامدا ، وهو أكبر عذاب يصيب رجلا فى مثل قلقى وضجرى . ولا شك فى ان مرضى كان مرده (الهستريا) الى حد كبير ، فكأنى قد بليت بذلك المرض الذى لايصيب الا السعداء !.. فالدموع

التى كثيرا ما كنت أذرفها دون سبب يدعو الى البكاء . . وفرحتى وافتتانى بحفيف ورقة من أوراق الشجر ، أو تغريد طائر طروب .. ومزاجى المتقلب فى حياة بلغت ذروة الهناء كل هذه كانت دلائل على كلال من تأثير السعادة يؤدى الى حساسية مفرطة . ونحن لم نتزود للسعادة فى هذا العالم الا بالقليل ، مما يقتضى أن يعانى الروح او الجسم . . اذا لم يعانيا معا .. وسعادة الواحد منهما تؤذى الآخر دائما تقريبا . وبينما كنت مستطيعا أن أنعم بحياتي فى سعادة تامة ، فان انحلال جهاز جسمى كان يحول بينى وبين ذلك ، دون ان يستطيع أحد ان يدلنى على موضع الداء منى . ويبدو أن جسمى قد استعاد فيما بعد قوته ، بالرغم من التداعى الذى أحسه فى كبرى وآلامى المبرحة الحقيقية التى أصبحت فى الكبر أشد قوة وتبريحا . واليوم ، وانا اكتب هذه السطور ، وقد نال منى الضعف وبلغت الستين من عمرى أو أكاد ، وغلبتنى الآلام من كل نوع على امرى ، أشعر ان فى كيانى من الحياة والقوة على احتمال الألم ، اكثر مما كان لدى من الحياة والقوة على الاستمتاع – فى ميعة الصبا – فى غمرة من اصدق آيات السعادة

ورغبة فى اذلال نفسى اذلالا تاما ، شرعت – بعد ان قرأت شيئا من الفلسفة – فى دراسة التشريح، وعرفت عدد الأعضاء المستقلة التى يتألف منها جهاز جسمى ووظائفها . **وكنت أميل للشعور ، عشرين مرة فى اليوم ، بأن الخلل قد دب فى أعضائى جميعا ، ولم يكن يذهلنى قط أن أجدنى فى حالة احتضار، وانما كان يدهشنى أننى ما زلت قادرا على الحياة ! وكنت اعتقد أننى مصاب بكل مرض أقرأ أوصافه ، وانى لمقتنع بأننى لو لم أكن مريضا فقد جعلتنى هذه الدراسة القاتلة كذلك .. فلقد كنت أجد فى الأعراض التى تنتابنى أعراض كل علة ، فحسبتنى**

مصابا بالعلل جميعا ! .. وبذلك انتابنى مرض ، هو أقسى الأمراض جميعا ، وكنت أظننى براء منه . . واعنى به الرغبة الملحة فى أن اشفى ، وهى رغبة يتعذر على المرء ان يفلت منها اذا ما بدأ فى قراءة الكتب الطبية !.. وانتهيت بشيء من البحث والتأمل والمقارنة الى ان أساس مرضى هو «ورم ليفى فى القلب»! .. وقد لاح على سالومون نفسه ان الفكرة أذهلته ، ولئن كان من الواجب ان تؤيدنى هذه الافتراضات تأييدا معقولا فى قراراتى السابقة ، الا ان الحال لم تكن كذلك ، فقد بذلت كل ما وسعنى من جهد عقلى لأكتشف طريقة علاج الورم الليفى الذى يصيب القلب .. وقد صح منى العزم على ان أتكفل بهذا العلاج الرائع.
ولقد قيل للتعس «آنيه» فى رحلته الى (مونبلييه) لزيارة حدائق النباتات ومسيو سوفاج ـ المعيد ـ بأن مسيو فيز قد شفى مريضا بهذا الورم الليفى ، وكان هذا كافيا لأن يوحى الى برغبة ملحة فى ان أقصد مسيو فيز للاستشارة .. فقد أعاد الأمل فى الشفاء الى نفسى الشجاعة وزودنى بالقوة على تجشم مشاق الرحلة ، وكان المال الذى جئت به من جنيف عونى على ذلك. وشجعتنى « ماما » على الذهاب ، وهى ابعد الناس عن ان تحاول اثنائى عن عزمى . . وهكذا وجدتنى فى طريقى الى (مونبلييه) ! وما كانت بى حاجة لأن أذهب الى هذا المكان النائى سعيا وراء الطبيب الذى أنا فى حاجة اليه !.. واستقللت عربة فى (جرينوبل) ـ اذ كان ركوب الجياد يتعبنى كثيرا ـ. فوصلت الى (موران) ـ بعد عربتى ـ خمس او ست عربات غيرها ، الواحدة فى اثر الأخرى .. وكان معظم هذه العربات جزءا من موكب عروس زفت حديثا اسمها السيدة « دى كولمبييه » ، وكانت ترافقها سيدة اخرى هى السيدة « دى لارناج »، أصغر منها سنا ،وان لم تكن جذابة فى ملامحها مثلما هى فى ظرفها .. وكانت تنوى ان ترتحل من (رومانس) ـ وهى المدينة التى ستتوقف فيها السيدة « دى كولومبييه » ـ الى

مدينة (سانت أنديول) قرب (سان اسبرى) . **ونظرا لما طبعت عليه من خجل ذاع صيته ، فلا تحسبن أننى تعرفت بهاتين السيدتين الظريفتين وحاشيتهما بسهولة.. ولكننى كنت أسافر فى نفس الطريق الذى يسافرون فيه ، وانزل فى الفنادق نفسها التى ينزلون فيها ، فخشيت أن يقال عنى اننى أبعث على السأم والملالة ، وكنت مكرها ايضا على الجلوس معهم الى مائدة واحدة . . فوجدت من المستحيل على آخر الأمر أن اتجنب التعرف بهم ، ففعلت هذا .. تعرفت بالسيدتين بأسرع مما كنت أريد !** .. ورغم أن كل هذه الضوضاء لم تكن لتناسب رجلا مريضا ، وخاصة اذا كان فى مثل مزاجى ، الا أن حب الاستطلاع يجعل هذه المخلوقات الماكرات غاية فى الاغراء ، حتى انهن عندما يردن التعرف برجل ، يبدأن فى امتلاك لبه ، وهذا ما وقع لى ! .. بيد انه كان يحيط بالسيدة دى كولومبييه بعض الشبان المتأنقين ، احاطة السوار بالمعصم ، مما لم يفسح لها الوقت للتعرف بى .. أضف الى هذا أن الأمر لم يكن ليستحق منها التفاتا طالما أننا كنا على وشك الافتراق . ولكن السيدة « دى لارناج » ، ولم يكن ليحيط بها هذا القدر من المعجبين ، كان لا بد لها أن تتزود لرحلتها بما يلزم ، وهكذا كانت السيدة « دى لارناج » هى التى أخذت على عاتقها اذن ان تغزو قلبى.. ومنذ ذلك الحين، وداعا لجان جاك المسكين — أو على الأصح وداعا للحمى والهستيريا والورم الليفى — وداعا لكل شىء وأنا فى صحبتها ، فيما عدا بعض نبضات القلب التى بقيت ، والتى لم يبد منها أى ميل لشفائى منها . وكان سوء حالتى الصحية هو اول موضوع تطرقنا الى الحديث فيه . لقد كانتا تريان أننى مريض وتعلمان أننى ذاهب الى (مونبلييه)، ولا بد ان مظهرى وأخلاقى قد جعلت من الواضح أننى لست خليعا .. ذلك انه تبين لى ، مما تلا ذلك من الحوادث ، انهما لم تشتبها فى أننى ذاهب الى مونبلييه لكى أعالج من نتائج

الخلاعة . ومع أن سوء الصحة ليس مما يحبب النساء كثيرا فى المرء فقد أثار سقمى اهتمام هاتين السيدتين ، فكانتا ترسلان الى فى الصباح تسألان عن حالى وتدعوانى الى تناول الشكولاتة معهما ، وتسألانى كيف قضيت ليلتى .. وذات مرة أجبت باننى لا أدرى ، على ما ألفت فى عادتى الحميدة من الكلام دون تفكير ، فحملهما هذا الرد على الاعتقاد بأننى مجنون ، وشرعتا تفحصانى بدقة أكثر . ولم أصب من ذلك بضرر ، وان سمعت السيدة ((دى كولومبيبه)) تقول مرة لصديقتها: ((انه لا خلاق له ولكنه ظريف)) ، وقد شجعتنى هذه الكلمات كثيرا ودعتنى الى العمل بمقتضاها !

وازدادت علاقتنا توثقا ، فاضطررت الى أن اتحدث عن نفسى ، وأن أفصح عمن أكون ومن أين أتيت . وقد سبب لى هذا شيئا من الحيرة والارتباك ، لأننى أدركت بوضوح ان كلمة «مرتد» ستقضى على سمعتى فى الطبقة الراقية وبين السيدات المهذبات ، ولست أدرى أية نزوة غريبة تلك التى تملكتنى وجعلتنى اقول اننى انجليزى ، ووصفت نفسى بأننى يعقوبى ، وسميت نفسى «دودنج» ، فأخذتا تدعوانى بالمستر دودنج ، وكان معنا شخص لعين هو « المركيز ده تورنيان » ، وكان مريضا مثلى ، الا ان كبر سنه وسوء خلقه كانا ضغثا على ابالة ، وقد استبدت به رغبة فى محادثة مستر دودنج ، وحدثنى عن الملك جيمس وعن مدعى العرش وبلاط سان جرمان القديم . وكنت على أحر من الجمر ، فاننى لم أكن اعرف شيئا عن كل هذا اللهم الا القليل الذى قرأته فى كتاب الكونت هاملتون وفى الصحف ، ولكنى أحسنت استخدام ما كان فى جعبتى من معلومات ضئيلة حتى خرجت من ورطتى .. ولحسن الحظ لم يسألنى أحد عن اللغة الانجليزية التى لم أكن أفهم منها كلمة !

وكنا على أطيب ما تكون العلاقات والود ، ننظر الى فراقنا

نظرة أسف وحسرة ، وكنا نسافر نهارا ، وفى صباح يوم أحد وجدنا أنفسنا فى (سان مارسيلان) ، وابدت السيدة « دى لارناج » رغبتها فى حضور القداس ، فصحبتها، مما كاد يفسد خطتى : فقد مارست طقوس القداس كما كنت أفعل دائما ، **واستنتجت هى من سلوكى المتواضع المتحفظ أننى من المتعبدين ، فساءت فكرتها عنى ـ كما اعترفت لى بعد ذلك بيومين ! ـ وقد اقتضانى الامر قدرا كبيرا من الكياسة كى امحو هذه الفكرة السيئة ، أو بالاحرى ان السيدة دى لارناج ـ وهى المرأة المحنكة الخبيرة التى لايدركها اليأس بسهولة ـ كانت على استعداد لأن تخاطر بالتودد الى لترى كيف أنقذ نفسي .. وقد أسرفت فى التودد حتى أننى ، وأنا الذى لا اغالى فى تقدير مظهرى الشخصى ، اعتقدت انها تسخر منى ، وتملكتنى هذه الفكرة حتى لم يبق ضرب من ضروب الطيش والرعونة لم أرتكبه !.** لقد كنت فى ذلك أسوأ من المركيز دى ليجز (١) ، وكانت السيدة دى لارناج ثابتة العزم ، فحاولت اغرائى كثيرا ، وكانت تحادثنى فى رقة بالغة ، حتى أن رجلا أحكم منى كان يجد من الصعب عليه أن يأخذ هذا كله مأخذ الجد ! وكلما ألحت فى سعيها ازداد يقينى بفكرتى ، والذى عذبنى اكثر فأكثر أننى أصبحت جادا فى ولعى بها ، فقلت لها ـ ولنفسى ـ فى تأوه : « آه ! لو أن كل ما تقولينه كان صحيحا، لكنت أسعد مخلوق ! » . وأعتقد ان بساطتى المجردة انما خيبت ظنها ، ولكنها لم تكن مستعدة للاقرار بالهزيمة !

وكنا قدتركنا السيدة دى كولومبيه وحاشيتها فى (رومانس)، وتابعنا المسير فى بطء ونحن فى غاية السرور ـ السيدة دى لارناج والمركيز دى تورنيان وأنا ـ وكان المركيز، بالرغم من أنه رجل مريض كثير التأفف والتذمر ، كيسا ظريفا، غير انه لم يكن مما

---

(١) شخصية فى كوميديا « ماريفو » ، أحب لأول مرة وكان فى غاية الخجل من أن يبوح بحبه ، فى حين أن شخصية الكونتس كانت على النقيض من شخصيته تماما .

يغتبط له أن يرى غيره من الناس يتمتعون ، دون أن يستطيع هو تذوق المتعة مثلهم !.. ولم تعن السيدة دى لارناج الا قليلا باخفاء ميلها الى ، حتى أنه كان أسرع منى فى ملاحظته . وكان يجب ان تزودنى تهكماته الخبيثة على الأقل بالثقة التى لم أكن لأجرؤ على استخلاصها من تودد السيدة الى، لولا أننى ظننت — فى روح من العناد ، كنت أنا وحدى قادرا عليها — أنهما قد اتفقا على أن يلهوا على حسابى ! وأدارت هذه الفكرة السخيفة رأسى تماما آخر الأمر، وجعلتنى ألعب دور الغر الأبله فى موقف ربما أمرنى فيه قلبى — وقد تملك الحب شغافه — بأن أتصرف تصرفا أفضل من هذا التصرف بكثير . ولست أدرى كيف ان السيدة دى لارناج لم يتملكها النفور من كآبتى بحيث كانت تنأى عنى وهى تزدرينى أشد الازدراء، وانما كانت امرأة بارعة تفهم من تعامل من الناس ، فرأت فى وضوح ان مسلكى كان يتسم بالغباء أكثر مما يتسم بفتور الهمة !

وأفلحت المرأة آخر الأمر ، وبشىء من المشقة ، فى البوح بما يكنه صدرها ، وكنا قد بلغنا (فالانس) فى موعد الغداء وبقينا بها — وفقا لعاداتنا الحميدة — بقية النهار،وحططنا رحالناخارج المدينة ، فى (سان جاك)— ولن أنسى هذا الفندق أو الغرفةالتى كانت تنزل فيها السيدة دى لارناج ! — وقد أرادت أن تقوم بنزهة بعد الغداء ، وكانت تعلم أن المركيز ليس مولعا بالسير ، وكان هدفها من ذلك ان تنفرد بى ، وبيتت أن تنتفع بخلوتها معى أكبر انتفاع ممكن ، ذلك أنه لم يبق ثمة وقت تضيعه، ان كان قد بقى شىء من الوقت تنتفع به . . وسرنا حول المدينة وعلى طول الخنادق، وعدت ألقى على مسامعها قصتى الطويلة عن أمراضى ، فكانت تجيب عليها فى رقة بالغة، وتضغط أحيانا بذراعى على قلبها ، حتى أنه لم يكن يحول بينى وبين الاقتناع بأنها تجد فى حديثها الا غباوة كغباوتى !.. أما الأمر الذى لم يحسب حسابه فهو أن الحب كان قد نال منى منالا عظيما ،

فلقد سبق لى أن قلت ان السيدة كانت ظريفة ، وقد جعلها الحب فاتنة ، وأعاد اليها كل بهائها فى صدر شبابها ، وكانت تصطنع فى توددها من المكر والدهاء ما كان خليقا بأن يغرى رجلا من أوسع الرجال خبرة وتجربة . وكنت قلقا مضطربا ، **وكثيرا ما هممت بأن اتجاوز معها حد الأدب ، لكن الخوف من اساءتها أو اغضابها ، بل والخوف الأكبر من أن أصبح موضعا للسخرية والاستهزاء ، وان ازود المائدة بقصة تروى عنى ، وان يهنئنى المركيز العاتى ـ الذى لا يرحم ـ على بسالتى ، كل ذلك عاقنى وأثار غيظى من خجلى الأخرق وعدم استطاعتى التغلب عليه ، فى حين كنت أنحى على نفسى باللائمة من جرائه ..** لقد كنت فى عذاب أليم ، وكنت قد نبذت كلامى الذى يغلب عليه الحياء ، فقد شعرت بسخافته بعد ان قطعت من الطريق هذا الشوط الكبير . ولكنى ، وقد انتابتنى الحيرة فلم أعرف كيف اتصرف أو ماذا أقول، لزمت الصمت وعلت وجهى الكآبة. ومجمل القول أننى فعلت كل ما من شأنه ان يصيبنى بالمعاملة التى كنت أخشاها ! .. على ان السيدة دى لارناج كانت لحسن الحظ رحيمة رؤوفة ، **فقطعت حبل السكون فجأة بوضع ذراعها حول رقبتى ، ثم حدثنى فمها ـ وقد اطبق على**



فمى – فى لغة صريحة واضحة لم تدع لى مجالا لأى شك بعد ذلك . وما كانت الأزمة لتقع فى لحظة أسعد من تلك اللحظة ، فلقد أصبحت ظريفا، ومنحتنى ثقتها، وهى التى حال افتقارى اليها دائما دون أن أكون طبيعيا . أما فى هذه المرة ، فقد كنت على سجيتى ، ولم يحدث انأجادت عيناى ومشاعرى وقلبى، فى الحديث ، مثل هذه الاجادة !.. كما لم يحدث لى من قبل أن أصلحت أخطائى هكذا تماما . . واذا كانت هذه المغامرة الصغيرة قد كلفت السيدة دى لارناج شيئا من الجهد والتعب، فعندى من الأسباب ما يحملنى على الاعتقاد بأنها لم تندم عليها !

ولو اننى عشت مائة عام لما استطعت ان أفكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون فيض من السرور يطغى على ! وانا أصفها بالفتنة ، لانها وان لم تكن بالصغيرة أو الجميلة فانها لم تكن أيضا بالعجوز ولا بالدميمة ، ولم يكن فى وجهها ما يحول دون أن يظهر ذكاؤها وظرفها فى أبهى حللهما . ونحن اذا قارناها مقارنة مستفيضة بغيرها من النساء لوجدنا أن أقل ما يتصف بالنضارة وجهها ، وأعتقد انها أفسدته بما كانت تصبغه به من المسحوق الأحمر (الروج)..وقد كانت ثمة اسباب لاستهانتها بفضيلتها ، فقد كانت هذه خير وسيلة تؤكد بها مفاتنها . كان من الممكن ان تنظر اليها دونأن تحبها، ولكن ما كنت لتستطيع أن تمتلكها دون ان تعبدها ، ويلوح لى أن هذا من شأنه أن يثبت انها لم تكن تسرف دائما فى حبها اسرافها فيه معى . . لقد كان توددها الى مفاجئا حيا ، حتى ليتعذر على ان أجد عذرا يبرره ، سوى ان قلبها كان له فى ذلك نصيب كنصيب حواسها . وفى الفترة الوجيزة اللذيذة التى قضيتها معها ، اجتمعت لى اسباب ذلكالاعتدال الذى ارغمتنى عليه وفرضته على فرضا ، فانها – رغم كونها شهوانية جياشة العاطفة – كانت تفكر فى صحتى أكثر مما تفكر فى متعتها !

ولم يفت المركيز ما كان بيننـــا من تفاهم ! على أنه لم يكف عن المزاح معى ، بل انه على النقيض كان يعـــاملنى ـ اكثر من ذى قبل ـ معاملة العاشق البالغ الحياء، شهيد قسوة السيدة وصدودها ! ولم تكن تفلت منه كلمة أو ابتسامة أو نظرة تدعنى أشتبه فى انه قد كشف أمرنا .. بحيث كان لى ان أعتقد أننا خدعناه ، لولا ان السيدة دى لارناج ، وكانت أكثر منى فطنة وحذقا ، أخبرتنى بأن الحال ليست كما وصفت ، بل انه كان رجلا شهما من اصحاب المروءة والنبل .. والواقع أنه ما من أحد كان يظهر ما أظهر من ادب ، أو يتصرف فى كياسة أكثر مما كان يتصرف هو دواما ، حتى نحوى أنا ـ فيما عـدا تهكمه ، وخاصة بعد نجاحى ـ ولعله كان يعـزو الفضل فى ذلك الى ، واعتبرنى شخصـا غير ذلك الأحمق الذى كنت أبدوه ـ وقد كان فى ذلك مخطئا ، كما مر بنـا ! ـ ومهما يكن من أمـر فقد انتفعت بخطئه . ومن الحق أن أقول اننى ، وقد انقلبت كفة الميزان ، كنت احتمل نكاته بصدر رحب وسمـاحة ، بل كنت أجيبه عليها ـ والسعادة تغلب على ـ فخورا بأن أكشف أمام السيدة دى لارناج تلك الفطنة التى وصفتنى بها ، بعـد ان لم أعد الرجل الذى كنته !

ولقد كنا فى الريف، وفى فصل تشيع فيه البهجة، واستمتعنا به غاية الاستمتاع بفضل المركيز ، ولو انى كنت مسـتطيعا ان أستغنى عن عنايته بنا ، تلك العناية التى امتدت حتى شملت مخادعنا ، فقد كان يرسل خادمه ليحجز لنا حجراتنا مقدما . وكان هذا الوغد ـ اما من تلقاء نفسه أو بناء على أوامر المركيز ـ يحجز لسيده دائما غرفة مجاورة لغرفة السيدة دى لارناج ، فى حين يلقى بنا فى الطرف الآخر من الفندق ! .. على ان هذا لم يسبب لى من الحرج الا القليل ، بل أضاف الى فتنة مقابلاتنا .. ودامت هذه الحياة البهجة السعيدة اربعة أو خمسة أيام ، ثملت خلالها بأحلى اللذات ! كانت لذة حية لا زيف فيها ، ولم

تشبها أقل شائبة من الألم .. أول وآخر ما نعمت به من هذه المتع !.. ولا يسعنى الا القول بأننى مدين للسيدة دى لارناج بأننى لن أرحل عن هذا العالم دون أن أعرف طعم المتعة واللذة !

لم يكن شعورى نحوها هو الحب بمعناه ، وانما كان على الأقل مجاوبة رقيقة للحب الذى تظهره لى .. وكانت هى ملحة فى اشفاء غليلها من الصلة الجنسية، حلوة فى ممارستها، بحيث جعلت فيها كل ما يكون فى الهوى من فتنة وسحر ، مجردين من ذلك الهذيان الذى يدير العقل ويفسد المتعة. اننى لم أشعر بالحب الصادق الا مرة واحدة فى حياتى ، ولم يكن هذا معها، بل اننى لم أحبها كما أحببت وما زلت أحب مدام دى فاران ، ولكن امتلاكهـا كان يضفى على من المتعـة ما يفوق متعتى مع الاخرى مائة مرة !.. لقد كانت متعتى مع «ماما» يشوبها دائما شعور بالحزن .. شعور دفين بالضيق ، موضعه القلب . وهو شعور كنت أجد صعوبة فى التغلب عليه ، بحيث اننى بدلا من تهنئة نفسى على امتلاكها كنت انحى على نفسى باللائمة لاذلالها وتحقيرها ! .. **أما مـع السيدة دى لارناج فقـد كنت ، على العكس، فخورا برجولتى وبسعادتى.. وأطلقت لنفسى العنان، فى اطمئنان وفرح ، لاشباع رغبـاتى . ولقد شاركتها الشعور الذى بعثته فيها ، وكنت امتلك زمام نفسى ، وانظر الى فوزى نظرة الارتياح النفسى التى انظر بها تماما الى المتعة ، واستمد منها الوسيلة التى تعيننى على مضاعفتها !**

ولا أذكر متى تركنا المركيز ـ الذى كان من أهل المنطقـة ـ غير أننا كنا وحدنا عندما بلغنا (مونتيليمار)، حيث أمرت السيدة دى لارناج خادمتها بأن تستقل عربتى، بينما ركبت أنا عربتها، وأستطيع ان أؤكد لكم أننا بهذه الطريقة لم نجد الرحلة شاقة. وانى لأجد من الصعب على أن أصف المنطقـة التى اجتزناها ، وقد بقيت السيدة فى (مونتيليمار) ثلاثة أيام، لبعض شئونها ، على أنها لم تتركنى خلالهـا الا ربع ساعة قامت فيها بزيارة ،

عادت عليها بدعوات عاجلة ملحة . ولم تكن ميالة بأى حال من الأحوال لقبول هذه الدعوات ، فزعمت انها متوعكة المزاج، على ان هذا لم يحل بيننا وبين السير سويا وحدنا – كل يوم – فى أجمل بقعة من بقاع الريف ، وفى ظل اجمل سماء فى العالم .. واحسرتاه على تلك الأيام الثلاثة ! لقد جد فى حياتى من الأسباب مادعانى للندم عليها أحيانا ! فما استمتعت قط بمثلها بعد ذلك!

* * *

• **والحب** أثناء السفر لايمكن ان يدوم ، وهكذا أضطررنا للافتراق .. وأعترف ان الوقت كان قد حان لذلك ، لا لأننى أفعمت وزهدت ، أو لسبب من هذا القبيل ، بل انى كنت ازداد ولعا بها يوما بعد يوم ، غير انى بالرغم من حرصها ، لم يبق لى – فيما خلا صفاء النية – الا القليل . وقبل ان نفترق أردت أن أستمتع بذلك القليل ، فأذعنت هى لرغبتى ، على سبيل الاحتياط من غادات (مونبلييه) . وتحايلنا على ماكان يعترينا من أسى باعداد العدة للمقابلة مرة أخرى .. وكان قد تقرر ان أستمر فى العلاج، الذى أفادنى فائدة عظمى ، وأن أقضى الشتاء فى (سانت انديول) تحت رعايتها ، على أن أبقى خمسة أسابيع أو ستة فقط فى مونبلييه ، حتى أفسح لها الوقت لكى تعد الترتيبات التمهيدية الضرورية ، منعا للفضيحة . وقد لقنتنى التعليمات المفصلة عما كنت بحاجة الى معرفته ، وعما يجب أن أقول والكيفية التى يجب أن أتعرف بها عليها ، وكان علينا فى الوقت نفسه أن نتبادل الرسائل . وقد حدثتنى طويلا فى جد واهتمام عن وجوب العناية بصحتى ، ونصحتنى بأن استشير بعض الأطباء الماهرين وان أعنى باتباع مايشيرون به ، وأخذت على عاتقها أن تجعلنى أنفذ تعليماتهم ، مهما كان من صرامتها، طالما أنا معها . **وأعتقد انها كانت تتحدث فى صدق واخلاص ، اذ انها كانت تحبنى ، وقد زودتنى بالأدلة الكثيرة على ذلك ،**

التى يعتمد عليها أكثر من الاعتماد على هبتها نفسها لى !.. وقد أمكنها ان تحكم من طريقة سفرى بأننى لم أكن أتمرغ فى المال ، ومع أنها هى ايضا لم تكن بالموسرة بأى حال من الأحوال الا أنها كانت تريد أن تقاسمنى ما فى كيس نقودها ، وكانت قد جاءت به مليئا من (جرينوبل) .. وقد وجدت مشقة عظيمة فى حملها على قبول اعتذارى ، وتركتها اخيرا ، تاركا فى قلبها ـ فيما أعتقد ـ حبا صادقا لى !

وانتهت رحلتى ، بينما كنت استعيدها فى ذاكرتى منذ البداية ، وكنت قانعا فى تلك اللحظة كل القناعة بأن أجلس فى عربة مريحة أحلم ، فى راحة ويسر، بالمتع التى كان من نصيبى أن أنعم بها ، وبتلك التي وعدتنى بها . لم أكن أفكر الا فى (سانت انديول) والحياة البهيجة التى كانت تنتظرنى فيها ، ولم أكن أرى الا السيدة دى لارناج وبيئتها . أما بقية العالم فلم تكن بالنسبة لى شيئا مذكورا ، حتى «ماما» نسيتها ، واستغرقت فى التفكير فى كافة التفاصيل التى ذكرتها لى السيدة دى لارناج حتى توحى الى مقدما بفكرة عن منزلها وعن جيرانها واصدقائها وطريقة حياتها . وكانت لها ابنة ، كثيرا ما حدثتنى عنها فى عبارات من الحب أسرفت فيها كل الاسراف ، وكانت ابنتها هذه فى السادسة عشرة من عمرها ، رشيقة فاتنة ودودة . ووعدتنى السيدة دى لارناج بأننى سأكون ولا شك صاحب الحظوة الكبرى عندها . ولم أنس هذا الوعد ، وقد استبد بى الفضول لكى أرى كيف تتصرف الآنسة دى لارناج نحو صديق أمها الحميم ! كانت تلك هى أحلامى من (بون سان اسبرى) حتى (ريمولان) .. ولقد قيل لى ان أذهب وأشاهد «بون دوجار» (جسر الحرس) . ولم يفتنى ان افعل ، فلقد كان الجسر هو الأثر الرومانى الأول الذى شاهدته. وانتظرت ان أرى نصبا جديرا بالأيدى التى أقامته .. وللمرة الأولى والأخيرة فى حياتى جاوزت الحقيقة ما كنت أتخيل : لم يكن يستطيع غير الرومان

اقامة هذا الأثر الخالد !

لقد أثر فى نفسى منظر هذا العمل البسيط ، النبيل معذلك ، أعظم تأثير .. ذلك أنه كان يقوم فى قلب الصحراء ، حيث السكون والوحدة يبرزان الأشياء ابرازا عظيما ويثيران شعورا بالاعجاب أقوى وأشد ، اذ ان هذا الجسر المزعوم لم يكن الا مجرى ماء فوقه قناطر ، ومن الطبيعى أن يتساءل المرء أية قوة تلك التى نقلت هذه الأحجار الضخمة الى هذا المكان النائى عن أى محجر من المحاجر ، وتمثلت فى أذرع الآلاف المؤلفة من الرجال فى بقعة لايقيم أحد منهم فيها !

واجتزت الطبقات الثلاث التى كان يتألف منها هذا البناء البديع ، وكنت أشعر داخلها باحترام كاد يمنعنى من أن أطأها بقدمى ! وحملنى صدى وقع قدمى تحت هذه الأقبية العظيمة على ان أتخيل أننى أسمع الأصوات القوية لأولئك الذين أقاموا صرحها ! شعرت أننى ضائع فى وسط هذه العظمة كأننى الحشرة ، وشعرت بالرغم من احساسى بضآلتى كأن روحى قد سمت بطريقة ما ، وقلت أحدث نفسى وأنا أتأوه : « لماذا لم أولد رومانيا ؟ » ، وبقيت فى ذلك المكان بضع ساعات فى تأمل يذهل العقل ، وعدت وأنا سارح الفكر ، ولم يكن شرود الفكر ليوافق السيدة دى لارناج ، وهى التى عنيت بأن تحذرنى من فتيات (مونبلييه) ، لا من جسر الحرس .. لكن المرء لا يفكر فى كل شىء !

وفى (نيم) ، ذهبت لأشاهد الملعب المدرج ، انه عمل اكثر روعة بكثير من جسر الحرس ، الا ان تأثيره على كان أقل بكثير من تأثير الجسر .. فاما ان الجسر قد استنفد كل اعجابى ، أو أن المدرج ، وهو يقع فى وسط المدينة ، كان أقل من أن يثير اعجابى ! لقد كانت تحيط بهذا الميدان البديع الفسيح الارجاء منازل صغيرة قبيحة ، وامتلأت الحلبة بمنازل أخرى ، اصغر وأقبح ، حتى أن المنظر كله كان يبعث فى النفس الشعور

بالاضطراب وعدم التناسق ، كما كان النفور يخمد المتعة والدهشة ، **وقد رأيت منذ ذلك الحين ملعب « فيرونا » وهو أصغر بكثير وأقل مهابة وجلالا ، ولكنهم احتفظوا به فى أكبر قدر ممكن من النظافة والأناقة ، ولهذا السبب وحده أثر فى تأثيرا أبلغ وأقوى ، ووقع من نفسى موقع القبول . . ان الفرنسيين لايعنون بشىء ولا يحترمون النصب ، وهم تواقون أشد التوق للقيام بأى عمل ، ولكنهم لايعرفون كيف يتمونه أو كيف يحفظونه سليما اذا ما انتهوا منه !**

لقد تبدلت حالى كثيرا ، واستيقظت أحاسيسى — وكانت قد تنبهت الى العمل — حتى بقيت يوما بأكمله فى فندق (بون دى لونيل) لأنعم مع الزائرين الآخرين بطيب الجو الذى شاع فيه. وكان هذا الفندق — اذ ذاك — أشهر فندق فى أوربا ، كما كان جديرا بما اكتسب من صيت ، فقد عرف أصحابه كيف يستغلون موقعه البديع ، فزودوه بوفرة من أطايب المأكولات . ولقد كان من الغريب حقا أن تجد فى دار نائية منعزلة — فى وسط الريف — مائدة زودت بسمك البحر وسمك النهر ولحوم الصيد البديعة والخمور المنتقاة ، تقدم لك فى أدب وكياسة لا تجدهما الا فى بيوت العظماء والموسرين . . وكل هذا بخمسة وثلاثين « سو » للشخص ! . . الا أن « جسر دى لونيل » لم يبق فى هذا المستوى طويلا ، اذ أنه تمادى فى استغلال سمعته ، حتى فقدها بأسرها فى النهاية !

ولقد نسيت اثناء رحلتى أننى كنت مريضا ، فلم اتذكر ذلك الا عندما بلغت (مونبيلييه) . ولقد كان من المحقق اننى شفيت من نوبات الهستيريا التى كانت تنتابنى ، الا أن كل عللى الأخرى بقيت . ومع ان اعتيادى اياها جعلنى أقل احساسا بها ، الا انها كانت تكفى لأن تحمل أى انسان على الاعتقاد — اذا ما تعرض لنوباتها فجأة — بأنه على باب القبر . . **كانت هذه العلل — فى الواقع — أكثر بعثا للانزعاج منها اثارة**

للألم ، وكانت تسبب من عذاب العقل أكثر مما سبب من عذاب الجسم ، وهى التى كانت تعلن عن تدميره فيما يلوح . ومن ثم فاننى كنت ـ حين اشغل بالانفعالات العنيفة ـ لا أفكر فى حالتى الصحية . ولكن عللى لم تكن خيالية ، فكنت اعود الى الاحساس بها مرة أخرى عندما يعاودنى هدوئى ، وبدأت عندئذ أفكر تفكيرا جديا فى نصيحة السيدة دى « لارناج » ، وفى هدفى من رحلتى ، فاستشرت أشهر الأطباء وعلى الأخص السيد « فيز » .

وزيادة فى الحيطة ، نزلت عند طبيب . كان ايرلنديا اسمه « فيتز موريس » ، وكان ينزل عنده عدد عظيم من طلبة الطب . ومما جعل منزله أكثر مدعاة لراحة المريض المقيم ، أنه كان يقنع بأجر معقول لقاء المأكل والمسكن ، ولا يتقاضى شيئا من نزلائه فى مقابل الرعاية الطبية . وقد أخذ على عاتقه أن ينفذ تعليمات السيد « فيز » ، وأن يعنى بصحتى . أما فيما يتعلق بالغذاء فقد كان يوفى ما عليه وفاء يدعو للاعجاب ، فلم يكن بين النزلاء من يعانى عسر الهضم . ومع اننى لم أكن ممن يأبهون بالحرمان من الطعام ، الا أن الفرص التى تهيىء لى المقارنة كانت فى متناول يدى ، حتى اننى لم أتمالك فى بعض الاحيان من ان اتبين ـ فيما بينى وبين نفسى ـ ان السيد دى « تورنيان » كان موردا للأغذية أفضل من السيد « فيتز موريس » ، وعلى كل حال فلم نكن نشكو الجوع تماما ! . وكان الطلبة الشبان غاية فى المرح ، وقد أفادنى حقا هذا الأسلوب من أساليب الحياة ، وحال دون اصابتى بما كان ينتابنى قبلا من الاكتئاب . وكنت أقضى الصباح فى تناول الأدوية ، وخاصة بعض المياه ـ التى أعتقد انها كانت تأتى من (فالس) ، وان لم أكن واثقا من ذلك ـ وفى الكتابة الى السيدة دى « لارناج » . ذلك أن الرسائل ظلت مستمرة ، وقد آلى روسو على نفسه أن يأتى بخطابات صديقه « دودنج » .

وكنت انطلق ـ عند الظهر ـ فى جولة الى (كانورج) مع أحد زملائنا الشبان الذين كانوا ينزلون معنا . وقد كانوا جميعا على خلق عظيم . وكنا نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء ، فاذا ما فرغنا منه ، كان معظمنا يشغل بمسألة هامة حتى المساء .. تلك هى اننا كنا ننطلق الى خارج المدينة ، لنلعب دورين أو ثلاثة من لعبة الكرة والصولجان ، ولنتناول شاى الأصيل . ولم أكن أشترك فى اللعب معهم ، اذ لم تكن تتوفر لى القوة أو البراعة فى اللعب ، ولكنى كنت اراهن على النتيجة . . **وهكذا كنت أتبع لاعبينا وكراتهم عبر الطرق الوعرة الصخرية ، وأنا مهتم برهانى ، فأنعم برياضة صحية ممتعة ، كانت تناسبنى الى أقصى حد . وكنا نتناول الشاى فى مقصف خارج المدينة ، وغنى عن البيان ان هذه الوجبات كانت مليئة بالمرح ، ولكنى أضيف الى هذا انها كانت محتشمة ، بالرغم من ان فتيات المقصف كن جميلات !** ..وكان رئيس الفريق هو السيد « فيتز موريس » نفسه ، فقد كان لاعبا عظيما . واستطيع أن أقرر ـ بالرغم من سوء سمعة الطلبة ـ اننى وجدت بين هؤلاء الشبان من الأدب والحشمة ما لا يسهل العثور عليه بين عدد مساو لهم من الرجال الناضجين .. كانوا أميل للضوضاء منهم للفسق ، وللمرح منهم للخلاعة . ولما كان من السهل على ان اعتاد اى سبيل من سبل الحياة ـ عندما يكون ذلك باختيارى ـ فاننى لم أعد اتمنى أكثر من استمرار هذه الحال

وكان بين الطلبة عدد من الايرلنديين حاولت أن أتعلم منهم بضع كلمات انجليزية تأهبا لذهابى الى (سانت انديول) ، فقد كانت السيدة دى « لارناج » تستحثنى فى كل بريد ، وكنت على استعداد لكى اذعن الى رغبتها . وكان من الواضح أن اطبائى ـ وقد غاب عنهم فهم علتى ـ اعتبروا الا وجود لها الا فى مخيلتى ! وبناء على هذا فانهم كانوا يعالجوننى بأعشابهم الصينية ومياههم واللبن الخثر .. والأطباء كالفلاسفة ، ولكنهم

يختلفون جد الاختلاف عن علماء أصول الدين ، اذ انهم لايقرون بأن شيئا ما صحيح الا اذا كان فى استطاعتهم أن يعللوه ، كما انهم يجعلون من ادراكهم مقياسا لكل ما هو ممكن ! .. **ولم يكن هؤلاء السادة يدركون شيئا عن علتى ، ولذلك لم أك مريضا البتة ، فى رأيهم !. فان الأطباء يعرفون كل شىء طبعا !.. وكنت أرى أنهم انما يحاولون خداعى وحملى على انفاق مالى ، ولما كنت اعتقد أن نائبتهم فى (سانت أنديول) ستفعل عين ما كانوا يفعلون — ولكن بطريقة أظرف — فقد صح عزمى على أن افضلها عليهم !** .. وما ان قر رأيى على هذا القرار الحكيم ، حتى رحلت عن (مونبيلييه) ، فغادرتها فى أواخر شهر نوفمبر ، بعد ان اقمت فيها ستة أسابيع أو شهرين ، وبعد ان انفقت فيها اثنى عشر «لوى» (١) ، دون ان يعود ذلك بأى نفع على صحتى أو على ادراكى ، اللهم فيما عدا منهج فى التشريح بدأته تحت ارشاد السيد « فيتز موريس » ، واضطررت ان اكف عن تلقيه نظرا للرائحة النتنة التى كانت تتصاعد من الجثث المشرحة ، فقد وجدت ان من المستحيل على ان اتحملها !

★ ★ ★

• **وشعرت** أننى غير مستريح للقرار الذى اتخذته ، فشرعت أفكر فيه وأنا أواصل رحلتى صوب (بون سان اسبرى) وكان الطريق يؤدى الى (شامبيرى) كما كان يؤدى الى (سانت انديول) ، فأثارت ذكرى « ماما » ورسائلها — ولو انها لم تكن تكتب كثيرا كما كانت السيدة دى « لارناج » تفعل — لواعج الحسرة فى فؤادى من جديد ، بعد ان كنت قد اخمدتها فى الشطر الأول من رحلتى .. وكانت فى عودتها قوية عنيفة ، حتى انها رجحت على حب المتعة ، فلم أجد مناصا من الاستماع

(١) اللوى عملة ذهبية كانت قيمتها ٢٠ فرنكا

الى صوت العقل وحده . ولعلنى كنت فى دور الافاق - الذى عدت الى الشروع فى ادائه - اقل توفيقا وحظا مما كنت فى المرة الأولى . ذلك لأن الأمر - فى هذه المرة - لم يكن يتطلب سوى ان يوجد فى بلدة (سانت انديول) بأسرها ، شخص واحد ، سبق له انزار انجلترا ، وعرف الانجليز ، وتمكن من لغتهم ، حتى يفتضح امرى ! .. وكان من المحتمل ان لا اروق لأسرة السيدة دى « لارناج » ، فتعاملنى بقليل من الكياسة . اذ كانت ابنتها - التى كنت افكر فيها ، بالرغم منى ، اكثر مما كان ينبغى - تسبب لى قلقا لم يفارقنى .. وكنت ارتجف لمجرد احتمال اننى قد أقع فى هواها ! .. وكان هذا الخوف يؤلف نصف العوامل التى كانت تحملنى على العدول .. وكنت اقول لنفسى : اترانى - فى مقابل افضال الأم - أسعى لافساد الابنة وللدخول معها فى علاقة بغيضة ، تصيب الاسرة بالتصدع والعار والفضيحة والجحيم معا ؟

كانت هذه الفكرة توقع الرعب فى نفسى ، ومن ثم فقد صممت تصميما جازما على ان اقاوم هذه النفس وأهزمها ، اذا انا شعرت بمثل هذه الرغبة الدنيئة . ولكن .. **لماذا أعرض نفسى لصراع كهذا ؟ .. اية حال تعسة من العيش تلك التى تدعونى الى أن أحيا مع الأم - التى كنت اوقن من اننى سئمتها - بينما يضطرم قلبى بحب الابنة ، دون ان اجرؤ على ان اكشف لها قلبى ؟ .. واية ضرورة تدعو الى السعى نحو حال كهذه ، اتعرض فيها للبلايا والاهانات والندم ، فى سبيل متع حظيت مقدما باعظمها فتنة ؟ .. ذلك انه كان من المحقق ان اهوائى كانت قد فقدت حدتها الأولى .. كان الميل للمتعة لا يزال قويا ، ولكن العاطفة المتأججة كانت قد ولت .** وقد خالطت ذلك افكار تتصل بموقفى ، وواجباتى ، وتلك الأم المفرطة الطيبة والكرم ، التى تورطت فى ديون - فوق التى

كانت تثقل عاتقها – فى سبيل نفقاتى الطائشة ، والتى أنفقت كل ما كانت تملك من أجلى ، أنا الذى كنت اخدعها بخسة .. ولقد اشتد هذا التأنيب وثقل على ضميرى حتى انقلبت الكفة آخر الأمر ، فما ان اقتربت من (سان اسبرى) ، حتى قررت أن اسرع باجتياز (سان أنديول) دون أن أتوقف فيها . ونفذت هذا القرار ببسالة ، وان كنت لا أنكر أننى زفرت بعض زفرات . بيد اننى فى رضائى عن نفسى ، كنت اتذوق – للمرة الاولى فى حياتى – لذة القدرة على أن أقول : « من حقى أن أشيد بذكر نفسى ، فاننى أعرف كيف أقدم واجبى على متعتى ! »

وهذا هو الالتزام الحقيقى الاول ، الذى خرجت به من دراستى ، اذ انها علمتنى ان افكر ، وان اقارن .. وبعد مبادىء الطهر والعفة – التى انتهجتها منذ عهد قريب – وبعد قواعد الحكمة والفضيلة التى ارتضيتها لنفسى ، والتى كنت فخورا كل الفخر باتباعها ، وجدتنى أشعر بالخزى من ان اكون متساهلا مع نفسى ، ومن أن أخالف قواعدى المقررة بهذه السرعة وهذه القوة ، وطغى هذا الشعور على ، فانتصر على المتعة ، وربما كان للاعتزاز بالنفس نصيب – فى قرارى – يعادل نصيب الفضيلة سواء بسواء . ولكن ، اذا لم يكن هذا الاعتزاز هو الفضيلة ذاتها ، فان آثاره كانت تشابه آثار الفضيلة الى درجة ان المرء يخطىء فى التفريق بينهما !

ومن الآثار الطيبة للأفعال الصالحة ، انها تسمو بالروح وتميل بها الى الاتيان بشىء أفضل ، ذلك أن الضعف البشرى بلغ مبلغا عظيما ، حتى لينبغى لنا أن نسلك فى عداد الأفعال الصالحة الامتناع عن الشر الذى تغرينا نفوسنا على ارتكابه .. وما ان اتخذت قرارى حتى أصبحت رجلا آخر ، أو – على الأصح – أصبحت الرجل الذى كنته من قبل .. الرجل الذى حملته نشوة هذه التجربة على أن يختفى . فواصلت رحلتى وقد

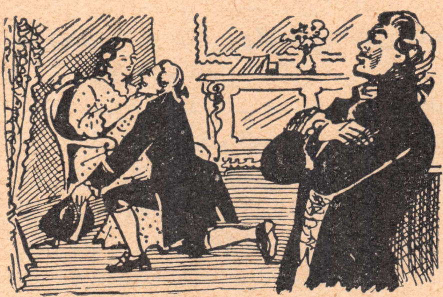
انطوى صدرى على أطيب المشاعر وأفضل القرارات ، منتويا التكفير عن خطئى ، وعدم التفكير الا فى تنظيم سلوكى فى المستقبل على أساس من قوانين الفضيلة ، مكرسا نفسى دون قيد او شرط لخدمة أبر الأمهات ، منذرا لها اخلاصا يعادل حبى لها ، منصتا لنداء واجبى وحده ، ولكن وا أسفاه ! ..

كان اخلاصى فى العودة الى الفضيلة ، يبدو وكأنه يخبىء لى مصيرا آخر . بيد ان مصيرى الحقيقى كان قد كتب فى لوح القدر ، وبدأ يتحقق فعلا . و فى اللحظة التى لم يكن فيها قلبى - الزاخر بحب كل ما هو طاهر وشريف - يرى أمامه سوى البراءة والسعادة ، كنت اقترب من اللحظة القاتلة التى قدر لها ان تجر وراءها تلك السلسلة الطويلة من الكوارث التى حلت بى !

كان تعجل الوصول قد جعلنى اسرع فى سفرى أكثر مما كنت انتوى ، وكنت قد أرسلت خطابا الى «ماما» من (فالانس) أخبرها فيه باليوم والساعة اللذين توقعت ان أصل فيهما . ولما كنت قد استبقت موعدى بنصف يوم ، فقد قضيت ذلك الوقت فى (شاباريان) لكى اصل فى اللحظة التى عينتها بالضبط ، وكنت أتوق الى ان استمتع غاية الاستمتاع بمرآها ثانية ، ففضلت أن أؤجل وصولى قليلا حتى أضيف الى ذلك متعة الشعور بأن ثمة من ينتظره . وكان حليف هذا الاجراء النجاح دائما ، فقد كنت أجد القوم يحتفلون بوصولى - فى كل مرة - وكأنه يوم عيد صغير . وهذا ما توقعته فى هذه المناسبة ، وكانت تلك العناية - التى كانت تهفو بالقلب والمشاعر - جديرة بالتعب الذى كان يبذل فى سبيل الظفر بها !

ووصلت فى اللحظة التى عينتها تماما . ومذ كنت على مسافة بعيدة من غايتى ، رحت انعم النظر فى الطريق ، علنى اراها .. « ماما » ! .. وراح قلبى يخفق فى عنف اخذ يطرد بازدياد اقترابى . ووصلت وانا الهث ، اذ اننى كنت قد تركت عربتى

فى المدينة .. ولم أر احـدا فى الفناء او عند الباب أو مطلا من النافذة ، فبدأ القلق يساورنى خشية ان يكون قد وقع حادث .. ودخلت فاذا كل شيء هادىء ، وبعض العمـال يأكلون فى المطبخ ، ولم تـكن ثمة امارات تنم عن أن القوم ينتظروننى . وبدت الدهشة على الخادم لرؤياى اذ انها كانت تجهـل امر قدومى . وصـعدت الدرج .. **واخـيرا رأيتها .. تلك الأم العزيزة ، التى اجتمع لها فى قلبى كل ما فى الحب من رقة وقوة واخلاص .** وهرعت اليها ، فألقيت نفسي عند قدميها . وقالت لى وهى تعانقنى : « آه اذن فقد عدت أيها الصغير ! .. أكانت رحلتك ممتعة ؟ .. كيف حالك ؟ » . وأذهلنى هذا الاستقبال بعض الشيء ، فسألتها عما اذا كانت قد تلقت خطابى . وأجابتنى بنعم ، فقلت : « ما كنت اعتقد هذا » . **وانتهى الحديث عند**



هذا الحد ، فقد كان معها شاب تذكرت أننى رأيتـه فى المنزل قبل رحيلى ، ولكنه بدا ـ فى هذه المرة ـ وكأن المقام قد استقر به هنـاك ، وكان ذلك هو الواقع فعـلا . ومجمل القول أننى وجدت من حل محلى !

وكان هذا الشاب من منطقة (فو) ، وكان أبوه ـ واسمه

« فنتزنريد » – أمين حصن (شييون) ، أو كبير ضباطه كما كان يدعو نفسه . أما الابن فقد كان عاملا يصنع الشعر المستعار ، وكان يطوف بالبلاد ممارسا مهنته ، عندما قدم نفسه الى السيدة دى « فاران » فأحسنت استقباله ، كما كانت تفعل مع عابرى الطريق جميعا ، لا سيما اولئك الذين يكونون قادمين من مسقط رأسها . وكان الشاب ذا شعر أشقر غزير حائل اللون ، وجسم بديع التكوين ، ووجه سمين ، وعقل فى ثقل جسمه !.. فقد كان يتحدث كالمغرور المتحذلق ، وهو يخلط بين اللهجات ، ويمزج الاحاديث التى تتطلبها مهنته بقصة طويلة – عن مغامراته وفتوحاته الغرامية – لم يكن يضمنها ، فيما زعم ، سوى نصف من ضاجعهن من المركيزات ! .. وكان يدعى انه ما صفف شعر حسناء ، الا وزين رأس زوجها ايضا ! .. كان مغرورا أخرق جاهلا وقحا ، أما فيما عدا هذا ، فقد كان من أحسن الشبان فى العالم ! .. **ذلك هو البديل الذى حل محلى أثناء غيابى والرفيق الذى قدموه الى بعد عودتى !** واذا كانت الأرواح التى تنطلق من القيود الدنيوية ، تظل ترى – خلال اضواء الأبدية – ما يجرى بين أهل الارض ، فاغفرلى – اذن – أيها الطيف الحبيب الأثير ، اننى لا أغض الطرف عن اخطائك ولا عن أخطائى ، بل اننى اكشف عنها جميعا أمام القارىء ، وعلى قدم المساواة ! . . لسوف أكون – ولابد لى من ان اكون – صادقا نحوك صدقى نحو نفسى ، ولن يصيبك من ذلك قط الا ما يقل كثيرا عما يصيبنى انا ! .. آه ! كم يكفر خلقك الوديع الرقيق ، وطيبة قلبك – التى لا ينضب معينها – وصراحتك ، وكل صفاتك الباعثة على الاعجاب .. كم تكفر هذه عن نقاط ضعفك ، اذا ما ذكرت تلك الهفوات التى يمكن ان توصف بأنها من اخطاء عقلك وحده !.. لقد أخطأت ، ولكنك كنت براء من الرذيلة – ولقد استحق مسلكك اللوم ،

ولكن قلبك ظل نقيا دائما .

ولقد أظهر القادم الحديث غيرة وحمية وعناية بتنفيذ الشئون الصغيرة العديدة التى كانت «ماما» تحتاج اليها ، ونصب نفسه رئيسا على عمالها . . وكان كثير الضجيج ، بقدر ما كنت شديد الهدوء !.. كان القوم يرونه ويسمعونه فى كل مكان فى وقت واحد : عند المحراث ، وفى مخزن الدريس ، وفى مخزن الخشب ، وفى الاسطبل ، وفى ساحة المزرعة. وكانت فلاحة البساتين هى الشىء الوحيد الذى أهمله، اذ أنها كانت هادئة جدا ،لا تهيىء الفرصة لاحداث ضوضاء.. **كان يفرح أشد الفرح بوسق عربةوقيادتها ، ونشر الخشب أو تكسيره .. فما كنت تراه الا والفأس أو البلطة فى يده ، وهو يعدو ويدفع ما امامه ويصيح بكل ما فيه من قوة .. ولست أدرى كم من عمل الرجال قام به ، ولكن الذى أدريه أنه كان يحدث من الضوضاء قدر ما يحدثه عشرة رجال أو اثنا عشر . وكانت كل هذه الضوضاء والحركة تخدع ((ماما)) المسكينة،فقد حسبت أنها وجدت فى هذا الشاب كنزا يعاونها فى شئونها ، وأرادت أن تحمله على التعلق بها فاستخدمت فى ذلك كل السبل التى اعتقدت أن من الممكن أن تأتى بالنتيجة المرجوة .. ولم تنس ذلك السبيل الذى كانت تعول عليه أكثر من سواه !**

ولابد أن القارىء قد استشف شيئا عن قلبى،وعن مشاعره الصادقة الثابتة ، لاسيما تلك التى حدت بى الى العودة الى « ماما » اذ ذاك ، ولكن يا للانقلاب المفاجىء الكامل فى كيانى كله !.. فليضع القارىء نفسه فى موضعى ، ليستطيع الحكم ! .. لقد رأيت كل ذلك المستقبل السعيد - الذى تخيلته لنفسى - يتلاشى فى لحظة ، وتبددت أحلام السعادة التى كنت أعتز بها اعتزازا .. ووجدتنى للمرة الأولى وحيدا ، أنا الذى ألفت منذ صباى الا أرى لنفسى وجودا الا فى وجود « ماما » ! .. كانت تلك اللحظة فظيعة ، ولكن اللحظات التى تلتها كانت

قاتمة كئيبة .. كنت لا أزال شابا ، ولكن ذلك الشعور العذب بالمتعة والأمل ـ الذى يبعث الحياة فى الشباب ـ كان قد هجرنى الى الأبد . ومنـذ ذلك الحين مات فى اعماقى الحس المرهف ـ نصف ميتة ـ ولم اعد أرى أمامى الا أطلالا حزينة لحيـاة تافهة ، فاذا ما أذكى شهواتى ـ بين الحين والحين ـ طيف من سعادة ، فان هذه السعادة لا تبدو لى حقيقية .. بل اننى كنت أوقن بأن ظفرى بها ، لن يجعلنى سعيدا حقا !

ولقد كنت غاية فى السذاجة ، كما كانت ثقتى بماما جد عارمة ، حتى اننى لم احدس قط السبب الحقيقى للهجة الالفة التى كان القادم الجديد يتحدث بها ، والتى اعتبرتها من نتائج طبيعة « ماما » السهلة الهينة التى تجتذب الناس جميعا اليها .. وماكنت لأحدس الأمر، لولم تبح به هى نفسها ، فقد بادرت الى الاعتراف ، فى صراحة كان من المحتمل ان تذكى سخطى ، لو ان قلبى كان يتسع لمزيد من السخط .. **ذلك أنها كانت ترى الامر بسيطا ، فقد عابت على اهمالى اثناء وجودى فى البيت ، وتذرعت ضدى بغيابى المتكرر ، وكأنما كانت طبيعتها تقتضيها ملء الفراغ بأسرع ما يمكن ، فقلت لها وقلبى يتمزق حزنا : « واها ياماما . . ما هـذا الذى تجرؤين على أن تحدثينى به ؟.. يا له من جزاء على اخلاص كذلك الذى آثرتك به ! .. هل أنقذت حياتى هكذا مرارا ، لغير ما داع الا لتحرمينى ذلك الذى جعلها عزيزة عندى ؟.. ان هذا سيوردنى مورد التهلكة ، ولكنك ستأسفين على فقدى ! »**. **فردت ـ فى هدوء كان خليقا بأن يدفعنى الى الجنون ـ بأننى طفل ، وان الناس لا يموتون من مثل هذه الأمور ، وانني لم أفقد شيئا ، واننا خليقان بأن نكون صديقين حميمين ـ بكل ما للصداقة من معنى ـ وثيقى الصلة فى كل أمر من الأمور ، وان حبها العميق لى لن يقل ولن ينتهى الا بانتهاء حياتها ! ..**

ومجمل القول أنها جعلتنى أدرك أن جميع مزاياى باقية على

ما كانت عليه، وانني لن أجد أى نقص فيها ، بالرغم من ان ثمة من اصبح يشاركنى اياها . ولم يظهر قط حبى لها - فى صفائه وصدقه وقوته - ولا ظهرت روحى - فى اخلاصها واستقامتها - مثلما ظهرا على هذه الصورة الواضحة ، فى تلك اللحظة . فقد القيت بنفسى عند قدميها ، وذرفت الدموع مدرارا ، وأمسكت بركبتيها ، وهتفت بها وأنا شارد الفكر : «كلا يا ماما !.. اننى أحبك حبا أعمق من ان يسمح لى باذلالك، وامتلاكك أغلى عندى من أن أستطيع مشاركة آخر فيه .. ان الندم الذى شعرت به عندما وهبتنى نفسك - لأول مرة - قد ازداد بازدياد حبى ، ولن استطيع ان احتمل هذا الندم بنفس الثمن . لسوف أظل دائما أعبدك . وابقى جديرا بحبك ، طالما ظلت حاجتى الى احترامك أكبر من حاجتى الى امتلاكك . اننى أكل أمر نفسك الى نفسك ، وأضحى فى سبيل اتحاد قلبينا بكل متعى !.. وخير عندى أن أموت ألف مرة من أن أسعى الى اذلال من أحب ! »

ولقد ظللت أمينا على هذا القرار فى ثبات وحزم اجرؤ على القول بأنهما جديران بالشعور الذى دفعنى الى هذا القرار . ومنذ تلك اللحظة كنت أنظر الى تلك الأم العزيزة بعينى الابن البار ! .. ولا بد لى من أن اضيف الى هذا ان قرارى ، وان لم يكن قد صادف موافقة منها شخصيا - كما تبين لى جليا - الا أنها لم تحاول قط أن تثنينى عن عزمى بتلك الاقتراحات المغرية، ولا الملاطفة ، ولا بسبل الغواية التى تجيد النساء استخدامها دون أن تصبن انفسهن بالجروح ، والتى نادرا ما يمنين فيها بالفشل !

* * *

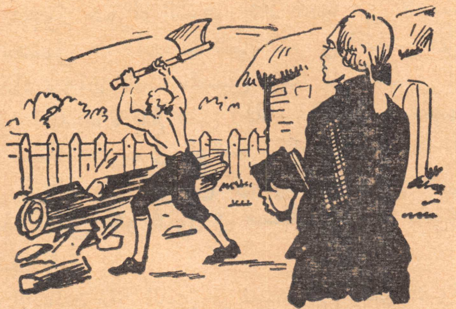
• **ووجدتنى** مكرها على أن أسعى الى مصير مستقل عن

« ماما » .. واستعصى على التفكير ، فسرعان ما ارتميت فى أحضان نقيضه تماما ، اذ سعيت الى البحث عن المصير المنشود عندها هى نفسها .. واستغرقت فى البحث عنه عندها ، حتى أفلحت فى نسيان نفسى أو كدت ، واستوعبت مشاعرى الرغبة الملحة فى أن أراها سعيدة مهما كان الثمن .. ولقد كان من العبث لها أن تفضل سعادتها عن سعادتى ، فلقد كنت أرى سعادتى فى أغوار سعادتها ، بالرغم منها !

وهكذا ، بدأت تنمو مع مصائبى ، تلك الفضائل التى كانت بذورها قد غرست فى أعماق قلبى ، والتى هذبتها الدراسة ، ولم تكن تنتظرها الا الشدة حتى تؤتى ثمارها . وكانت النتيجة الأولى لانكار الذات والتجرد عن الغرض ، ان زال من قلبى كل شعور بالحقد والحسد نحو ذلك الذى حل محلى ، بل اننى — على العكس من ذلك — كنت أريد فى اخلاص صادق ان اصبح وتيق الصلة بهذا الشاب ، وان أصوغ خلقه ، وأعلمه واشعره بسعادته ، وأجعله جديرا بها اذا أمكن . وبالاختصار أن أفعل له ما سبق لآنيه أن فعله من أجلى فى ظروف مماثلة !.. الا أن طبيعتينا لم تكونا متماثلتين . ومع اننى كنت ارق حاشية وأوسع علما من انيه الا اننى لم اوت قلة مبالاته أو ثباته او قوة خلقه ، التى كانت تبعث على الاحترام ، والتى كان لابد منها لضمان النجاح . زد على ذلك اننى لم اكن اجد فى هذا الشاب الصفات التى وجدها « انيه » فى ، وأعنى : دماثة الخلق والحب والعرفان بالجميل .. وأهم من هذا كله ، الادراك بأننى احتاج لرعايته ، والرغبة الملحة فى الانتفاع بهذه الرعاية .

كانت تعوزه كل هذه الصفات . وكان هذا الذى اردت أن ألقنه العلم ، لا يعتبرنى أكثر من متحذلق يبعث على السأم والضجر ، ولا يحسن من الأمور سوى الثرثرة . وكان — من ناحية أخرى — يعجب بنفسه بوصفه شخصا له شأنه فى المنزل .

فكان يغالى فى تقدير الخدمات التى يحسب انه كان يؤديها بالضوضاء التى كان يحدثها . وكان يرى أن فؤوسه ومعاوله أنفع كثيرا من كل كتبى القديمة !.. ولقد كان مصيبا بعض الشيء ، ولكنه – اعتمادا على هذا – كان يزهو ويستكبر فى صورة تدعو المرء الى الاغراق فى الضحك . وكان يحاول أن يمثل مع الفلاحين دور سيد من سادة الريف ، فما لبث ان اخذ يعاملنى نفس المعاملة ، بل انه راح يعامل «ماما» كذلك !.. واذ بدا له أن الاسم « فتزنريد » لم يكن فيه ما يميزه ، هجره واتخذ له اسم السيد دى « كورتيل » ، وهو الاسم الذى عرف به فيما بعد فى (شامبيرى) وفى (مورين) حيث تزوج !



ومجمل القول ان هذا الشخص البارع لم يلبث ان أصبح كل شىء فى المنزل ، بينما اصبحت أنا .. لا شىء !.. ولو ان سوء الطالع ساقنى الى اغضابه ، فان ، « ماما » هى التى كانت تتلقى اللوم بدلا منى ، ولهذا السبب فان خوفى من تعريضها الى سلوكه الفظ كان يدعو الى ان اجيبه الى كل رغباته وعندما كان يقبل على تكسير الاخشاب – وهو عمل كان يفخر به كل الفخر – كنت أقف متفرجا عاطلا ، ومعجبا صامتا بقوته

وجلده على العمل ! على ان سجاياه لم تكن فى مجموعها بالسجايا القبيحة . . لقد كان يحب « ماما » لأنه ما من أحد كان يستطيع ان يمسك نفسه عن حبها . ثم انه لم يظهر لى شيئا من النفور أو الكراهية ، وكان فى اللحظات التى يستولى فيها السكون عليه ، ينصت الينا هادئا ، ثم يعترف فى صراحة بأنه لم يكن الا أحمق . . ولا يلبث — بعد ذلك مباشرة — ان يرتكب حماقات جديدة . زد على ذلك ان ادراكه كان محدودا ، كما كان ذوقه وضيعا ، حتى لقد كان يتعذر على المرء مجادلته ، أو الشعور بالراحة معه . **ولم يقنع بالظفر بأشد النساء فتنة وسحرا ، بل انه جمع — على سبيل التغيير — بينها وبين وصيفة عجوز حمراء الشعر خلا فمها من الأسنان ، وكانت «ماما» تحتمل خدماتها — التى تثير فى النفس الاشمئزاز — فى صبر وأناة ، وان كانت تضيق بها كل الضيق ! واذ شاهدت هذا اللؤم الجديد ، بلغ منى الحقد والغيظ مبلغهما . على أننى لاحظت شيئا آخر — فى الوقت ذاته — كان أشد تأثيرا فى نفسى ، ودفعنى الى اليأس اكثر من أى أمر آخر وقع حتى ذلك اليوم . وكان هذا الشيء هو فتور فى مسلك «ماما» نحوى ، اخذ يزيد رويدا رويدا !**

ذلك ان الحرمان الذى فرضته على نفسى ، والذى تظاهرت هى بالموافقة عليه ، انما هو أحد تلك الأمور التى لا تغتفرها النساء قط — وان تظاهرن بقبولها ! — لا بسبب ما حرمن هن منه ، وانما بسبب الشعور بعدم الاكتراث الذى ينطوى عليه الأمر . ولو انك اخذت — على سبيل المثال — أوفر النساء عقلا ، واكثرهن فلسفة واقلهن شبقا ، لوجدت ان الجريمة الوحيدة التى لا تغفرها هذه المرأة للرجل قط — ولو كان اهتمامها به فيما عدا ذلك أضأل ما يكون — هى ان يكون بوسعه ان يستمتع بها ولكنه لا يفعل ! . . وليكن مفهوما ان هذه القاعدة بلا استثناء ،

اذ ان العاطفة ــ مهمـا تكن طبيعية وقوية ــ لاتلبث ان تتغير لدى المـرأة بسبب الحرمان الذى لا باعث له سـوى الفضيلة والحب والتقدير .. ومنذ ذلك الحين، لم أعد أجد لدى «ماما» تلك الصلة الوثيقـة التى تربط بين قلبين ، والتى كانت تفعم قلبى دائما بأحلى المتع . ولم تعد تبوح لى بأسرارها ، اللهم الا أن تشكو من ذلك الدخيل . أما عندما يكونان معا على صفاء ، فاننى لم اكن احظى بأسرارها .. ولم تلبث ــ آخـر الأمر ــ أن انتهجت نحوى مسلكا باعد بينى وبينها تدريجـا ، ومع ان حضورى ظل مبعث سرور لها ، الا انه لم يعد ضرورة لا غنى لها عنها ، حتى لقد كنت اقضى اياما بطولها دون ان اراها، فما كانت لتفطن الى ذلك !

* * *

• **ووجـدتنى** ــ دون ان افطن ــ معزولا وحيـدا فى هذا المنزل الذى كنت فيه قبل ذلك بمثابة «الروح» ! . . والذى اصبحت أحيا فيه حياة مزدوجة كما ينبغى ان يقال .. فألفت تدريجا ان أغض الطرف عن كل ما كان يقع فى هذا المنزل ، بل اننى أخذت اعتزل اولئـك الذين كانوا يقيمون فيـه . ولكى أجنب نفسى العذاب المتصل ، رحت احتبس نفسى مع كتبى ، أو اذهب فأبكى واتأوه ما شـاء لى الهـوى وسط الغـابات . **وسرعان ما أصبحت تلك الحياة فوق مايطيقه انسان، وشعرت بأن الوجود الشـخصى مع البعد القلبى بالنسبة لامـرأة كنت أعزها كل هذا الاعزاز ، كان يهيج شجونى . . وان الكف عن رؤيتها ، أقل قسوة ! ولذلك قررت ان اهجر المنزل .. ولقد قلت لها هذا ، فاذا بها تحبذه، بدلا من ان تعارضه! .. وكانت لها صديقة فى (جرينوبل) ــ تدعى السيدة ((ديبيان)) ــ كان زوجها صديقا للسيد ((دى مابلى)) ، محافظ مدينة (ليون). ولقد اقترح السيد ديبيان أن أتولى تعليم أولاد السيد دى مابلى،**

فقبلت ، ورحلت الى ليون دون أن أسبب لنفسي - بل دون أن أشعر تقريبا - بأقل أسف على فراق كان مجرد التفكير فيه - فيما مضى - يبعث فينا آلاما كنزعات الموت !

وكانت لدى المعرفة الضرورية - تقريبا - لكى أكون مربيا ، واعتقد انني اوتيت موهبة لذلك . وقد اتسع لى الوقت - في السنة التي قضيتها بمنزل السيدة دي مابلي - كى اكشف عن حقيقة نفسي، فاذا ما فطرت عليه من سماحة ورقة،كفيل بأن يجعلني أهلا لهذه المهنة ، لولا ما كان يشوبه من حدة الطبع . . فقد كنت كالملاك الكريم ، طالما سارت الامور على ما يرام ، وطالما كنت ارى تعبى وعنايتي - اللذين لم أكن اقتصد فيهما - يؤتيان ثمارا . ولكنني كنت اغدو شيطانا اذا ما انقلبت الامور . وعندما كان يستعصى على تلميذى فهمى ، كنت أهذى كالمجنون ، فاذا بدت منهما امارات تنم عن خبث وعصيان ، فانني كنت اتمنى لو استطعت ان اقتلهما ! . . وما كان هذا المسلك ليكفل لهما العلم أو الأدب . . وكانا غلامين يختلف طبع كل منهما عن الآخر كل الاختلاف : أحدهما في الثامنة أو التاسعة من العمر ، ويدعى « سانت ماري » ، له وجه جميل ، وعقل متفتح . وكان نشيطا ، طائشا ، لعوبا ، ماكرا . . الا ان مكره كان يتسم دائما بالمرح ! . . أما الاصغر - واسمه «كونديللاك» - فقد كان غبيا أو يكاد، تافها كسولا، أوتى عناد البغل . . وكان عاجزا عن ان يتعلم شيئا !

ولقد أكرهت على تقسيم عملي بين الاثنين ، كما هو واضح للقارىء ، ولعلني كنت مستطيعا بشيء من الصبر والهدوء ان اوفق فى عملى ، ولكنى كنت خلوا منهما ، ومن ثم فانني لم احرز مع تلميذى أى تقدم ، وكانت النتيجة غاية في السوء . . **وما كنت لأفتقر الى المثابرة، وانما كان يعوزني الاتزان والكياسة بوجه خاص . . اذ انني لم أكن أعرف من الاساليب التي تستخدم مع الأطفال الا ثلاثة ، كانت كلها دائما عقيمة عديمة**

الجدوى ، وكثيرا ما كانت تعود عليهم بأبلغ الضرر . . وهذه السبل الثلاث هى : العاطفة ، والمجادلة ، والغضب . ولقد تأثرت ذات مرة من ((سانت مارى)) تأثرا ذرفت معه الدمع، وحاولت ان أثير فيه عاطفة مماثلة ، كأنما كان فى وسع الطفل أن يتأثر تأثرا صحيحا !.. وفى مناسبة أخرى ارهقت نفسى فى مجادلته ، وكأنه كان قادرا على ان يفهمنى ، ولما كان يلجأ فى بعض الأحيان الى جدال غاية فى المكر والدهاء ، فقد اعتقدت أنه ولابد ذكى ، مادام يعرف كيف يجادل !.. أما «كونديللاك» الصغير ، فقد كان اشد جلبا للضيق والضجر ، اذ انه لم يكن يفهم شيئا، ولا يجيب عن أى سؤال، ولا يتأثر بأى مؤثر!.. كان عنيدا لايتزحزح عن موقفه ، ولم يكن موفقا فى شىء اللهم الا فى اثارة غضبى. واذ ذاك ، كان يغدو هو العاقل وأنا الطفل!

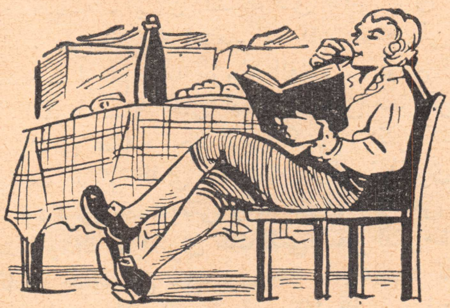
لقد تبينت كل اخطائى ، وكنت أدركها تمام الادراك . اذ اننى درست اخلاق تلميذى وأفلحت فى سبر غورهما . ولا اعتقد ان حيلهما انطلت على مرة ، ولكن ما جدوى تبين الشر اذا كنت لا أعرف كيف اعالجه ؟ . . ومع أننى كنت أستشف كل شىء ، الا اننى لم أكن أمنع شيئا ، ولم أفلح فى شىء.. كان كل ما أفعله هو عين ما كان ينبغى لى ألا أفعله !

ولم يكتب لى ــ فيما يتصل بأمر نفسى ــ من النجاح ، اكثر مما كتب لى فيما يتعلق بتلميذى ، وكانت السيدة «ديبان» قد أوصت بى السيدة دى مابلى ، وطلبت منها ان تهذب عاداتى وأن تطبعنى بطابع يتفق والمجتمع الراقى ، فجهدت السيدة فى ذلك بعض الجهد ، وأرادت ان تعلمنى كيف اشرف البيت الذى أنزل فيه ، بيد اننى أبديت من الارتباك والخجل بل والغباء ما ثبط همتها ودعاها الى اليأس منى . **ولكن هذا لم يمنعنى من الوقوع فى حبها بطريقتى المعهودة ، وقد عملت على ان تلاحظ هذا ، وأن لم أجرؤ أبدا على البوح لها بحبى ، ولم يكن من طبيعتها أن تتودد قط الى رجل ، ومن ثم فقد**

ذهبت غمزاتي ونظراتي وتأوهاتي أدراج الرياح ، وسرعان ما سئمتها ، اذ رأيت انها لم تكن تؤدي الى شيء !

وكنت اثناء اقامتي مع « ماما » قد فقدت، تماما الرغبة في السرقات الصغيرة ، اذ انني حين رأيت ان كل شيء قد بات ملك يدي ، لم اعد أجد ما يدعو الى السرقة ! فضلا عن ان المبادىء السامية التي انتهجتها كانت كفيلة بأن تجعل مني في المستقبل شخصا ساميا لا يأتي أمثال هذه الصغائر ، وهذا ما صرت اليه ــ يقينا ــ منذ ذلك الحين .. بيد ان هذا لم يكن راجعا الى انني استأصلت الداء من جذوره ، وانما كان مرده الى انني تعلمت التغلب على ما كان ينتابني من اغراء . وكان الخوف كثيرا ما يتملكني من أن اوغل في السرقة ــ كما كنت آفعل في طفولتي ــ اذا عاودتني الرغبة وتهيأت لي الفرصة. وقد تبدى لي الدليل على ذلك في دار السيد « دي مابلي » . فبالرغم من كثرة الاشياء الصغيرة التي كانت تحيط بي ، والتي كانت في متناول يدي ، الا انني لم اولها نظرة واحدة .. غير ان رغبة قوية تملكتني في الحصول على نبيذ ابيض بسيط المفعول اسمه نبيذ « أربوا » ، كان لذيذ الطعم ، وقد طاب لي كثيرا بعد أن تناولت منه بضع كؤوس على المائدة .. وكان كثيفا بعض الشيء ، وقد زهوت بمهارتي في تنقية النبيذ ، فعهد الي بهذا النوع بالذات ، فقمت بتنقيته ، ولكني افسدته اثناء ذلك . على ان الفساد لم يلحق الا مظهره ، فظل لذيذ الطعم ، وكنت انتهز الفرصة لآخذ بعض الزجاجات بين الحين والحين أتجرعها عند ما يحلو لي ، ولكنني ــ لسوء الحظ ــ لم أك اقوى على أن أشرب دون أن أقرن الشراب بالأكل ، فما حيلتي في الحصول على الخبز ؟ .. كان من المستحيل علي ان احتفظ بشيء منه . ولو انني ارسلت الخدم لشرائه ، لانفضح أمري ، ولكان ذلك ــ في الوقت نفسه ــ اهانة ، أو شبه اهانة، لرب البيت ، كذلك كنت أخشي أن أشتريه بنفسي ، فكيف

يستطيع سيد مهذب ـ والسيف الى جانبه ـ دخول مخبز وشراء رغيف من الخبز ؟ .. وأخيرا تذكرت الملجأ الاخير الذى لجأ اليه أمير كبير قيل له ان الفلاحين لم يكونوا يجدون الخبز ، فأجاب بقوله : ((اذن دعوهم يأكلون الفطائر !)) .. ولكن ، يا للمشقة التى كابدتها فى الحصول على الفطائر ! .. كنت أخرج وحدى فى طلبها ، فأجتاز المدينة باكملها فى بعض الأحيان من طرف الى طرف ، وأمر بثلاثين محلا من محلات الفطائر ، قبل أن أدخل احدها . وكان من الضرورى الا يكون فى المحل غير شخص واحد ، وأن تكون سمات هذا الشخص بشوشة جدا ، قبل ان يستقر رأيى على المغامرة .. وما ان كنت أفوز بكعكتى الصغيرة العزيزة ، وأحكم غلق باب غرفتى على ، حتى كنت آتى بزجاجة نبيذى من قاع صوان بغرفتى .. وياللنشوات الصغيرة اللذيذة التى نعمت بها وحدى وأنا اقرأ بضع صفحات من رواية ! .. فقد كنت أحب دائما أن أقرأ وأنا اتناول طعامى



اذا كنت وحيدا ، فان القراءة اثناء الطعام ، كانت دائما الهواية التى تعوضنى عن سمير اخلو اليه . وكنت التهم صفحة ثم ازدرد لقمة ، وكأن كتابى كان يتناول الطعام معى !

وانا لم اكن ابدا فاسقا او سكيرا ، بل الواقع أننى لم أثمل فى

حياتي قط ! .. وهكذا توالت سرقاتي الصغيرة ، التي لم تك تخلو تماما من الحرص والحذر ، بيد انها لم تلبث ان اكتشفت، اذ فضحت الزجاجات أمري . ولم توجه الى اية ملاحظة ، الا ان القبو لم يعد موكولا الى ، وقد تصرف السيد « دى مابلى » فى هذا كله تصرفا كريما معقولا ، فقد كان رجلا شهما ، يخفى تحت ستار من الخشونة الملائمة لمنصبه نزعة رقيقة حقا ، وطيبة قلب نادرة ! . . كان ذكيا عادلا ، بل انه كان لطيفا ، وهو أمر لا تنتظره من ضابط من ضباط البوليس الراكب . وقد قدرت له تسامحه فأصبحت أكثر تعلقا به ، وحملنى هذا على ان امكث فى منزله فترة أطول مما كان ينبغى لى ، ولكننى وقد كرهت آخر الأمر مهنة لم أكن أصلح لها — بعد ان زججت بنفسى فى موقف كله تعب ، ولم يكن فيه مايسر . وبعد سنة من التجربة لم اقتصد فيها شيئا من جهدى — قررت أن أترك تلميذى وأنا مقتنع بأننى لن أفلح فى تنشئتهما تنشئة صحيحة . وكان السيد دى مابلى يرى هذا جيدا كما كنت أراه ، على أننى لا أعتقد أنه كان يقدم على فصلى — من تلقاء نفسه — لو لم أكفه مؤونة العناء .. ومن المحقق ان هذا التساهل المفرط — فى حال كهذه — ليس مما أقره !

ومما زاد فى عدم احتمالى لمركزى ، اننى كنت اقارنه على الدوام بذلك المركز الذى خلفته ورائى : **ذكرى (شارميت) الغالية ، وذكرى حديقتى واشجارى ، ونبعى ، وبستانى — وفوق هذا وذاك — ذكرى تلك التى أشعر اننى خلقت من اجلها ، والتى كانت حياة كل شىء وروحه . وعندما كانت تعاودنى ذكرى متعنا وحياتنا البريئة ، كان قلبى يرزح تحت شعور من الضيق والاختناق يسلبنى الشجاعة والقدرة على أن أفعل أى شىء ! وقد راودتنى — مائة مرة — رغبة عنيفة فى الانطلاق لفورى على قدمى ، والعودة الى السيدة دى فاران .. كنت على استعداد لأن اموت لفورى راضيا ، لو قدر لى ان اراها**

مرة أخرى !

ولم أستطع — آخر الأمر — أن أقاوم هذه الذكريات الرقيقة — التى كانت تنادينى اليها — مهما يكن الثمن ، فقلت لنفسى اننى لم أتذرع بما يكفى من الصبر والكرم والود ، واننى لو كنت قد أجهدت نفسى أكثر مما فعلت لظللت أعيش معها فى علاقة من الصداقة الخالصة ، وقد وضعت أجمل المشروعات فى العالم وتحرقت شوقا الى تنفيذها !

***

• **وهكذا** ، تركت ذات يوم كل شىء ونبذت كل شىء ، ثم شرعت فى رحلتى أنهب الأرض نهبا ، فوصلت الى الدار بعد استخدام جميع وسائل المواصلات التى توفرت لى فى صدر شبابى .. ووجدتنى عند قدميها مرة أخرى ! أواه ! لقد كنت أموت مغتبطا ، لو اننى وجدت — عند عودتى — فى استقبالها اياى ، أو فى عينيها ، أو فى عناقها ، أو — أخيرا — فى قلبها ، ربع ذلك الذى كنت أجده من قبل ، والذى كانت نفسى مفعمة به فى عودتى !

واحسرتاه على ما يصادف البشر من خدع قاتلة ! .. لقد تلقتنى « ماما » بذلك القلب الطيب الذى لا يموت الا بموتها ، ولكنى بحثت عبثا عن الماضى الذى ولى الى غير عودة . وما ان مكثت معها نصف ساعة ، حتى شعرت بأن سعادتى السابقة قد زالت الى الأبد ، ووجدتنى فى نفس المركز المحزن الذى اضطررت الى الهرب منه دون أن أستطيع توجيه اللوم الى انسان ! .. ذلك أن « كورتيل » لم يكن فى قرارة نفسه فتى شريرا ، وقد لاح عليه السرور — لا الضيق — لمرآى . **ولكن كيف استطيع أن احتمل وجودى كشخص زائد عن الحاجة ، عند تلك التى كنت لها كل شىء ، والتى لن تكف عن ان تكون**

لى كل شىء ؟ .. كيف أستطيع أن أعيش غريبا فى منزل كنت أشعر أننى ابنه ؟ .. بل ان رؤية الأشياء التى شهدت هنائى الماضى ، كانت تزيد المفارقة ايلاما .. وكنت خليقا بأن أغدو أقل ألما فى اى جو آخر للمعيشة ، فان شعورى بأننى كنت أذكر دون انقطاع كل تلك الذكريات الحلوة ، كان يهيج فى صدرى الاحساس بفداحة ما فقدت .. واذ راحت الحسرات — التى لم يكن من ورائها طائل — تنهش قلبى ، واستبدت بى أشد الوان الكآبة سوادا ، أخذت الوذ بالوحدة فى غير أوقات الطعام ، وانفردت بكتبى ، وسعيت الى أن أجد فيها بعض التسلية النافعة !

وشعرت بأن الخطر — الذى كنت أخشاه طويلا — بات وشيك الوقوع ، فأخذت أجهد عقلى من جديد ، محاولا أن أجد من نفسى وسيلة للتحصن ضده اذا ما نضبت موارد « ماما » .. فلقد كنت أدير شئونها المنزلية على اساس أن لا تزداد الأمور سوءا ، أما بعد أن تركتها فقد تغير كل شىء .. كان مدبر ماليتها مسرفا ، يريد أن يختال بجواد أصيل وعربة .. وكان مولعا بتمثيل دور النبيل أمام الجيران ، كما انه كان — فى كل ذلك — يؤدى عملا لا يعرف عنه شيئا . **وكان معاش « ماما » مستنفدا مقدما . اذ كانت الدفعات التى تواتيها منه — كل ثلاثة اشهر — مرهونة ، وكانت متأخرة فى دفع الايجار ، وقد تراكمت عليها الديون ، وتوقعت ان يحجز على معاشها ، او ان يقطع عنها نهائيا .. ومجمل القول أننى لم أر أمامى الا الخراب والكوارث ، وبدت لى تلك اللحظة وشيكة ، حتى لقد تجسم أمام ناظرى كل ما تنطوى عليه من فظائع !**

وكانت غرفتى العزيزة الصغيرة هى ملهاتى الوحيدة ، وبعد أن بحثت طويلا عن أدوية لعلاج قلقى العقلى ، فكرت فى أن أبحث عن علاج للمتاعب التى كنت اتنبأ بها ، وعدت الى أفكارى

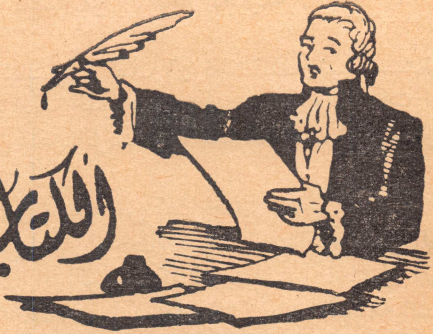
القديمة ، وبدأت فجأة أبنى القصور فى اسبانيا ، محاولا أن أنقذ « ماما » المسكينة من النهاية القاسية التى كنت أراها على وشك التردى فيها ! .. لكننى لم أكن أشعر أننى على علم كاف ، ولا كنت اعتقد اننى موهوب الى حد يكفى لأن يلمع نجمى بين رجال الأدب ، أو ان أجمع ثروة بهذه الوسيلة .. والهمتنى فكرة جديدة ـ خطرت لى ـ بالثقة التى عجزت عنها مواهبى المتوسطة .. ذلك اننى لم أكن قد أقلعت عن دراسة الموسيقى عندما كففت عن تدريسها ، بل اننى ـ على النقيض من ذلك ـ كنت قد درست نظرياتها دراسة تكفينى لأن أعتبر نفسى عالما فى هذه الناحية من الفن . وبينما كنت استرجع الصعوبة التى صادفتنى فى تعلم قراءة « النوتة » ، والصعوبة الكبرى التى كنت لا أزال ألاقيها فى الغناء بمجرد النظر الى « النوتة » ، أخذت أفكر فى أن هذه المشقة قد تكون راجعة الى طبيعة الأمر وليس الى عجزى وقصورى ، لا سيما واننى كنت أعلم أنه ليس من السهل على أى انسان أن يتعلم الموسيقى . وعندما فحصت ترتيب العلامات الموسيقية وجدت انها كثيرا ما تنم عن سوء ابتكار .. وكنت قد فكرت طويلا فى التعبير عن السلم الموسيقى بالأرقام ، وذلك لتفادى رسم الخطوط والعلامات المدرجة عند الرغبة فى كتابة أبسط النغمات . ولم تكن تعوقنى سوى صعوبات تتصل بالطبقات والزمن وقيم « النوتة »

وقد عاودتنى هذه الفكرة من جديد ، فلما أنعمت النظر فيها ، وجدت أن هذه الصعوبات ليست مما يتعذر التغلب عليه .. **وأفلحت فى تنفيذ فكرتى ، فاستطعت آخر الأمر أن أكتب أى موسيقى ـ مهما يكن شأنها ـ بأكثر ما يمكن من الدقة .. بل ان بوسعى ان اقول : بأكبر قدر من البساطة . واعتبرت نفسى ـ منذ تلك اللحظة ـ من أصحاب الثراء ! .. ولم أعد أفكر ـ وأنا شديد الشوق الى أن تقتسم معى ثروتى ،**

تلك المرأة التي كنت مدينا لها بكل شيء — الا في الارتحال الى باريس ، موقنا من أنني سأحدث انقلابا بمجرد عرض مشروعي على المحفل (الأكاديمية) ! .. وكنت قد حملت معي — من ليون — قليلا من المال ، كما انني بعت كتبي . وهكذا لم يمض أسبوع ، حتى أصبح قراري معدا للتنفيذ ، فرحلت أخيرا عن (سافوا) ، حاملا معي مشروعي الموسيقي ، وانا مفعم بالافكار الرائعة التي الهمنيها هذا المشروع ، كما رحلت من قبل عن (تورين) مصطحبا نافورتي الصغيرة !

تلك كانت اخطاء شبابي وعيوبه ، سردت قصتها باخلاص صادق يرضي قلبي . واذا قدر لي — فيما بعد — ان امجد السنوات التالية من عمري ، سنوات النضج ، بأية فضيلة من الفضائل ، فلن اكون — في ذلك — الا منتهجا عين الصراحة التي اتبعتها من قبل ، فهذه هي نيتي وغايتي !

على انه من الواجب ان أتوقف هنا .. ان الزمن كفيل بأن يدفع كثيرا من الأستار والأحجبة . واذا قدر لمذكراتي ان تنتقل الى الاجيال المقبلة ، فقد تفهم هذه الاجيال يوما ما كان ينبغي ان اقول ! .. واذ ذاك سيتبين السر في اخلادي الى الصمت !



الكتاب الثانى

الكراسة السابعة
سنة ١٧٤١

• **بعد** عامين من الصمت والصبر ، أعود الى القلم بالرغم مما كنت قد اعتزمت . فامسك ايها القارىء حكمك على الأسباب التى تضطرنى الى ذلك ، فلن يكون بوسعك ان تحكم الا بعد ان تقرأ ما انا قائل !

لقد تبين ان شبابى الوادع مضى ينساب فى حياة معتدلة ، كثيرة الرفق، دون ما ضائقات بالغة، ولا فترات رخاء عارم.. وكان هذا الاعتدال ــ الى حد كبير ــ نتاج طبيعتى التى جمعت بين التوثب والضعف ، ومن ثم فهى اقل اندفاعا الى الاقدام ، منها الى التأثر بالمثبطات..وانها لتخرج من تقاعدها بفورات ، ولكنها لاتلبث ان تعود بتقاعس واستمراء .. كما انها تحملنى دائما ــ بعيدا عن الفضائل الكبرى ، وأكثر بعدا عن الرذائل الكبرى ــ الى حياة الخمول والدعة التى كنت اظننى قدخلقت لها ، دون ان تمكننى اطلاقا من تحقيق أى شىء عظيم ، سواء كان طيبا أو خبيثا !

الا ما أعظم اختلاف الصورة التى سأرسمها عاجلا !.. فان القدر الذى ظل خلال ثلاثين عاما يحابى ميولى ، راح يعارضها

ثلاثين عاما أخرى ، وسيتجلى كيف ان هذا التعارض المستمر بين مركزى وميولى ، قد خلق عيوبا جسيمة ، وتعاسات لم يسمع لها مثيل ، وكل الفضائل ـ فيما عدا القوة ـ التى تجعل من البلايا اعمالا مجيدة !

لقد كتب الجزء الاول بأسره من اعترافاتى ، من الذاكرة .. ولا بد اننى ارتكبت كثيرا من الاخطاء فيه ، أما وانا مضطر الى كتابة الجزء الثانى من الذاكرة ـ كذلك ـ فمن المحتمل انى سأرتكب مزيدا من الأخطاء ! . . فان الذكريات الناعمة التى تبقت لى عن اعوامى الجميلة ، التى انقضت فى هدوء وبراءة ، قد تركت الف اثر فاتن أحب ان استرجعه دون ما توان ! .. ولسوف يتجلى عاجلا مدى اختلاف هذه الأعوام عن بقية عمرى . ان استعادة ذكراها لهى لون من المرارة المتجددة . وبدلا من أن أضاعف مرارات حالى الراهنة بتلك الذكريات الباعثة على الأسى ، فاننى اقصيها الى ابعد ما استطيع ، وكثيرا ما انجح فى ذلك ، الى درجة اننى لا أقوى على العثور عليها عند الحاجة . **وان هذه المقدرة على نسيان الهموم بسهولة ، لعزاء اسبغته السماء على ، وسط تلك الهموم التى راق للقدر ان يهيلها يوما على رأسى . فان ذاكرتى التى تستعيد بمقدرة فذة ما يستحب من الامور ، هى العامل المرجح السعيد الذى يغالب خيالى الفظيع الذى لايجعلنى أرى سوى القاسى من احداث المستقبل !**

ان كل الأوراق التى جمعتها كى تعيننى على التذكر ، وكى أهتدى بها فى هذا المشروع ، قد انتقلت الى ايد أخرى ، ولن يقدر لها ان تعود الى يدى .. ومن ثم فلست املك مرشدا أمينا استطيع ان اعتمد عليه ، اللهم الا واحدا ، يتمثل فى سلسلة الأحاسيس التى كانت تنم عن تتابع نمو كيانى ، وعن الأحداث المتعاقبة التى كانت اما سببا واما نتيجة لتلك الأحاسيس والمشاعر .. اننى لأنسى مصائبى بسهولة ، ولكنى

لا استطيع ان انسى اخطائى ، كما اننى اقل نسيانا لمشاعرى الطيبة ، فان ذكراها أعز لدى من ان تمحى عن صفحة قلبى الى الأبد . ولقد أستطيع ان احذف شيئا من الوقائع أو ان احرفها ، وقد أرتكب اخطاء فى التواريخ ، ولكن من المتعذر ان يختلط على الامر - او ان اخطىء - ازاء ما حملتنى عواطفى على فعله . وهذا هو الموضوع الرئيسي هنا . **فان الغرض الحقيقى لاعترافاتى هو ان اكشف بدقة عن دخيلة نفسى فى جميع مواقف حياتى .. فانى انما وعدت بأن أروى قصة نفسى . ولكى اكتبها بأمانة ، لا ارانى بحاجة الى مذكرات أخرى ، اذ يكفينى أن أعود للغوص فى اعماقى ، كدأبى حتى الآن!**

على ان ثمة فترة تتألف من ست او سبع سنوات ، املك - لحسن الحظ - معلومات وثيقة عنها ، ممثلة فى مجموعة منسوخة من خطابات معينة ، استقرت النسخ الأصلية لها فى حوزة السيد « دى بيرو » . وهذه المجموعة - التى تنتهى فى سنة ١٧٦٠ - تشمل جميع الفترة التى مكثتها فى «الصومعة» - (الارميتاج) - ونزاعى الكبير مع من كانوا يزعمون انهم اصدقائى .. وانها لفترة من حياتى جديرة بالذكر، فهى منبع كل البلايا الأخرى . اما بالنسبة للخطابات الأصلية الأقرب عهدا ، والتى بقيت فى حوزتى - وهى قليلة العدد جدا - فاننى لن انسخها واضيفها الى هذه المجموعة التى قدر لها ان تكون اضخم من ان ارجو ان اوفق فى اخفائها عن عيون رقبائى (١)، وانما سأسلكها فى سياق هذا المؤلف نفسه ، عندما يبدو لى

---

(١) العبارة التى ذكرها « روسو » هى : « اخفائها عن أعين (ارجوساتى) اليقظة » .. وارجوساتى هى جمع « أرجوس » . وهو تعبير مجازى ، فان « ارجوس » اسم يطلق فى أساطير اليونان على عملاق ذى مائة عين ، أقامته الربة « هيرا » - عندما تولتها الغيرة - ليراقب « يو » معشوقة الاله « زيوس » ، التى كانت قد مسخت على شكل بقرة !

انهـا كفيلة بأن تلقى اضواء على الوقائع ، سواء لصالحى أو ضدى . ذلك اننى لا اخشى قط ان ينسى القارىء اننى اكتب اعترافاتى ، وان يظن اننى اكتب تقريظا أو مبررا لما تخلل حياتى.. وانما يجدر به ان لايتوقع ان أمسك عن ذكر الحقيقة اذا كانت فى صفى وصالحى

وفيما عدا ذلك، فليس لهذا القسم الثانى من صفة يشترك فيها مع القسم الاول سوى هذه الحقيقة ، وليس له من ميزة عليه الا بقدر اهمية الأمور التى يتضمنها . وفيما عدا ذلك ، فلن يخفق هـذا القسم فى ان يكون مغـايرا لسابقه من كافة الاعتبارات (١) . فلقد كتبت الأول بلذة وسرور وارتياح ، فى (ووتون) أو فى قصر « تراى » ، وكانت لكل الذكريات التى تواردت على خاطرى مباهج جديدة . ولقد رحت أسترجعها دون انقطاع ، وباستمتاع متجدد ، فاستطعت ان اراجع وانقح ما اوردته من أوصاف ـ دون ما ملل أو ضيق ـ حتى أصبحت راضيا عنها . أما اليوم ، فان ذاكرتى وعقلى الكليلين يكادان يجعلانى عاجزا عن كل عمل ، ولست اشغل بهـذا القسم الا مكرها ، والأسى يعتصر قلبى .. انه لايمثل ـ بالنسبة الى ـ سوى محن وخيانات وغدر وذكريات تحزن النفس وتمزقها..

(٢) التعبير الذى أورده « روسو » هـو : « لن يخفق فى ان يكون أقل شأنا » .. وهو ما لا أحسبه يقصده ، فالواقع ان هـذا الجزء من اعترافاته ـ وهو الذى يشمل الكراسات من ٧ الى ١٢ ـ يضم أحداثا ومعلومات على قدر كبير من القيمة قد يفوق قدر ما ورد فى القسم الأول . وانما اختار «روسو» هذا الوصف لأنه كان ـ عندما كتب هذا القسم ـ ضحية لانفعـالات نفسية قاسية ، اوحت اليه بأن أعز أصدقائه ، الذين أووه فى انجلترا ـ حيث كتب الكراسات الست الأولى ـ قد تآمروا عليه مع ملك بروسيا ، فغادر بلادهم ، وظل يتنقل وهـو متنكر ، لا يكاد يأمن الى استقرار . ومن هنـا ندرك سر التشاؤم والأسى والشك والقنوط التى تطبع حديثه هذا

اننى لأنزل للدنيا عن كل شىء ، كى أوارى فى ليل الزمان ما أنا موشك ان اقوله .. وانى اذ اضطر الى الكلام - بالرغم منى - اعمد كذلك الى الاستخفاء ، والى التحايل ، والى محاولة الخداع ، وأنحدر الى تصرفات انا أبعد الناس عن ان اكون قد خلقت لممارستها !

ان للسقف الذى اوجد تحته عيونا ، وللجدران المحيطة بى آذانا . واننى - اذ يحف بى جواسيس ورقباء اشرار ويقظون، واذ يتوزعنى القلق والهم - لأسطر على الورق فى عجلة بضع كلمات مفككة لا أكاد أجد وقتا لمراجعتها. فما بالكم بتصحيحها!

.. اننى ادرك ان اعدائى لايزالون - رغم الحواجز الهائلة التى تقام حولى دون انقطاع - فى خوف دائم من ان تجد الحقيقة منفذا تتسرب منه. فكيف يتسنى لى ان أدفعبها الى النور ؟..

لسوف احاول ، وانا قليل الرجاء فى النجاح . فمنذا الذى يقول ان فى هذا مادة لصور مستحبة ، ولاضفاء الوان جذابة على هذه الصور ؟.. **اننى لهذا انذر المقبلين على قراءة هذا ، بأن ليس ثمة شىء - فى سياق هذا الحديث - يستطيع ان يقيهم السأم ، اللهم سوى الرغبة فى استكمال التعرف على انسان ، وسوى الحب الصادق للحق والصدق !**

* * *

• **تركتمونى** - فى القسم الأول - وانا راحل محسورا الى باريس ، مخلفا قلبى فى (شارميت) ، حيث أقمت آخر قلعة لى فى اسبانيا (١) ، معتزما ان اعود الى هناك يوما فأطرح عند قدمى «ماما» - اذ تكون قد ارتدت الى نفسها وسجيتها - ما اكون قد أحرزت من كنوز، ومطمئنا الى طريقتى الموسيقية بوصفها ثروة محققة اكيدة !

وتخلفت بعض الوقت فى (ليون) لأزور معارفى ، ولأحصل

(١) اصطلاح يقابل : « بناء القصور فى الهواء » عندنا

على بعض التوصيات التى أفيد منها فى باريس ، ولأبيع كتبى الهندسية التى كنت قد حملتها معى . ولقد رحب بى الجميع، فأظهر السيد والسيدة «دى مابلى» اغتباطا لرؤيتى ، ودعوانى للغداء عدة مرات ، وتعرفت لديهما بالراهب « دى مابلى » ، كما كنت قد تعرفت من قبل بالراهب «دى كونديللاك»، وكان الاثنان قد أقبلا لزيارة شقيقهما . ولقد اعطانى الراهب «دى مابلى » خطابات تقدمة الى اناس فى باريس ، منها واحد للسيد «دى فونتنيل» ، وآخر للكونت « دى كايلوس ». وقد اتاحت لى الرسالتان معرفة شخصيتين لطيفتين جدا ، لاسيما السيد الأول الذى لم يكف حتى موته عن ان يؤثرنى بوده ، وعن ان يمنحنى ــ فى الأحاديث التى كانت تدور فى خلواتنا ــ نصائح كان خليقًا بى ان أحسن الافادة منها

وزرت السيد « بورد » الذى كنت قد تعرفت به منذ وقت طويل ، والذى كثيرا ما ساعدنى بقلب كبير وبأعظم سرور صادق . ولقد ألفيته فى هذه المناسبة على حاله التى عهدتها. فقد كان هو الذى باع كتبى ، كما اعطانى من لدنه ــ او حصل لى من الغير ــ على خطابات توصية طيبة . وزرت السيد وكيل الحكومة، فقد كنت مدينا له بمعرفةالسيد «دى بورد»، **كما أدين له بالتعرف الى الدوق ((دى ريشيليو)) ، الذى مر بليون فى ذلك الوقت ، فقدمنى السيد ((بالو)) اليه . وقد أحسن السيد ((ريشيليو)) استقبالى ، ودعانى الى انازوره فى (باريس)ــ وهذا ما فعلته عدة مراتــ ولكن .. دون انيكون لهذه الشخصية الرفيعةــ التى سأتكلم عنها كثيرا فيما بعد ــ أى نفع لى !**

كذلك زرت الموسيقى «دافيد» الذى أولانى عونه فى ضائقتى فى احدى رحلاتى السابقة ، اذ أعارنىــ او منحنى ــ قلنسوة وزوجا من الجوارب ، لم اردها اليه قط ، ولا هو سألنى ان اردها أبدا ، رغم اننا تقابلنا كثيرا منذ ذلك الحين . على اننى لم ألبث ان قدمت اليه ــ فيما بعد ــ هدية تعادل تلك الأشياء

تقريبا . وبوسعى أن أتحدث عن نفسى بأشياء أفضل من هذا، لو اننى كنت بصدد ما كان ينبغى عمله ، لا ما عملته فعلا .. وهما حالان ليستا سواء ، لسوء الحظ !

كذلك رأيت النبيل السخى «بيريشون»، فلم افتقد سخاءه المعهود ، فقد منحنى عين الهدية التى كان قد قدمها من قبل الى « برنار » اللطيف اذ دفع أجر مقعدى فى عربة البريد السريعة .. وزرت الجراح «باريسو» ، احسن وأفضل الناس عملا . كما قابلت عزيزته « جودفروا » التى كان على علاقة مستمرة بها منذ عشر سنوات ، والتى كانت كل مؤهلاتها تقريبا تتمثل فى لطف الخلق وطيبة القلب ، والتى لم يكن فى وسع المرء ان يراها لأول مرة دون ان يوليها حسن اهتمامه ، ولا ان يفارقها دونما اشفاق وتأثر، اذ انها كانت فى آخر أطوار السل،الذى لم يلبث أن ماتت به بعد ذلك بقليل . **وليس اقدر على كشف الميول الحقيقية لأى انسان ، من اخلاق أولئك الذين يتعلق بهم (١) .. وقد كان بوسع اى امرىء رأى**

---

(١) أردف روسو – فى هامش مؤلفه – معلقا على هذا بقوله : « ما لم يكن قد خدع فى اختياره من البداية ، أو ما لم تكن شخصية المرأة التى تعلق بها قد تغيرت – بعد ذلك – بتأثير مجموعة من الظروف غير العادية ، فان من المستحيل أن تكون هذه القاعدة مطلقة . ولو أريد اقرار هذه القاعدة دون تعديل ، لجاز الحكم على « سقراط » بشخصية زوجته « كسانتيب » ، أو « ديون » بشخصية صديقه « كاليبوس » .. وهذا خليق بأن يكون أبعد الأحكام عن الانصاف ، وأكثرها خطلا . وفوق هذا ، لا ينبغى ان تطبق هذه القاعدة هنا على زوجتى تطبيقا يسىء اليها . فهى بالتأكيد أضيق عقلا وأسهل انسياقا للخداع مما كنت أتصور ، ولكنها ذات خلق طاهر ، رائع ، خال من أى خبث ، جدير بكل تقديرى ، وهذا ما سيظل يحظى به ما حييت »

«جودفروا» اللطيفة ان يدرك شخصية «باريسو» الطيب
انني مدين لكل هؤلاء الكرام . ولقد أغفلتهم جميعا ـ فيما بعد ـ لا عن جحود ، بالتأكيد ، وانما نتيجة ذلك الكسل العتيد الذى كثيرا ما يظهرنى بمظهر الجاحد ! .. بينما الواقع ان ذكرى خدماتهم لم تبرح فؤادى قط ، كما ان اظهارهم على عرفانى ما كان ليكبدنى ما تكبدنيه المثابرة على ذكره . ولقد كانت المواظبة على التراسل أمرا فوق طاقتى دائما، فانى ما ان ابدأ فى الشعور بتكاسلى فيها ، حتى يحملنى الخجل والحيرة فى طريقة اصلاح عيبى على مضاعفة هذا العيب ، فاذا بى أكف عن الكتابة بالمرة ! ومن ثم فقد لذت بالصمت ازاء هؤلاء ، حتى بدا اننى نسيتهم . ومع ذلك فان «باريسو» و «بيريشون» لم يلقيا بالا، فكنت اجدهما دائما كما عهدتهما. اما فى حالة السيد «بورد»، فلن يلبث ان يتبدى كيف ان الانتقام للشعور بالاهمال، حل ـ بعد عشرين عاما ـ محل الحب الصادق والذكاء البديع!

وما ينبغى لى ان انسى ـ قبل مبارحة ليون ـ شخصية لطيفة زرتها فى اغتباط لم أشعر قط بمثله ، وقد تركت فى فؤادى ذكريات جد رقيقة . تلك هى الآنسة « سير » ، التى تحدثت عنها فى القسم الاول (١)، والتى جددت تعارفى بها عندما كنت فى دار السيد « دى مابلى » . ولما كان لدى متسع من الوقت ، فى هذه الرحلة ، **فقد رأيتها كثيرا ، ومال اليها قلبى فى وجد قوى . ولدى من الاعتبارات ما يحملنى على ان اظن ان قلبها لم يكن على النقيض ، بيد انها اولتنى من الثقة مابدد كل اغراء بأن اسىء استغلالها . ولم تكن تملك شيئا ، ولا كنت انا املك اكثر منها ، وكان مركزانا جد متشابهين ، الى درجة لا تغرى بأن نتحد ، لا سيما واننى كنت ـ بالآراء التى كانت**

---

(٢) الكراسة الرابعة . وقد كتب لها « روسو » يوما أروع خطاب غرامى فى كل مخلفاته الأدبية !

تتملكنى ـ بعيدا كل البعد عن التفكير فى الزواج . ولقد انبأتنى بأن تاجرا شابا ، يدعى السيد جنيف ، كان يبدو راغبا فى ان يرتبط بها . وقد التقيت به عندها مرة أو اثنتين، فتراءى لى انه شاب امين شريف ، وكان معروفا بذلك . واذ خيل الى انها كانت تحبه، تمنيت ان يتزوجها ـ وهو ما فعله فيما بعد ـ فأسرعت بالرحيل كى لا أعكر صفو عواطفهما البريئة ، مزجيا لسعادة هذه الشابة الفاتنة دعوات ، لم يقدر لها ان تستجاب على هذه الارض الا لأجل قصير .. واأسفاه !.. جد قصير !.. فقد علمت فيما بعد انها ماتت بعد عامين أو ثلاثة من زواجها ! ولما كنت قد شغلت طيلة رحلتى بحسرات عاطفية ، فقد احسست ـ ولا ازال احس فى كثير من الاحيان ، كلما فكرت فى ذلك ـ بأنه اذا كانت التضحيات التى يقدم عليها المرء فى سبيل الواجب والفضيلة تكبده ثمنا غاليا ، الا انه لايلبث ان يتلقى الجزاء ممثلا فى الذكريات الناعمة التى تخلفها له تلك التضحيات فى قرارة فؤاده !

واذا كنت قد رأيت باريس ـ فى رحلتى السابقة ـ من ناحية لاتجعلها اهلا للاعجاب، فاننى رأيت ـ فى هذه الرحلة ـ جانبها اللامع . على ان هذا لم يكن الشأن بالنسبة لسكناى ، فقد ذهبت ـ حسب ارشاد السيد بورد ـ للاقامة فى نزل ((سان كنتان)) ، بشارع (ديه كوردييه) ، على مقربة من ((السوربون)) .. وكان شارعا وضيعا، ونزلا وضيعا، وحجرة وضيعة .. ومع ذلك فقد اعتاد هذا النزل ان يأوى رجالا محترمين ، من امثال جريسيه ، وبورد ، والراهبين الشقيقين ((دى مابلى)) ، وكونديلاك ، وكثيرين غيرهم ـ وان لم أعثر فيه ، لسوء الحظ ، على واحد منهم ـ غير انى التقيت بشاب يدعى السيد ((دى بونفون)) ، كان ريفيا اعرج ، محاميا يحرص على انتقاء ألفاظه . وقد تعرفت عن طريقه الى السيد

« روجان » الذى أصبح الآن أقدم اصدقائى . وعن طريقه تعرفت الى الفيلسوف « ديديرو » ، الذى سأكثر من الحديث عنه فيما بعد

***

• **ولقد** وصلت الى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ ، وكل مواردى خمسة عشر «لوى» ، ومسرحيتى الهزلية «نارسيس»، ومشروعى الموسيقى . ولما لم يكن لدى وقت اضيعه فى محاولة تدبير انفاقها على خير وجه، فقد اسرعت الى استغلال خطابات التوصية التى كنت احملها. وأى شاب يصل الى باريس مزودا بشكل وسيم ، ومعلنا عن نفسه بمواهبه ، قمين بأن يتأكد دائما من انه سيجد ترحيبا . وقد كنت كذلك ، فمكننى هذا من ان أحظى بنعم كثيرة ، وان كانت لم تساعدنى ماديا بدرجة تذكر . ومن كافة الأشخاص الذين حملت اليهم التوصيات ، لم يثبت سوى ثلاثة انهم نافعون لى ، وهم : السيد داميسان ـ وكان سيدا من (سافوا) ، كان اذ ذاك من الفرسان، وأحسبه كان ذا حظوة لدى الاميرة «دى كارينيان» ثم السيد «دى بوز»، سكرتير ديوان الخطوط وحارس الاوسمة بديوان الملك . . واخيرا الأب «كاستيل» الجزويتى ، مخترع «الكلافيسان» (١) البصرى . وكانت خطابات التوصية للأخيرين منهم صادرة من الراهب « دى مابلى »

ولقد تكفل السيد داميسان بما كانت تمس اليه حاجتى ،

---

(١) الكلافيسان آلة موسيقية . و « الكلافيسان البصرى » آلة ذات مفاتيح تتصل ـ الى جانب الاوتار ـ بمكعبات ملونة . فأذا عزف عليها ـ كما يعزف على الآلة الموسيقية ـ تتابعت الألوان تتابع الأنغام ، بحيث تتمشى الألوان الأساسية السبعة الأولى ، مع الأنغام السبعة الأولى فى الموسيقى . وكانت غاية المخترع ، ان يحدث المؤثرات النغمية بالألوان !

اذ عرفنى الى اثنين ، احدهما السيد « دى جاسك » ، رئيس برلمان (بوردو) (١) ، الذى كان يحذق العزف على الكمان حذقا بالغا .. وثانيهما الراهب «دى ليون» ، الذى كان يقيم اذ ذاك فى السوربون ، وكان راهبا شابا ، موفور اللطف ، مات فى زهرة عمره ، بعد ان تألق فى المجتمع لبضع سنوات تحت اسم الشيفاليه روهان (٢) . وكان كل منهما مشغوفا بتعلم التلحين ، فرحت ادرسه لهما بضعة أشهر ، مما انعش مواردى المالية الناضبة . ولقد أولانى الأب « ليون » وده ، ورغب فى أن يتخذنى سكرتيرا له ، ولكنه لم يكن غنيا ، فلم يكن بوسعه ان يدفع لى مرتبا يتجاوز ثمانمائة فرنك .. فرفضت منصبه وأنا آسف ، اذ لم يكن مرتبه يكفى لنفقات سكناى وتغذيتى ومستلزمات معيشتى .

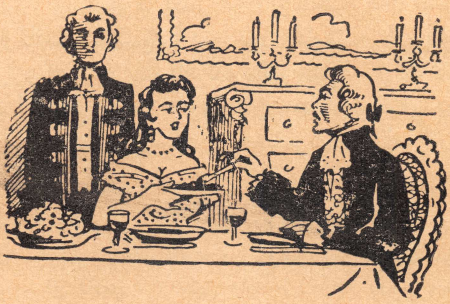
اما السيد « بوز » ، فقد استقبلنى استقبالا طيبا جدا . وكان عالما ، ومشغوفا بالمعرفة ، ولكنه كان متغطرسا بعض الشىء . **وكانت السيدة دى بوز خليقة بأن تكون ابنته ، لا زوجته ! وكانت لامعة الذكاء ذات مهابة . وقد تناولت الغداء فى دارهما بضع مرات ، وما كان أحد ليشعر بمثل ما كنت اشعر به من خجل وارتباك فى محضرها ، فقد كان مسلكها غير**

---

(١) فى الأصل : الرئيس ذو القلنسوة المخملية السوداء المستديرة !

(٢) بحثنا عن سيرة « الشيفالييه دى روهان » ، فلم نجد من يحمل لقب « شيفالييه » - أى فارس - وينطبق عليه ما ذكره « روسو » عن التألق وقصر العمر ، سوى « الشيفالييه لويس دى روهان » ، الذى اشترك فى مؤامرة ضد الملك لويس الرابع عشر ، وأعدم . ولكن هذا عاش بين سنتى ١٦٣٥ و ١٦٧٤ ، أى قبل مولد « روسو » . و « روهان » الوحيد الذى عاصره « روسو » هو الامير ادوار دى روهان - الذى عاش بين سنتى ١٧٣٤ و ١٨٠٣ - وكان كاردينالا ، ولكنه لم يكن « شيفالييه » . ولعل الأمر التبس على « روسو »

المتكلف يحرجنى ويجعل مسلكى ادعى الى الضحك . . فاذا قدمت لى طبقا، كنت ادفع «شوكتى» فألتقط – فى تواضع – قطعة صغيرة مما تقدمه لى ، بطريقة كانت تجعلها ترد الى خادمها الطبق الذى كانت قد أعدته لى، وهى تدير وجهها لكى لا اراها وهى تضحك !.. ومع ذلك ، فما كان يساورها أى ريب فى صلاحية رأس هذا الريفى الشاب ، ولم يفتها ان ترى فيه بعض الذكاء . ولقد قدمنى السيد دى بوز الى صديقه السيد « دى ريومور »، الذى اعتاد ان يحضر الى داره لتناول الغداء فى ايام الجمعة، وهى ايام انعقاد اجتماعات محفل العلوم. ولقد حدثه السيد دى بوز عن مشروعى، وعن الرغبة التى كانت لدى فى ان اضعه تحت اختبار المحفل، فتكفل السيد دى ريومور بالاقتراح ، فلم يلبث ان حظى بالقبول !



وفى اليوم المحدد لمناقشة المشروع، تولى السيد دى ريومور تقديمى والتعريف بى . وفى اليوم ذاته – ٢٢ اغسطس سنة ١٧٤٢ – تشرفت بأن قرأت على المحفل المذكرة التى اعددتها لذلك . ومع ان هذا المحفل الجليل كان عظيم المهابة والرهبة – يقينا – فاننى كنت أمامه اقل ارتباكا منى امام السيدة

دى بوز ، واستطعت ان أؤدى القراءة وان اجيب على الاسئلة بنجاح . فاستقبلت الرسالة بتقدير ، وجلبت لى التهانىء ، مما ادهشنى اكثر مما سرنى . . فما كنت لأتصور ان أى امرىء لاينتمى الى المحفل - أيا كان - يبدو لأعضائه ذا ادراك سليم ! وكانت اللجنة التى تولت مناقشتى تتكون من السادة دى ميران ، وهيلو ، ودى فوشى . وكان ثلاثتهم من الأكفاء دون ما ريب .. ولكن لم يكن بينهم واحد يلم بالموسيقى الماما كافيا - على الاقل - لأن يجعله فى وضع يمكنه من الحكم على مشروعى !

سنة ١٧٤٢

• **وفى** خلال مناقشاتى مع هؤلاء السادة ، تبينت - فى شك اكثر منى فى دهشة - ان العلماء وان كانوا أقل من سواهم تحاملا ، فى بعض الاحيان ، الا انهم اكثر تشبثا بما يكون لديهم من آراء ، وكأنهم يجدون فى ذلك لونا من التعويض . فبقدر ما كانت معارضة هؤلاء السادة واهية ، وخاطئة فى الغالب ، ومع اننى كنت أردها بحجج قاطعة - رغم تهيبى ، كما ينبغى ان اعترف ، ورغم سوء تعبيرى - الا اننى لم اوفق مرة واحدة الى ان احملهم على ان يفهموا قولى وأن يقتنعوا به . وكنت ابهت دائما للسهولة التى كانوا يخطئوننى بها - مستخدمين فى ذلك بعض العبارات الرنانة - دون أن يكونوا قد فهموا شيئا .. ولقد اكتشفوا - حيث لا أدرى - ان راهبا يدعى الأب « سوهيتى » ، كان قد تصور فكرة كتابة السلم الموسيقى بالأرقام . وكان هذا كافيا لأن يزعموا ان طريقتى لم تكن جديدة . وقد يكون الأمر كذلك ، اذ أننى وان لم أسمع قط بالأب سوهيتى ، ومع ان طريقته فى كتابة النغمات الرئيسية السبع فى الترانيم الكنسية دون أى تفكير فى الثمانيات ، لا تستحق - فى أى اعتبار - ان تقاس بابتكارى البسيط الملائم لكتابة

جميع أنواع الموسيقى الممكن تصورها ، فى غير مشقة، بوساطة الأرقام : من طبقــات ، ووقفات ، وثمانيــات ، ومســافات وتوقيت ، وتقييم .. وكلها اشياء لم تخطر لسوهيتى ببــال اطلاقا .. **بالرغم من كل هــذا ، فقد كان من الصحيح تماما أن يقال انه ـ فيما يتعلق بالتعبير الأولى عن النغمات الرئيسية السبع ـ كان أول مبتكر فى هــذا المضمار . ولـكنهم (١) لم يكتفوا بأن يعزوا الى هذا الابتكار البدائى أهمية اكثر مما كان يستحقها ، وانما أبوا ان يقفوا عند هذا ، وبمجـرد ان حاولوا ان يتكلموا عن المبادىء الأساسية للطريقة، لم يقولوا سوى لغو !**

. كانت الميزة الكبرى لطريقتى ، هى الاستغناء عن التبديل والطبقات ، بحيث يمكن كتابة أية قطعة ونقلها حسب الرغبة، ومهما تكن الطبقة المنشودة، بوساطة التبديل المقترح فى حرف ابتدائى واحد عند بداية اللحن . ولكن هؤلاء السادة كانوا قد سمعوا بعض مدعى الموسيقى فى باريس يقولون ان طريقة العزف بتبديل الطبقات غير ذات قيمة . ومن هنا ، قلبوا أبرز ميزات طريقتى الى اعتراض ضدها يتعذر التغلب عليه ،وانتهوا الى تقرير ان طريقتى صالحة للأداء الصوتى،وغير صالحة للاداء الآلى ، بدلا من ان يقرروا ـ كما كان ينبغى ـ انها صالحة للأداء الصوتى ، واكثر صلاحية للأداء الآلى . وبناء على تقريرهم ، منحنى المحفل شهادة مليئة بالاطراء البديع للغاية، يتبدى خلال سطورها انه ـ فى الواقع ـ لم ير ان طريقتى جديدة ولا نافعة!

.. ولم اشعر قط بأن من الواجب أن أزين بمثل هذه الوثيقة مؤلفى الذى سميته « رسالة فى الموسيقى الحديثة » ، ولجأت فيه الى تحكيم الرأى العام !

ومن حقى ـ فى هذه المناسبة ـ ان ألفت النظر الى ان المعرفة

---

(١) يقصد « روسو » اعضاء المحفل الذين تولوا مناقشته .

الممتازة بالشيء – على شريطة ان تكون شاملة عميقة – افضل من كافة الأضواء التى تلقيها الثقافة والعلوم ، فى تمكين المرء من اصابة الحكم ، اذا لم تكن هذه الأضواء مقترنة بدراسة خاصة للموضوع المعروض على بساط البحث . وكان الاعتراض القوى الوحيد ، الذى وجه الى طريقتى ، موجها من «رامو» . وما ان شرحت له ردى، حتى تبين ضعفه ، فقال: « ان علاماتك صالحة جدا ، من حيث انها تحدد القيم الموسيقية ببساطة ووضوح ، كما انها تعين المسافات بدقة ، وتبين دائما النغم المفرد فى حالة ازدواج النغم ، وهى أمور لاتيسرها طريقة النوتة العادية .. ولكن علاماتك غير صالحة من حيث انها تتطلب جهدا ذهنيا لايتناسب دائما مع سرعة الأداء » . واستطرد قائلا : « ان وضع علاماتنا الموسيقية يتجلى للعين دون حاجة الى الاستعانة بهذا الجهد الذهنى . فاذا ارتبط نغمان – أحدهما مرتفع جدا ، والآخر منخفض جدا – بسلسلة من الأنغام الوسيطة فان بوسعى ان أرى – من أول نظرة – التطرق التدريجى من أحد النغمين الى الآخر .. أما حسب طريقتك، فلا بد لى – للتأكد من هذا التسلسل – من ان أورد كل ارقامك متعاقبة – الواحد بعد الآخر ومن ثم فان النظرة الشاملة لا تمدك بشيء » !

ولاح لى انه اعتراض مفحم ، فأقررت لتوى بقوته ، فى حين انه بسيط ومدهش !.. فهو اعتراض لاتوحى به سوى الخبرة الواسعة بالفن ، ومن ثم فلا عجب فى انه لم يخطر ببال أحد من اعضاء المحفل ، ولكن هذه هى حال هؤلاء العلماء الكبار جميعا ، فهم يعرفون كل الأشياء ، بيد ان المامهم بكل شيء – على حدة – قليل ، بحيث لا ينبغى للواحد منهم ان يقضى برأى الا فيما يتعلق بالفرع الذى اختصه بدراسته !

وقد أتاحت لى زياراتى المتعددة لاعضاء لجنة مناقشة

رسالتى ، ولغيرهم من اعضاء المحفل ، فرص التعرف الى جميع اولئك الذين كانوا فى طليعة المبرزين فى ميدان الأدب فى (باريس) . ومن ثم فاننى كنت على معرفة قائمة بهم ، عندما وجدتنى - فيما بعد - مدرجا بغتة فى سلكهم . اما فى الفترة التى اتحدث عنها ، فقد كنت - لفرط استغراقى فى طريقتى الموسيقية - مصرا على ان احدث بها انقلابا فى هذا الفن ، وان أحرز بهذا شهرة ترتبط دائما فى ميادين الفن الجميل - فى باريس - بالثراء !.. **ولهذا احتبست نفسى فى غرفتى وعكفت على العمل شهرين أو ثلاثة فى حمية لا سبيل الى وصفها ، لاشرح - فى مؤلف أقدمه للرأى العام - المذكرة التى قرأتها على المحفل . وكانت العقبة تتمثل فى العثور على ناشر يتكفل بمؤلفى ، نظرا لأن الرموز الجديدة كانت تتطلب بعض نفقات ، فى حين ان الناشرين لايبعثرون دراهمهم على رؤوس المبتدئين ، مع اننى كنت أرى ان من الانصاف ان يعود على مؤلفى بالخبز الذى التهمته وأنا اكتبه !**

وعثر لى «بونفون» على « كايو » - الأب - الذى عقد معى اتفاقا على ان نقتسم الربح ، بغض النظر عن «الامتياز» (١) الذى كان على أن أتكفل بدفع نفقاته وحدى . وقد أساء «كايو» - المذكور - تدبير الأمر ، بحيث أن النقود التى دفعتها لأحصل على الامتياز ذهبت ادراج الرياح ، ولم أخرج بدرهم واحد من هذه الطبعة ، التى كانت - فى الواقع - ضئيلة الرواج ، بالرغم من ان الراهب «ديفونتين» وعد بالعمل على ترويجها، كما ان غيره من الصحفيين تحدثوا عنها حديثا طيبا!

ولقد كانت العقبة الكبرى فى تجربة طريقتى ، هى ان احدا لم يكن ليرضى بأن يضيع الوقت الذى يتطلبه تعلمها ، اذا هى لم تصبح الطريقة السائدة فى الموسيقى . وقد قلت ردا على ذلك ، ان المران على أسلوبى فى العلاقات الموسيقية ، يجعل

(١) نظام يقابل « حق النشر » ، يقصر حق طبع كتاب معين ، على مؤلف أو ناشر معين .

الأفكار من الوضــوح بحيث أن الذى يشرع فى تعلم العــلامات الموسيقيــة العادية ، يســتطيع ان يقتصــد من الوقت الذى يستغرقه تعلمها، اذا هو بدأ بطريقتى. **ولاقامة الدليل العملى، قدمت دروسا فيها ـ بالمجان ـ لشابة امريكية تدعى الآنسة ((دى رولان)) ، كان السيد روجان قد عرفنى بها . فاذا بها تصبح ـ خلال ثلاثة أشهر ـ قادرة على ان تقرأ على ((نوتتى)) أى نوع من الموسيقى ، وان تغنى بمجرد النظر الى ((النوتة)) ـ باتقان يفوق اتقانى أنا ـ كل قطعة غير بالغة الصعوبة.** وكان هذا التوفيق رائعا ، ولـكنه ظل مجهولا . فقد كان أى امرىء سواى خليقــا بأن يملأ الصحف به ، أما أنا ، فبالرغم من أننى أوتيت المقدرة على اكتشاف الاشياء المفيدة ، الا اننى لم أعمد قط الى ابراز قيمتها !

وهــكذا تحطمت ((نافورتى الصغيرة)) مرة اخــرى (١) . ولكنى فى هذه المرة الثانية ، كنت فى الثلاثين من عمرى، وكنت قد وجدت نفسى فى طرق (باريس) المعبدة ، حيث لايستطيع المرء ان يعيش بلا موارد . ولن يدهش القرار الذى انتهى بى الى هذه النهاية ، سوى اولئك الذين لم يقرأوا بامعــان الجزء الأول من هذه المذكرات !.. ذلك اننى كنت قد بذلت مجهودا كبيرا ، وان لم يكن مثمرا ، فكنت بحاجة الى استجمام. **وبدلا من ان استسلم للقنــوط ، اسلمت نفسى لخمولى المعهــود ، وللعناية الالهية ، ولــكى ادع لهذه العناية وقتــا كى تقوم فيه بدورها ، فقــد اقبلت على انفــاق بضع قطع ماليــة من فئة ((لوى)) ـ كانت قد بقيت معى ـ فى غير ما تعجل !.. ودبرت نفقات متعى البريئة بحيث لا أتخلى عنها ، فلم أعد اذهب الى المقهى سوى مرة فى كل يومين، والى المسرح مرتين فى الأسبوع.**

(١) يشبه « روسو » مشروعه الموسيقى ، بالنــافورة الصغيرة التى بني عليهــا آمالا عندما بارح (تورين) ، والتي أورد قصتها في الكراسة الثالثة بالجزء الأول .

أما النفقات اللازمة لصحبة الفتيات ، فانني لم اكن بحاجة الى الحد منها ، لأنني لم أنفق «سو» واحدا على هذه الناحية ، في حياتي ، اللهم الا في مناسبة واحـدة ، سأضطر الى الحديث عنها بعد قليل

اعترافات

چان چاك روسو

"..لقد أحيتنى شهواتى .. ولقد قتلتنى شهواتى! وكان فى مقدمتها النساء!

.. فكانت حواسى تسكن عندما أستولى على واحدة منهن، ولكن قلبى لم يكن يسكن قط!.. كانت الحاجة إلى الحبّ تكوينى وأنا فى غمرة الاستمتاع.. وكانت لدىّ أم حنون، وصديقة عزيزة، ولكنى كنت بحاجة إلى خليلة!..

ولو أننى فكرت - وأنا أعانقها - فى أننى انما كنت أضم "أمى" فى أحضانى، لفترت حرارة عناقى، ولخبت كل شهواتى، ولبكيت من الوجد...

ولما شعرت قط بالمتعة!"

جان جاك روسو



اذا كان قد فاتك الحصول على الجزء الأول، فاطلبه فورا من الإدارة قبل نفاده، ولاتدع هذا الجزء الثانى يفوتك

يصدرها حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية